إبداعات عالمية

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

329

مختارات من القصة التركية المعاصرة



تأليف
مجموعة من القاصين الأتراك

ترجمة
عبدالقادر عبداللي

مراجعة
د. زينب سعد زغلول أبو سنة

سلسلة شهرية محكمة تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

أبريل 2001



مختارات من القصة التركية المعاصرة

تأليف: مجموعة من القاصِّين الأتراك

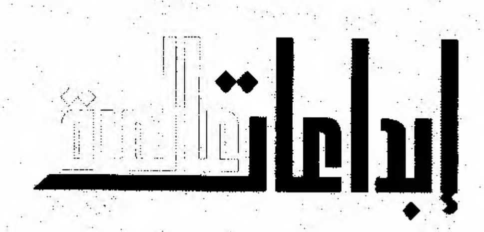
ترجمة

عبدالقادر عبداللي

مراجعة

زينب سعد زغلول أبو سنة

العدد 329 أبريل 2001



تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	**500** فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولاراً أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	**10** د.ك
للمؤسسات	**20** د.ك

دول الخليج

للأفراد	**12** د.ك
للمؤسسات	**24** د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	**25** دولارا أمريكيا
للمؤسسات	**50** دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	**50** دولارا أمريكيا
للمؤسسات	**100** دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:
السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: **28623** - الصفاة - الرمز البريدي**13147**
دولة الكويت

ردمك ٢ - ٠٥٦- ٠ - ٩٩٩٠٦
ISBN 99906- 0- 056-2

مختارات من القصة التركية

مختارات من القصة التركية المعاصرة
ترجمة : عبدالقادر عبداللي
مراجعة : زينب سعد زغلول أبو سنة

الطبعة الأولى - الكويت
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 2001م
إبداعات عالمية العدد 329

صدر العدد الأول في أكتوبر ١٩٦٩م
تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها : أحمد مشاري العدواني
(١٩٢٣-١٩٩٠)

● غلاف العدد لوحة« من البحر إلى البر» للفنان الكويتي جعفر دشتي .

المحتوى

مقدمة

بداية لابد من الاعتـــراف أن أواصـــر العـــلاقـــة بين الأدبين التركي والعربي في أدنى مستوى لها، وهـي من دون علاقة بأي أدب آخـر، وخاصـة الأدب أو الآداب الأوروبيـة، على حين يجب أن يكون الأمر على عكس ذلك، فالروابط الاجتماعية والدينية للشعبين العربي والتركي تعـود إل فتـرة مبكرة بدأت بالفتح العربي الإسلامي لبلاد الترك الأصلية في أواسط آسيا العام ٥٤ للهجرة، واستمرت هذه العلاقة بتداخل يندر وجود مثيل له في التـاريخ حتى العـام ١٩١٦ تاريخ انطلاقـة ثورة الشـريف حسين من مكة المكرمة ضد الوجود العثماني في البلاد العربية.

مما تقدم نجد أن العثمانيين عندما دخلوا البلاد العربية اعتبارا من العام ١٥١٦ في معركة «مرج دابق» شمالي حلب كانوا محملين بالثقافة العربية، ومن قبل هجرتهم إلى الأناضول عندما كانوا في مدنهم الأصلية بخارى، سمرقند، طشقند، وغيرها من المدن... وعلى الرغم من هذا الامتداد التاريخي النادر الوجود فإن العرب لا يعرفون من الشعراء الأتراك سوى ناظم حكمت، وعندما نتحدث عن الرواية فليس هنالك سوى روايتين ليشاركمال إحداهما ترجمت عن الفرنسية وواحدة لأورخان باموق، وعدد من الروايات لعزيزنسين)... أما

الحديث عن فن القصة التركية فهو ذو شجون، إذ لم يترجم من كتاب القصة الأتراك سوى عزيز نسين، وثمة كتاب واحد صغير جدا لخلدون طانر. وعزيز نسين يكتب قصة تنفرد، أو تخرج عن سرب القصة التركية عموما، وغالبا ما تأخذ تصنيفا مستقلا.

حاولت من خلال هذه المجموعة استعراض خط تطور القصة في تركيا منذ ثلاثينيات هذا القرن حتى بداية تسعينياته بمختلف اتجاهاتها الأدبية وتعددية مدارسها. فالكتَّاب الذين وقع عليهم الاختيار يمثلون النقاط الأبرز في كتابة القصة على الرغم من شهرة بعضهم في ميادين أدبية أخرى. لهذا يمكن أن نجد الواقعية بمختلف اتجاهاتها، والرومانسية والتعبيرية، وما فوق الواقعية... إلخ ضمن نسيج القصص المختارة عموما.

إضافة إلى هذا فقد اختيرت الأصوات الأدبية النسائية، ولم يتم الاختيار من أجل أن يكون هنالك صوت نسائي فقط، بل تعتبر الأصوات النسائية المختارة في هذه المجموعة ذات حضور مهم في الساحة الأدبية عموما، والقصصية التركية خصوصا.

وبالتالي يمكن اعتبار أن هذه المجموعة تسير على محورين:

١ـ طولي: يأخذ المسار الزمني للكتاب، وقد جاء الترتيب حسب أعمار الكتاب وتاريخ تقديمهم القصة المختارة.

٢ـ عرضي: تناول أهم الكتاب في فترة زمنية معينة بتعددية الرؤى، وبالتالي تعددية الاتجاهات الأدبية في الشريحة الزمنية الواحدة.



على الرغم من هذا لا يمكن إطلاق تسمية «أنطولوجيا» أو «موسوعة القصة التركية المعاصرة» على هذا العمل، لأن الكتب التي تحمل تسميات كهذه لابد أن تكون أوسع وأشمل، وأن تضم الكتاب الآخرين الذين قدموا قصصا ذات خصائص مشابهة لمن اختيروا في هذا العمل.



لقد أعددت هذه المجموعة لتكون مساهمة في التعريف بأحد ضروب الأدب المعاصر في تركيا، وهو فن القصة لدولة تشاركنا تاريخا يمتد ألف عام، وحدودا تقارب الألف كيلومتر، وتبتعد عنا في الوقت الراهن آلاف الكيلومترات...

يعتبر عزيزنسين أن التبادل الثقافي من الجسور المهمة التي تقرب الشعوب إلى بعضها بعضا، ومن الضروري إذن أن نترجم، ونتعرف إلى ثقافة الأتراك لنبني مزيدا من الجسور التي تجعلنا نتقارب أكثر فأكثر.

المترجم

كمال بيلبشار

(ولد في تشنق قلعة العام ١٩١٠ - وتوفي في اسطنبول العام ١٩٨٣)

تخرج في معهد أدرنة لإعداد المعلمين العام ١٩٢٩، وقسم التاريخ في معهد أنقرة العالي للتربية العام ١٩٣٥. تقاعد من التعليم العام ١٩٦١، ونشر أولى قصصه العام ١٩٣٧.

كتب القصص والروايات الواقعية التقليدية المستمدة من بيئة غرب الأناضول الريفية، وهذه الأعمال غالبا تناولت العقائد والتقاليد، وصراع المصالح.

مجموعاته القصصية: (قصص الأناضول ١٩٣٩)، (بستان الجوز ١٩٤١)، (مساومة ١٩٤٤)، (الذئب الوردي ١٩٣٥)، (من القرية إلى المدينة ١٩٥٦)، (غضب الشغيلة ١٩٧١)...

رواياته: (نداء البحر ١٩٤٣)، (ليلة الخسوف ١٩٦١)، (جيمو ١٩٦٦)، (ميمو - الجزء الأول العام ١٩٦٨- الجزء الثاني ١٩٦٩)، (الظل الأخضر ١٩٧٠)، (عرس الأغوات أمر مختلف ١٩٧٧)، (منعطف العبودية ١٩٧٧)... وله رواية للأطفال.

فائز بجائزة مجمع اللغة التركية عن روايته جيمو العام ١٩٦٧، وبجائزة (ماي) عن روايته: الظل الأخضر العام ١٩٦٨.



النُّكْس

قال كاتب الجمعية التعاونية عندما كان سليمان جاويش يدس القرض البالغ سبعمائة وخمسين ليرة في زناره، والذي يتوجب عليه دفعه في موسم الزيتون:

- لوكنت مكانك لذهبت إلى إزمير فورا. كم بقي لنا من العمر يا سليمان جاويش؟ وهل سيبقى الأولاد شاغلين بالنا؟ اذهب إلى الملاهي واستمتع كما تريد.

توقف سليمان جاويش، واستدار نصف استدارة، وقال:

- أنت تريدني أن أبيع مزرعة الزيتون، أليس كذلك؟ وهل أنا مثل (يشملي أورفات)؟ انظر إلي جيدا!

كاد يتابع القول: «وهل أنا ممن يعطي النقود ببساطة لصهرك؟»، لكنه لم يقل، لأنه يعرف لو حدث شيء بينهما فسيتضرر. لم يراع كاتب الجمعية هذا، وأمسكه من الطرف الذي يؤلمه بقوله:

- اذهب، واشتر بنقودك قطع تبديل، وانتظر أياما. أنت مستحق... هذه نهاية من يسمع كلام ابنه... استثمرها في تجارة الخرداوات.

- لا تفتح هذا الموضوع! المثل يقول: «بعد أن تتعطل العربة تجد كثيرا من الناس يدلونك على الطريق الصحيح».

قطب كاتب الجمعية حاجبيه، وقال:

ـ لاااا... لا تقل هذا يا سليمان. يشهد الله أنني لم أقصر في نصحك. قلت: «لا تتعجل يا سليمان! بإمكانك شراء الدراجة النارية متى تشاء. نحن لم ننشأ على استخدام الدراجات النارية». ألم أقل لك هذا؟

لم يجب سليمان جاويش، واكتفى بهز رأسه، لكن الكاتب تابع قائلا:

ـ إنك لا تجيب. ظننت أنني أحسدك فاشتريت الدراجة عنادا. عندها لم يبق لنا إلا أن نقول: مبروك!

حكَّ سليمان جاويش ذقنه، وقال:

ـ أردنا ألا نزعل الولد. إنها الأبوة، وما باليد حيلة.

نهض كاتب الجمعية خلف طاولته، واقترب من سليمان جاويش، وقال:

ـ لا تهتم بزعل الولد! ابني ضغط عليّ أيضا. لا تتضايق!... وهل أرسلت ولدا للدراسة في المدينة؟ اعملها، وانتظر النتيجة!

أراد سليمان جاويش إلقاء المسؤولية على عاتق الآخرين، فبصق على الأرض، وقال:

ـ ماذا سنفعل؟ وحيد أمه. دللته إلى آخر حد... لم أستطع منعها... (انشرح سليمان قليلا، فأسهب في الحديث) لو كان الأمر لي لتخليت عن فكرة الدراجة من زمان... الولد يقول:

«إذا فقدت الدراجة، ستفقدونني» دُخت...

لكز كاتب الجمعية سليمان جاويش من خصره بانشراح، وقال:

ـ آه... كنت تقول: «سيصبح رجلا إن درس». ها هو الرجل المنتظر. لم يعد يعجبه أبوه وأمه... ابني أنا لا يخرج عن طاعتي أبدا.

ـ وابني أيضا. ليس له معصية غير هذه. إنه مجنون دراجة فقط.

قال هذا سليمان جاويش ليرد اعتباره لنفسه.

سكت كاتب الجمعية برهة ثم قال:

ـ لو نسفت موضوع الدراجة من أساسه، كان من الممكن أن تتغير الأمور.

هز سليمان جاويش رأسه وقال:

ـ ظننت أنه تعلل بتعطلها عندما أردنا أن نسقي الأرض... هويت بالجاروف على الدراجة... ثم ضربت الولد على وجهه وفمه... أخذ نقودا من أمه، وذهب إلى المدينة وأصلحها... أنا الذي تضررت...

رفع كاتب الجمعية كتفيه، وقال:

ـ كان الله في عونك!

عندما لم يجد سليمان جاويش كلاما يرد به، قال:

ـ آمين! ثم مشى، وأضاف: «عن إذنك!».

ولكي يخفف من حرقة قلبه، شرب ثلاثة أقداح من النبيذ في مطعم للكباب ثم خرج. رفع درجة ثقته بنفسه. وحل في قلبه السرور

اقترب سليمان من المهرة مرة أخرى. اشرأبت نحوه. حكت أنفها بوجهه.

قال سليمان جاويش في سره: «خذ هذه الدابة... ستلزمك». تراءى أمام عينيه مشهد الدراجة وقد خربت وألقيت جانبا، والدابة تركض وتدير ناعورة الماء. غمره السرور... تناهت إلى أذنيه أغنية الناعورة(*)... «وإذا فعل الولد ما قال؟ أي ترك القرية وذهب»... كان فخذها قاسيا وحارا كفخذ فتاة... «إن أراد الذهاب فليذهب. وإن كان يحب قريته وأباه وأمه فسيعود. المدينة لا تستطيع إيواء القرويين. يجب أن يعرف الولد حقيقة أبيه قبل أن ينحرف تماما!...»، قال للسمسار:

ـ كم تريد ثمنا لها أيها السمسار؟

(*) الساقية

أورخان كمال

(ولد في بلدة جيحون العام ١٩١٤- وتوفي في صوفيا العام ١٩٧٠)

اسمه الحقيقي محمد رشيد أووتجو. وهو ابن رجل السياسة والقانون عبدالقادر كمالي. انقطع عن الدراسة بسبب هروب والده إلى سورية لأسباب سياسية. اشتغل عاملا في معمل للقطن.

تأثر بناظم حكمت حين التقاه في أثناء سجنه السياسي في بورصة. بدأ بنشر قصصه في المجلات التقدمية اعتبارا من العام ١٩٤٠.

تناولت قصصه الواقعية الاجتماعية موضوع عمال الزراعة والصناعة في ضواحي أضنة، وبعد العام ١٩٥٠ تناولت موضوع المهاجرين إلى اسطنبول، والفقراء منها: (الصراع من أجل الخبز ١٩٤٩)، (السكارى ١٩٥١)، (ابنة عاملة الغسيل ١٩٥٢)، (الزنزانة رقم ٧٢ ١٩٥٤)، (إضراب ١٩٥٤)، (الزقاق الخلفي ١٩٥٦)، (كان ثمة حرب في العالم ١٩٦٣)، (عاطل عن العمل ١٩٦٦) نال عن هذه المجموعة جائزة سعيد فائق للقصة، وجائزة مجمع اللغة التركية.

تناول في كتابه (سيرة قصيرة ١٩٤٩) حياته الشخصية في بيت أبيه.

كانت باكورة أعماله الروائية (سنوات التسكع ١٩٥٠)، وتلتها (جميلة ١٩٥٢)، ونالتا الإعجاب الشديد. بلغ عدد رواياته ستا وعشرين رواية، كما كتب العديد من المسرحيات معتمدا على إعادة بناء إحدى قصصه مسرحيا.

الزقاق الخلفي

فجأة، ملأ الحي صياح امرأة.

- ماذا هناك؟ ما الذي حدث؟

- لا تسأل يا صديقي، إنها امرأة...

- امرأة فقيرة. فقرها أسود...

- إيه؟

- إنها تلد.

- أين؟

- في الزقاق الخلفي!

....

جحظت عينا المرأة الماخض وهي تدخل كوخها الخشبي في الطرف السفلي للزقاق. كان وجهها المعبر عن عذاب أليم أحمر قانيا. استندت إلى الأرض الترابية فوق ركبتيها تعصر بطنها بيديها وهي تئن من الألم.

كانت ابنة السنوات الأربع ترنو إلى أمها بعينين زرقاوين واسعتين.

قالت الماخض مكررة:

- آه يا ربي...

تَلَفَّتَتْ الطفلة حولها. هنالك بيوت عالية جدا ... إلى الأمام شارع. مرت في الشارع قطتان، إحداهما تطارد الأخرى.

لم تعد الماخض تستطيع الاحتمال. أكبت بوجهها على الأرض. فعادت الطفلة إليها مندهشة:

- أمي!

لم تستطع الأم الإجابة. تلفتت الطفلة حولها مرة أخرى. نهضت الماخض. توقفت نوبات الألم. انتصبت. دخلت إلى كوخها الخشبي. أرخت نفسها على شيء ناعم مفتوح على الأرض. كانت على يقين بأن نوبات الألم ستعود بشكل أقوى. صاحت الطفلة عبر الباب مجددا:

- أمي!

ابتسمت الماخض بألم شديد:

- انتظري يا بنتي هناك! ستأتي القابلة الآن.

تلوَّت الماخض عندما عادت إليها نوبات الألم. كانت تصدر مع التلوي أنينا كأنه ينتزع من نقي عظامها.

فجأة ارتعدت الطفلة عندما لا حظت أن أشباحا سوداء تتطاير في الكوخ. تصورت أنها فئران طيارة أو صراصير سوداء... يالكثرتها... وهي تطير أيضا... صاحت:

- أمي!

رفعت الماخض رأسها ونظرت إلى الطفلة، وقالت:

- لا تتحركي من هناك يابنتي. خالتك القابلة على وشك المجيء.

- نعم يا أمي. لن أذهب.

كان الكوخ يزداد عتمة. والصراصير الطيارة تزداد عددا. أصبحت حالة الأم صعبة جدا بسبب نوبات الألم. صاحت الطفلة مرة أخرى:

- أمي!

....

توقفت القابلة ذات العظام الخشنة التي تشبه عظام الذكور، وسط الزقاق، وقالت:

- ليس لها زوج. اتركوا تحقيق ملكي القبر واعطوها شيئا. ارحموها.

قالت زوجة السمسار:

- الله أعلم ممن حملت.

- لتحمل ممن تشاء يا سيدة. إنها تحمل روحا.

- أنا لم أقل شيئا ياخالتي القابلة!

- رؤية الشوكة في عيون الآخرين مسألة سهلة يا بنتي، ولكن الشطارة...

تتدخل زوجة السائق قائلة:

- رؤية الإنسان للشوكة في عينه.

منذ فترة طويلة وهي على عداء مع زوجة السمسار، فتابعت قائلة:

- اسمعي يا زوجة السمسار السافلة، لا تجعليني أفتح فمي بالكلام.

- افتحيه... افتحيه لنسمع ما سيخرج منه.

- لا تجعليني أفتحه وكفى إلى هذا الحد.

- إذا كان عندك شيء فقوليه يا بنتي. أنا رأسي مرفوع.

- واضح.

كان واضحا أن المشاجرة ستكبر. تدخلت القابلة مرة أخرى:

- اتركا المشاجرة. إما أن المرأة قد ولدت أو تكاد. هاتوا ما لديكما من خرق أو ألبسة قديمة، بسرعة!

إثر هذا أمطرت المرأتان قطع القماش، وبعض الثياب القديمة. وضعت امرأة السمسار غريمتها تحت المراقبة. عندما رمت امرأة السائق بعض الألبسة التي صغرت على ابنتها، قالت امرأة السمسار من النافذة:

- خذي يا سيدة! خذي هذه!

وعرضت أربع قطع قماش، وقميصين، وقميصا داخليا، وقطعة نقود من فئة خمس ليرات قبل أن ترميها.

امتقع وجه زوجة السائق، وغضبت:

ـ انتظري يا سيدة، سأعود فورا.

كان الجميع ينتظرون بفضول.

خرجت زوجة السائق بعد قليل (بدستة) من القمصان الداخلية، وثلاثة أثواب، وسروالين داخليين، وأربعة قمصان، وزوجين من الجوارب، مما صغر على ابنتها، مع عشر ليرات.

وعلى الرغم من تفكير زوجة السمسار بأشياء جديدة لكنها وجدت أن ما قدمته كثيرا، فتظاهرت باللامبالاة.

لما ظهرت القابلة عند منعطف الزقاق قالت الطفلة المنتظرة عند باب الكوخ لأمها:

- جاءت خالتي القابلة يا أمي.

كانت الماخض جاهزة. جلست متكورة. دخلت القابلة بعد أن طلبت إلى الفتاة الخروج للّعب، وأغلقت خلفها الباب.



كانت المشاجرة قد توقفت، وكذلك القيل والقال في الزقاق الخلفي. أما الأعصاب فقد وصلت إلى حدها الأقصى من التوتر. الجميع ينتظرون الخبر. النسوة اللواتي ولدن قبل هذه المرة تذكرن ولادتهن، وكن يعبرن الزقاق بعيونهن، وهن عابسات.

ـ ليس المولود مما يرمى أمام الباب.

سألت زوجة السمسار:

ـ ماذا لو كان الجنين في الرحم مقلوبا؟

بدأ حوار غير منتظم:

- إنها فقيرة جدا. فعلا، ماذا ستفعل إذا كان الجنين في الرحم مقلوبا.

- لا نقود لديها لإجراء عملية.

- مسكينة، ستموت أمام أعين الجميع. على الحكومة أن تفكر في الفقراء. أمن العدل أن يموت الإنسان لمجرد أنه لا يملك نقودا. إذا كان الجنين مقلوبا يجب إجراء عملية ولادة قيصرية. عملتها إحدى قريباتنا... لكنهم أغنياء جدا.

- ونحن لنا أقرباء أغنياء.

- ونحن أيضا!

- أقرباؤنا يذهبون دائما إلى اسطنبول. يستأجرون (فيلا) على البوسفور، أو في الجزر، ويصرفون حفنة من النقود.

- كل شخص له أقرباء أغنياء يا سيدة. أقرباؤنا يذهبون إلى أوروبا.

انصرفت نساء الحي عن المرأتين المتفاخرتين بأقربائهما الأغنياء إلى المرأة الفقيرة:

- لا تغيب عن عقلي تلك المرأة الفقيرة.

- وأنا أيضا.

- أرجو الله أن تلد بسلامة.

- إن شاء الله. ولكن... على الدولة أن توفر مكانا خاصا تلد فيه النسوة ذوات الوضع مثل وضع هذه المرأة.

- إنه مستشفى التوليد. موجود.

- أيكفي؟ الدخول إليه يحتاج إلى واسطة.

- أأقول لك الحق؟ على النساء الفقيرات ألا يفعلن أمرا من هذا النوع، ولا سيما إن كن بلا أزواج فليحذرن الحمل. على الحكومة أن تسن قوانين تمنع هذا.

- واخ... هذا ما كان ينقصنا. المسكين محروم من كل شيء. ثم ألا يفكر المشرعون في هذا الأمر؟

الفقر من عند الله. لابد أن يأتي يوم يصبحون فيه هم أيضا فقراء. وإن لم يكونوا هم، فأولادهم.

- صحيح.

- تنفس الأغنياء نفيس يا أختي. لكن الله أعطى الفقير نفسا كنفس الكلب.

قالت زوجة بائع الأشياء المستعملة، الضئيلة الحجم، والعصبية:

- إعطاء النفس سهل. إما ألا يقدم لنا الغني همومه، أو يأخذه الله إلى عنده.

بعد قليل خرجت القابلة إلى الزقاق مدماة اليدين كبطل. حبس الجميع أنفاسهم. حملقت العيون. صمت الزقاق كأنه أصيب بنوبة قلبية.

- ماذا حدث؟

- ماذا حدث أيتها القابلة؟ هل أنقذت؟

زفت القابلة الخبر بعينين فرحتين:

- رزقنا بصبي ككتلة ضوء.

اهتز الزقاق بدموع الفرح. خاصة زوجة السائق! قفزت حافية. وعلى الرغم من قطيعتها الطويلة لزوجة السمسار، ضمتها إلى صدرها، وقبلتها من وجنتيها، وقبلتها، وقبلتها...

ولـــد

بقلم: أورخان كمال

لاربيع لاسطنبول

نصف الاثني عشر شهرا في اسطنبول شتاءً، ونصفها الآخر صيف، الربيع لحظات غالبا ما تكون على شكل بقايا من صيف منثورة بنورها وحرارتها بين أيام الشتاء القاسي كلمع برق في ليل حالك. ثم يأتي اليوم التالي بعدها وكأنه منتقم، أكثر إظلاما، وأكثر رعدا... هكذا تتعاقب الأيام متحاضنة بقوة.

لاربيع لاسطنبول

في أواسط نيسان. يوم نيّر وحار من بقايا الشتاء. تتلامع النجوم في السماء. مساء يوم كهذا، سيارات الخدمة، والحافلات الكهربائية تُجري في شارع الاستقلال دون توقف. صفارات حادة تطلقها شرطة المرور.

ثمة ولد يسير على الرصيف الأيمن من الشارع في اتجاهه نحو ساحة (التقسيم). حافي القدمين. ربط بخيط قنب كمي سرواله المرقع الذي وجده في يوم شتوي من مخلفات الصيف في برميل قمامة أحد أبنية حي (الحربية) الراقي، لبسه ورمى القديم المهترئ تماما. يظهر لون جسمه الأسمر من عدة أمكنة تحت خرق تدعى قميصا، قذارتها تجعلها أقرب إلى النايلون منها إلى القماش. شعره قذر وطويل. لا يهمه أي شيء من منطقة (بيك أوغلو) أو شارع الاستقلال، لا الحافلات

الكهربائية، ولاسيارات الخدمة، ولا الماشون على الرصيف في صفوف متلاصقين من دون توقف. لا يثير اهتمامه صفًّا الأبنية على طرفي شارع الاستقلال كسلسلتي جبال، ولا واجهات المحلات المنارة، وغير المنارة، وشبه المنارة، ولا النساء الملتفات بالفراء أو المخمل، ولا الرجال الغيورون مقطبو الحواجب ساحبو زوجاتهم من أذرعهن...

سحب نفسا من عقب سيجارته الأسود، ثم نفخه بلامبالاة، قدمه كدقماق. لو حاول أحد - حتى الأخ بيتون - أخذ عقب السيجارة من بين إصبعيه لما استطاع. بيتون الذي دوخ رجلا ضخما بلكمة ونطحة.. حتى إنه دخل السجن...

كان الولد ماشيا يدوس الأرض بقدميه الحافيتين بقوة.

رمى عقب السيجارة، وأطلق سبابا غريبا عندما لذعته ناره.

سقط العقب بعد انحراف قليل على الحذاء الأيسر اللماع لرجل متأبط ذراع امرأة جميلة. كاد الرجل يأكله بنظراته. كان الولد سيشتمه لولا المرأة، ولو لم يخجل منها. قال الولد:

- لماذا تنظر إلي؟

دهش الرجل. هذا الحافي، المرقع السروال، الأشعث الشعر، المسخ، يتصدى لي بدلا من سؤالي بضعة قروش؟

أضاف الولد بعد قذف بصقة:

- أنت مثل عربة حجارة.

كان في تلك اللحظة قويا كالأخ بيتون بعد نطحة ولكمة. أسجن مثله؟ غير مهم. وماذا يعني أنه سجن؟ كل ما قضاه الأخ بيتون في

السجن ثلاثة أو ستة أشهر. كانت قد أطفئت سخانات الأبنية في حي نيشان طاش عندما كان بيتون يُسخن قطعة خبز على مدفأة السجن التي لم تطفأ بعد. هو أيضا كالأخ بيتون ليس ثمة من يبكي عليه بعد موته. أخذ الله أباه وأمه... أما الخالة والعمة، والخال والعم، والجد والجدة.. فلا يأكلون أو يشربون. يؤذن في المآذن للأوقات الخمسة، وتقرع النواقيس في الكنائس، والناس يتراكضون نحو المساجد والكنائس، والبيع... ثم يخرجون. لماذا يخرجون؟ تتوالى أشهر رمضان، وبعدها الأعياد، وتطلق المدافع، ويتألق الأطفال ذوو الآباء والأمهات بالأحمر والبنفسجي والأخضر بانسجام أغنية شعبية، ثم تعود الأيام القديمة وكل شيء كما كان بعد انقضاء شهر رمضان والعيد. تهطل الأمطار وتتبعثر الريح مع اصطدامها بقمم الأبنية. ويتناثر الثلج ندفا، ندفا. الثلج يبلل كل شيء.

ما أجمل اسطنبول الرطبة تلك يتناثر فيها الثلج كندف القطن، والريح تتلاطم بين جدران الأبنية وتغرق المياه المدينة بلون فضي، وتشعل جميع محارق السخانات. المحارق ساخنة جدا. يجلس فوقها (الأخ بيتون)، و (إرول الغشاش)، و (دمير توست)، و (علي الحشاش). يتمددون على محارق السخانات عندما يتعبون من لعب الورق. أُطفئ أبي وأمي.

لاربيع لاسطنبول

نصف الاثني عشر شهرا في اسطنبول شتاء ونصفها الآخر صيف. تُطفأ السخانات في أواسط نيسان، وهذا الشهر غالبا ما يكون من الشتاء: عواصف وأمطار وصقيع، ولكن من يهتم؟ الأخ بيتون أم إرول

الغشاش أم توست أم الحشاش؟

أطلق الأصدقاء لقب «أوزتورك» على إردال. كان هذا بعد فيلم «أبيدا غوبيدا». كان يقول: «عااااش» عندما يجلس إلى لحمته المقلية. ليس هناك أفضل من رقص (التوست)، ولكن تعال اقنع السينمائيين بهذا... يا أشباه عربات الحجارة، اعطوا الدور لإردال أوزتورك ليحفظه ثم يلقيه. اعطه دور المتمرد ولينتظر المخبرون ليلا بين أبنية كالجبال. ليضع إصبعيه في فمه، ويصفر خادعا سيارات الشرطة. لم يخدعوا. ليرم نفسه على الأرض كأنه أصيب وسترى. وشرفي ستتهدم السينما لكثرة التصفيق! ولكن اقنع السينمائيين بهذا. ليس لديهم سوى عائشة وبارلا... كيف الأفلام الأجنبية؟ لو كنت في أمريكا... أأكذب يا غشاش؟ لماذا تضحك؟ أتضحك علي؟ أنزل بأختك...

فجأة وقف، نسي السينمائيين، والأفلام الأجنبية، وأمريكا، والثلاث ورقات، وكل هذا. مطعم فخم. لا مصابيح النيون التي تحول المطعم إلى نهار، ولا الرجال والنساء الجالسون إلى الطاولات يملؤون بطونهم، ولا أطباق الطعام، ولا واجهة المطعم شدت انتباهه، بل سمكة ضخمة. ضربة ساطور حاد في منتصفها يقسمها قسمين. تذكر فجأة وحش البحر. أرآه في السينما، أم أن الأخ بيتون قرأ له عنه في رواية مصورة؟ بحر، ووحش، وسفينة، وقبطان ذو لحية حمراء، وبحارة، يالجمال الدنيا قديما!

هنالك سفن قرصنة، وقراصنة. أراد أن يكون صبي خدمة لواحدة من تلك السفن. الأكل كثير، والنوم في فراش دافئ في الجزء السفلي من السفينة. يستيقظ على صوت هجوم سفن الأعداء كفيلم «القناع الحديدي». ذبح القراصنة كل من في السفينة ما عدا القبطان قيدوه.

الوقت ليل. يستيقظ الصبي أثناء نوم الجميع كما في الفيلم، ويفك قيد القبطان، ويقفزان إلى زورق يهربان به. أثناء هربهما يرميان قطع القماش المبللة بالغاز على السفينة فتتحول إلى ألسنة لهب وسط الظلام.

يصلان إلى جزيرة خاوية حيث خزينة القبطان السرية. يحملانها في الزورق، ويجدفان حتى يصلا إلى ميناء ضخم. يشتريان سفينة. يكلفه القبطان بالمراقبة ويعطيه مسدسا كما حدث في الفيلم. يذهب، ويشتري سفنا. ولكن سفن القراصنة التي يعلوها علم عليه رسم جمجمة تتجول من ميناء إلى ميناء، وعلى متنها رجال سكارى عكروا المزاج، وأقوياء. يضربون الزوارق. يقتربون وجها لوجه. يريدون الهجوم على الولد وأخذ الخزينة السرية. إنه مجرد طفل يتصدى لهم بمسدسه، ويطلق النار عليهم عندما يتقابلون، مرة أخرى يطلق النار، وأخرى، وأخرى... يرمي اللصوص بأنفسهم في مياه الميناء القذرة. يأتي رجال الميناء ويضعون القيود في معاصمهم، ثم إلى السجن. وما السجن؟ ها هو، بيتون دخل وخرج. هل مات؟ حسب قوله: «المدفأة تشتعل حتى أواخر أيار. الأكل كثير. تلعب القمار، وإن لم يكن معك نقود، فإلى أعقاب السجائر.»

سحب نفسا عميقا. سمكة ضخمة وورق عنب في واجهة المطعم. أواسط نيسان، طماطم حمراء، أفخاذ الخراف، الكلى، الكبد، سلطة..

رمى بصقة أخرى على رصيف شارع الاستقلال. قال بيتون: «ستتفتح عيناك في السجن. إذا فتحتهما فلا تخف! لكمة ونطحة تلقي أحمق أرضا، بعدها يهابونك .. ثم تفرض الإتاوة على الشباب، فتعيش كالملوك»

فجأة تعلقت عيناه بلقمة الرجل البدين، ذي الذقن المدورة، الجالس إلى الطاولة الأمامية في المطعم الذي تحوله مصابيح النيون إلى نهار «ياهو، انظر إلى اللقمة. إنها تتزلق إلى داخله بخفة».

ادفع القبعة البنفسجية خلفا. فك ربطة عنقك. احلق شعرك بالموسى. ضع قرطا لإحدى أذنيك. البس ثياب القراصنة، وخذ دور قاطع الطرق كما في فيلم «القناع الحديدي» .. «ليعطوني دور صبي الخدمة في السفينة كما في الفيلم، وملعونة أمي إن ما جعلت السينما تتهدم من التصفيق».

كان الرجل البدين المدور الذقن الجالس إلى الطاولة الأمامية في المطعم الذي تحوله مصابيح النيون إلى نهار ينظر إلى الولد بشكل غير طبيعي. كان هو أيضا كهذا الولد يمشي حافي القدمين على أرصفة منتصف نيسان الباردة، وكان عليه من الأسمال مثلما على الولد، وينظر إلى شبعى البطون بعينين جائعتين. أخذ الله أباه وأمه، وعمته وخالته.. لكنه فتح عينيه ياسيدي! عمل سقاء، وبائع سكاكر، وصبيا عند بائع، وحمالا، ثم مراقبا لدى أحد اللصوص، وضرب ، وكسر أبواب الدكاكين في حي السلطان أحمد، وعمل رئيس حمالين في حي الشيشلي وفي الماتشكا. ذل، ومرض، وسلب، ونهب، ونطح، ولكم، طعن بسكين ثم ضرب ضربته. أين؟ كيف؟ «لا تدقق كثيرا. أنا اليوم متعهد، مسجل في غرفة التجارة».

بلع جرعة من الخمر وصاح:

- أيها النادل!

هرع النادل الأسود الثياب:

- نعم ياسيدي؟

- اطرد ابن الحرام هذا من هناك!

ابن حرام؟ أهو كذلك ؟ وما يهم إن كان ابن حرام؟ ما ذنبه؟ ماذا فعل؟

- هيا ياولد . اذهب!

لماذا؟ لم أطلب منكم شيئا. ماذا يحدث لو شبهنا ذاك الرجل بالقرصان ذي القرط؟

- اذهب من هنا

- لماذا يا أخي؟ وهل أكلنا مطعمكم؟

- لا تثرثر!

النادل في وضع أقرب إلى الضحك منه إلى الغضب. انبعث صوت آخر من رجل ممشط الشعر، ذي ربطة عنق حمراء.

- أيها النادل!

- نعم يا سيدي؟

- لماذا تطرد الولد؟

قال الظريف عضو الغرفة التجارية حاليا:

- أنا طلبت منه هذا.

- أنتم ! لماذا؟

- يثير اشمئزازي

- آه، أيثير اشمئزازكم؟

- أما أعجبك ياقذر؟

- ماذا؟ أنا أشتريك!

- أنا أشتري أباك. ألا تعرفني يا ...؟

- وهل أنت الرب؟

لو كنت لسحقتك!

....

تطايرت المناديل والأغطية عن الطاولات « ..آخ يا أمي، يا أبي ...»، « ......»، «قف هناك يا ...» وانهالت اللكمات، وانقلبت طاولات، وكُسِّرت كؤوس وأباريق، وتناثرت ملاعق وسكاكين.

- يا حراس!

- يا شرطة! يا حراس! يا شرطة!

- يا ااا...

كان الولد المنتفخ الكاحلين يتفرج على مشهد عراك في مطعم في أحد الأفلام المحلية. نسي اسمه.

قال عندما كانت أنفاسه متلاحقة: « ..آخ، لا يجوز هكذا. اضرب يا أخي. اضرب يا عم. ألا تذكر كيف كان (إلهان إشق)(*) أو (شرف قولاج)(*)؟ كيف كانا يضربان؟

أتى الحراس والشرطة .. لاحقوا المتعاركين وزبائن المطعم .. كانوا

(*) اسمان لممثلين تركيين شهيرين.

يمرون هاربين من جانبه. كان العراك من أجله. لو سألوه في المخفر: هل كان العراك بسببك؟ سيقول نافخا صدره: نعم . هل سيلقونني في السجن؟ ليفعلوا. المدفأة تشتعل حتى أواسط أيار. الطعام كثير .. ولعب النرد ... يا للفرحة، يا للفرحة! ملعونة أمي إن لم أفرح. إذا كان الطقس اليوم دافئا فغداً يبرد ... سخانات الأبنية أطفئت. لم يعد يستطيع أن يأوي إلى جانب مواقد السخانات .. آواه .. السجن .. السجن .. بينما كان المتعاركون يدخلون المخفر، مسكه أحد رجال الشرطة من ذراعه.

- هيا من هنا، بسرعة.

- ولكن يا أخي..

- هيا من هنا. اختف من هنا..

أهكذا ياأخي؟ أهكذا! أممكن هذا! أيليق هذا بالعدالة، والقانون، والقرآن؟ كناسنتدبر أمرنا حتى شهر أيار. طعام ونرد.. وأعقاب سجائر.. تفوه، تفوه..

طأطأ رأسه، وقال لشرطي آخر:

- يا أخ. ياخال. ياحضرة الشرطي. يا أخي الشرطي، العراك نشب بسببي. ارموني في السجن!

هل سمع الشرطي. أم لم يسمع؟ دخل ببرود.

قال لنفسه: «تفوه، تفوه. ألم يبق قانون في هذه الدولة؟ ارمونا في السجن لكي نتدبر أمرنا الآن، وفي الشتاء القادم نعيد الكرة.»

عزيز نسين

(جزيرة هيبلي - اسطنبول ١٩١٥- اسطنبول ١٩٩٦)

اسمه الحقيقي محمد نصرت عزيز نسين. درس الابتدائية.ثم دخل الثانوية العسكرية. تابع دراسته في الكلية العسكرية. بعد ذلك دخل أكاديمية الفنون الجميلة ودرس فيها سنتين. بدأ الكتابة شعرا، نشر باسم (وديعة نسين) المستعار بين (١٩٣٩ - ١٩٤٣). نشر أولى قصصه في مجلة (مللت)

ترك الجيش برتبة ملازم أول. عمل بمختلف الأعمال لكسب لقمة العيش.. وفي هذه الفترة كان ينشر أعماله في مختلف الصحف والمجلات: «يدي غون - بني آدم - آ ك بابا..)

بدأ العمل صحافيا عندما دعاه (سدات سماوي) للعمل في جريدة (كركوز). من جهة أخرى كان ينشر أعماله في مختلف الدوريات، كلما أغلقت واحدة انتقل إلى أخرى.

أسس مع «صباح الدين علي» صحيفة (ماركوباشا) وكلما أغلقت أعاد فتحها باسم جديد.. دخل السجن بسبب كتاباته عدة مرات، بلغ مجموعها خمس سنوات ونصفا. فتح مكتبة عندما سدت في وجهه سبل العمل الصحافي عام ١٩٥١، وستديو للتصوير عام ١٩٥٢، وعاد إلى العمل الصحافي العام ١٩٥٤ باسم مستعار لأنه كان محظورا عليه العمل الصحافي والأدبي.

استخدم عزيز نسين في حياته الأدبية والصحافية أكثر من مائتي اسم مستعار، ونشر كتابه الأول العام ١٩٥٥ عندما كان في الأربعين من عمره..

أسس بمشاركة كمال طاهر دارا للنشر، احترقت العام ١٩٦٣، لأسباب لم يتمكن أحد من معرفتها!

نال جائزة (BORDIGHERA) الدولية في القصة الساخرة من إيطاليا

نال جائزة (البلحة الذهبية) الدولية في القصة الساحرة من بلغاريا.

نال جائزة (القنفذ الذهبي) الدولية في القصة الساخرة من بلغاريا.

نال جائزة (كروكوديل) الدولية في القصة الساخرة من كوسكو.

نال جائزة (قراجان) التركية في مسرح خيال الظل، وجائزة مجمع اللغة في المسرح عن مسرحيته (تشيتشو).. ترجمت أعماله، وخاصة قصصه الساخرة إلى أغلب لغات العالم.

بلغ عدد كتبه المطبوعة مائة كتاب موزعة بين الشعر، والقصة، والرواية، وقصص الأطفال، والدراسات الأدبية والسياسية والمسرح..

تناول عزيز نسين في أعماله أوسع شريحة اجتماعية. وكتب عن كل الطبقات بأسلوب سهل جدا يستطيع فهمه من لم يتعد بثقافته أو تعليمه مرحلة القراءة والكتابة، ولهذا أصبح من أكثر الكتاب الأتراك شعبية.

يعتبر عزيز نسين رائدا في مجال التجريب في ميدان القصة القصيرة الساخرة. وقد ربط بين السخرية التقليدية التركية القديمة، والأشكال الحديثة للقصة، فكان لأول مرة تيار (القصة القصيرة الساخرة)

بعد العام ١٩٥٨ دخل عزيز نسين مرحلة البحث في ميدان الحكاية الشعبية وكتب كثيرا من القصص الحكائية تحت عنوان تصنيفي: «حكايات للكبار» ترجم من هذه السلسلة كتابان إلى العربية هما: «في إحدى الدول» و «تريْ.. ليِّ..لَمْ»

عزيز نسين صاحب لغة خاصة، وبحث في اللغة، إلى حد اعتباره من أهم الباحثين في اللغة..

آه منا نحن الحمير

آه منا، آه منا نحن الحميرا..

يحكى أننا نحن الحمير كنا في قديم الزمان نتحدث بلغة كالتي تتحدثون بها أنتم البشر. كانت لنا لغة خاصة بنا.

ويحكى أننا لم نكن ننهق في قديم الزمان كما نحن عليه الآن. وتعلمون أننا الآن نعبر عن رغباتنا، وأحاسيسنا، ومشاعرنا، وأفراحنا، وأتراحنا فيما بيننا بواسطة النهيق كما نخاطبكم ياسادتنا البشر. ما هو النهيق؟.. النهيق هو إصدار صوت مؤلف من حرفين بشكل متكرر: «هـ ...١، هـ...١١١» هذا هو النهيق.. تقلصت لغتنا الغنية تلك، وتقلصت إلى أن صارت كلمة واحدة مؤلفة من حرفين.

يعود ربط ألستنا نحن الحمير إلى حادثة قديمة جدا.. يحكى أن هنالك حمارا عجوزا من الجيل القديم.. في يوم من تلك الأيام كان يرعى هذا الحمار العجوز في البراري وحده، وكان يغني الأغنيات الحميرية في أثناء الرعي، في لحظة من تلك اللحظات تناهت إلى أنفه رائحة.. إنها رائحة ليست طيبة، إنها رائحة ذئب.

رفع الحمار ابن الجيل القديم أنفه إلى الأعلى، وبدأ يستنشق بعمق، الجو يحمل رائحة ذئب حادة.. سلّى الحمار العجوز نفسه بقوله:

- لا ياروحي، إنه ليس ذئبا.

وتابع الرعي.. ولكن رائحة الذئب ازدادت حدة.

سلّى الحمار ابن الجيل القديم نفسه قائلا:

- إنه ليسَ ذئبا .. إنه ليس ذئبا ..

ولكن رائحة الذئب تزداد بالتدريج. أما الحمار العجوز فهو خائف من جهة، ومتظاهر باللامبالاة من جهة أخرى، ويقول لنفسه:

- ليس ذئبا .. لماذا سيأتي الذئب إلى هنا؟ ، ولِمَ سيلقاني؟

بينما كان يسلي نفسه هكذا، فجأة تناهى إلى أذنيه صوت.. ليس صوتا عذبا. إنه صوت ذئب..

شنَّف الحمار العجوز أذنيه رافعا إياهما إلى أعلى.. نعم إنه صوت ذئب. ولأنه غير راض بمجيء الذئب، تابع قضم العشب وهو يقول:

- لا ياروحي.. هذا الصوت ليس صوت ذئب.. يتهيألي..

اقترب كثيرا جدا ذلك الصوت المخيف، والحمار يقول لنفسه:

- لا، لا ... أتمنى ألا يكون ذئبا.. أما عند الذئب عمل آخر ليأتي إلى هنا؟! من ناحية أخرى سيطر الرعب على قلبه، وبدأ يتلفت فيما حوله.. نظر.. وإذا بذئب يظهر بين الضباب والدخان على قمة الجبل المقابل. قال:

- هـ... ااا، ماأراه ليس ذئبا، لابد أنه شيء آخر.

ازداد خوفه عندما رأى الذئب يعدو خلف الأشجار. ولكن لأنه غير راغب في مجيء الذئب، خدع نفسه قائلا:

- ليس ذئبا، إن شاء الله لا يكون ذئبا. أما بقي له مكان آخر ليجد هذا المكان ويأتي إلى هنا؟.. لم تعد عيناي سليمتين، لهذا فإنني ظننت أن خيال الأشجار ذئب.

اقترب الذئب أكثر، عندما صارت المسافة بينهما خمسين خطوة حميرية، سلّى نفسه قائلا:

- جعل الله بمشيئته هذا المخلوق الذي أراه أمامي ليس ذئبا.. لِمَ سيكون ذئبا ياروحي.. لعله جمل أو فيل، ولعله شيء آخر.. ويمكن ألا يكون شيئا البتة.

اقترب الذئب مكشرا عن أنيابه، وعندما بقي بينهما عدة خطوات، قال الحمار العجوز:

- أنا أعرف أن هذا القادم ليس ذئبا. نعم إنه ليس ذئبا، ولكن ليس سيئا أن أبتعد عن هذا المكان قليلا..

بدأ المسير.. نظر خلفه فوجد أن الذئب يتبعه مكشرا عن أنيابه، مسيلا لعابه. بدأ الحمار ابن الجيل القديم بالدعاء، والتوسل لربه:

- ياربي اجعل هذا الذي يتبعني ليس ذئبا حتى ولو كان كذلك.. إنه ليس ذئبا ياروحي، وكل خوفي لامعنى له.

بدأ الحمار العجوز يعدو، وركض الذئب خلفه.

ركض الحمار بكل ما تقوى عليه قوائمه، وهو يقول في داخله:

- إنه ليس ذئبا حتى لو كان كذلك.. اللهم لا تجعله ذئبا.. لِمَ سيكون ذئبا ياروحي؟ هرب الحمار وتبعه الذئب. عندما شعر الحمار بأنفاس الذئب الساخنة تحت ذيله، قال لنفسه:

- أنا أراهن أن هذا ليس ذئبا.. لا يمكن أن يكون المخلوق الذي أشعر بأنفاسه تحت ذيلي ذئبا.. عندما لامس فم الذئب الرطب ما بين فخذي الحمار، انهار الحمار تماما.. التفت، نظر خلفه، فوجد الذئب

يهم بالقفز عليه.. تجمد الحمار تحت تأثير نظرات الذئب الحادة فما عاد يستطيع أن يخطو خطوة واحدة، فأغمض عينيه كي لا يرى الذئب، وبدأ يتأتئ بالقول:

- إنه ليس ذئبا ياروحي.. إنه ليس ذئبا بمشيئة الله.. لِمَ سيكون ذئبا؟ عض الذئب الشرس الجائع بأنيابة الحادة الحمار من فخذه، وقضم قطعة كبيرة.. ارتبط لسان الحمار وهو يهوي على الأرض ألما.. ومن خوفه نسي اللغة الحميرية. نهشه الذئب من رقبته وصدره، وبدأ ينفر الدم من جميع أطراف الحمار، وعندئذ بدأ يصرخ:

- هـ..ااا، إنه.. ذئب، هـ...ااا، هو... هـ...ااا .. هوووو..

الذئب يمزقه، وهو بسبب ارتباط لسانه لا يصرخ إلا:

- هـاااا.. هوووو.. هـاااا، هـ....ااا، هاااا..

سمعت الحمير كلها صراخ الحمار من الجيل القديم بآخر كلماته، حيث كانت تردد أصداءها صخور الجبال، وهو يتمزق بين أنياب الذئب:

- هـاااا، هـاااا، هـاااا..

وهكذا يقال إننا نحن الحمير نسينا المخاطبة والمحادثة منذ ذلك اليوم، وبدأنا نعبر عن أفكارنا كلها بواسطة النهيق. ولو لم يخدع نفسه ذلك الحمار ابن الجيل القديم حتى وصل الخطر إلى تحت ذيله، كنا سنبقى على معرفة بالكلام.

آه منا نحن الحمير.. آه منا نحن الحمير.. هـاااا.. هـاااا.. هـاااا.

خلدون طانر

(ولد في اسطنبول العام ١٩١٦ ، وتوفي فيها العام ١٩٨٦)

بعد أن أنهى دراسته الثانوية سنة ١٩٣٥، التحق بجامعة هايدلبرغ - كلية العلوم السياسية. ثم تابع دراساته في جامعة اسطنبول - كلية الآداب واللغات - قسم الأدب الألماني وتخرج فيه العام ١٩٥٠، وعمل معيدا في الجامعة نفسها لمادة تاريخ الفن بين عامي (١٩٥٠-١٩٥٤).

وبعد أن أنهى دراسته للمسرح في أكاديمية (ماكس راينهاردت) عاد إلى المعهد العالي للصحافة، وكلية الآداب كعضو هيئة تدريسية بين عامي (١٩٦٠-١٩٧٤).

ثم عمل عضو هيئة تدريسية في جامعة المعمار سنان (أكاديمية الفنون الجميلة) لمادة علم الوضع المسرحي (دارماتورجي) حتى تاريخ وفاته.

تناول في قصصه حياة إنسان الطبقة الوسطى في المدينة الكبيرة، ونقده، ونقد القيم السائدة في عصر الجمهورية، وعرض المتناقضات والانحرافات بعين رقيب حادة.

مجموعاته القصصية: (عاشت الديمقراطية ١٩٤٩)، (التسليم ١٩٥١)، (السماء تمطر في شيشهانة ١٩٥٣)، (مجد تحت أشعة القمر ١٩٥٤)، (الثانية عشرة إلا دقيقة ١٩٥٥) وفازت بجائزة سعيد فائق للقصة القصيرة، وترجمت إلى العربية. (المسير الصباحي لسانتشو ١٩٦٩)....

نال شهرة عالمية واسعة من خلال كتاباته المسرحية.

حصل على العديد من الجوائز في الأدب الساخر والقصة والمسرحية.

كتب المقالة، وأدب الرحلات، وترجم الأعلام الأدبية.

تمنح اليوم في تركيا جائزة سنوية في القصة القصيرة تحمل اسمه.

الموت ضحكا

- أمواج البحر الأسود ليست كبقية الأمواج يا سكبان. لا تبتعد كثيرا في عرض البحر.

هذا ما قالته السيدة إنجيلا عندما سمعت أنه ذاهب إلى (أقجة قوجة)، وكانت تضيف إلى دلالها الخفيف أنوثة بشغل الصوف، فقد بدأت الكم بستين غرزة، اثنتين صحيحتين واثنتين مقلوبتين لعمل بيت المطاط، وأثناء ذلك تحدثت عن حادثتي غرق. إحداهما شهدتها، والثانية سمعتها من الجارة. الغريب في الأمر أن الحادثة التي روتها عن لسان الجارة أكثر دقة وتشويقا.

إن أي رجل قطع الخمسين عاما دون أن يتزوج لا يُسرّ لنصح أو إشفاق حتى ولو كان من أرملة واهمة. وسكبان هكذا على الرغم من مظهره اللامبالي.

لا تهتموا لكون سكبان كبير مهندسي إحدى شركات مدينة داخلية كأنقرة، فهو هناك منذ خمس سنوات فقط. ولد وترعرع في حي على ضفة البوسفور، كما أنه رجل الحملات الذي لا يهزم في التجديف الرباعي في شعبة الرياضة البحرية لنادي (غلاطة سراي). ماذا يحدث لو أنه ماشى للحظة إنجيلا في مخاوفها؟ ولكنه بابتسامة مائلة واصلة إلى خلف أذنه اليسرى تلقى النصيحة، ونسيها في اللحظة نفسها.

في الصباح التالي رتب بعناية في حقيبته المصنوعة من جلد الخنزير، التي اشتراها من أمستردام، حزامه الجلدي ذا الإبزيم الفضي، وتبان البرمودا الكرزي الغامق، والقميص البشكيري الأصفر،

وقبعة (الجولف) الواقية من الشمس، وزيت الشمس، وحصيرة، ونعال، وآخر روايات أجاثا كريستي، وكتاب حياة غاندي.. المهم، وضع ما يلزمه لقضاء عطلة نهاية الأسبوع على شاطئ البحر.

ركب سيارته البيجو ٦٧، وكان قد أدخلها الصيانة قبل يوم، وملأ خزانها بالوقود، وتفقد عجلاتها.أشعل غليونه. طراز سيارته قديم، لكنه للعناد لا يبدل بها واحدة أحدث، بهذا يريد أن يثبت للجميع ولنفسه خاصة أنه صاحب مبدأ فيما يحب أو يتعود.

أدار مفتاح المذياع. حرك الإبرة على عدة محطات. بحث عن موسيقى تناسب خروجه من مدينة كبيرة - أنقرة مدينة كبيرة على كل حال - إلى الحقول. اكتفى ببرنامج الموسيقى الخفيفة الذي تبثه إذاعة براغ.

الجو متعكر، لا هو ولا النشرة الجوية يبعثان على التفاؤل. الغيوم أغلبها رصاصية اللون، وبعضها سوداء تركض جنوبا كأنها تأخرت في مكان ما. ضغط سكبان على الوقود، يجب أن يكون في أقجة قوجة قبل الثانية عشرة. خطط ألا يسبح أقل من ست ساعات خلال الأيام الثلاثة التي سيقضيها هناك. الطريق أمامه مفتوح، على جانبي السيارة حقول صفراء تنزلق إلى الخلف. علق سكبان سترته واكتفى بالقميص قصيرالكمين، وقاد السيارة بسرعة مائة كيلو متر. ضمن هذا الديكور والموسيقى كأنه يعيش أجواء أحد أفلام الرومانسية بلحظاته الشاعرية، لا يربطه بحياته المتقطعة إلا ذاته، ويعيش كبطل الفيلم عازبا في مدينة كبيرة، ويستمتع بلحظات الوحدة في الريف.. إنه مهندس عرف كيف يعتمد على نفسه، مثقف، متعدد المواهب، وحيد، عميق، حساس، وإيجابي..

أغلق قطيع من الأغنام الطريق في منطقة (قزلجا حمام). أغضبه انتظار مرور القطيع. سبب غضبه عرقلة مرور الأغنام لمخططه المدروس بدقة. الأغنام ليست من تلك المنطقة. ثمة رجلان يذهبان، ويجيئان ويتبادلان الإشارات. كانت بعض الأغنام تذهب يمينا، ويلحق بها الراعيان، ثم تلحق بهما بقية الأغنام فتدبّ الفوضى في كل مكان. حرك سكبان مؤشر المذياع. كانت تبث من إذاعة أنقرة مقطوعة (فيفالدي): «الفصول الأربعة». سقطت بعض حبات المطر الكبيرة على زجاج السيارة الأمامي، بعدها انهمرت قطرات صغيرة وغزيرة...

عندما فتح الطريق ضغط على الوقود. إنه يعمل على الوصول إلى «أقجة قوجة» قبل وصول المطر إليها. هدأ المطر، أو تجاوز المنطقة الممطرة بعد عشر دقائق. ظهرت الشمس برهة، وكان هذا بعد بداية الجزء الثاني من المقطوعة الموسيقية. تسير السيارة الآن على طريق مشمس، ولكن رياحا قوية تعصف بها. بعد خمس دقائق أصبحت السيارة تسير في جو غائم وصاح. يا لتناسب موسيقى فيفالدي مع هذه السفرة التي تبعث الإحساس بالربيع أحيانا، وبالصيف أو الخريف أحيانا أخرى.

بعد هبوطه المنحدر، أصبح الطريق يمتد محاذيا للبحر. نظر سكبان إلى بعض السيارات الواقفة أمام البيوت، وفي الساحات وهي تحمل لوحات اسطنبول. هذا يعني أنه ليس الذكي الوحيد الذي يختار المجيء إلى هنا على الرغم من هذا الطقس. يجب أن يكون البناء ذو الطابقين هذا هو الفندق حسب الوصف. أوقف سيارته أمامه.

نظر إلى السماء، وبخبرة ابن البوسفور قال لنفسه: «لن تمطر. هذه الرياح تجر الغيوم الماطرة بعيدا». أسفرت الشمس عن وجهها حين قال

هذه الكلمات. بدا سكبان بحقيبة يده. و(الفولار) على رقبته كسائح أوروبي يزور إحدى قرى الأناضول. دخل الفندق بهذا الشعور الذي منحته إياه الشمس قبل أن تذوي خلف الغيوم إلى استراحتها.

ثمة نادل طويل القامة، بارز الحنجرة، يعد الطاولات لطعام الغذاء. في الزاوية أمام النافذة يجلس إلى طاولة رجل متوسط العمر، وشاب، وصبيتان، شعر إحداهما كستنائي يهفهف على كتفيها، ومصفف بزي (بيلي دوف) ترتدي سترة صوفية سوداء، وبنطلونا أسود يبرز خصرها النحيل، وتقرأ رواية، والثانية شقراء مائلة إلى لون لحم السمك، تربط شعرها بشريطة زرقاء، تدخن سيجارة من علبة زوجها. الرجال منهمكون في حديث عمل على ما يبدو. الرجل المتوسط العمر الأكثر وقارا سلم على سكبان. رد سكبان السلام على الرجل الذي لم يتذكر لحظتها من أين يعرفه. ولأنه ليس أوروبيا سلم على من معه. قال لنفسه: «هل سبح هؤلاء؟ لا أظن. سأصعد إلى غرفتي. بادر الثلاثة بسؤال الرجل الذي سلم عليّ، ولم أعرفه، عني. اللعنة على الشيطان» وككل العازبين المتأخرين يظن سكبان نفسه محور اهتمام. اتجه إلى (البار). ثمة ساري سفينة صغيرة معلق في الزاوية، وأصداف وأجنحة سنونو محنطة، ونجوم بحرية مصفوفة على الرفوف بجانبي الساري.

لم يقطع النادل عمله. لم يقترب من النازل الجديد حتى أنهى تهيئة الطاولة الرابعة.

سأله النادل: «هل حجزتم؟» وتوقف أمامه راسما على وجهه علائم تبدي صعوبة إيجاد غرفة فيما لو كان غير حاجز.

- أرسلت لكم بطاقة من أنقرة قبل أسبوع.

- إذن حضرتكم صديق نجمي بك. استلمنا بطاقتكم هذا الصباح، وحجز لكم رضا بك.

أخذ الحقيبة، ومشى. تبعه سكبان صاعدا الدرج الضيق، لابد أن نجمي بك محترم هنا. إنهم حجزوا لي أفضل غرفة مطلة على البحر.

قال النادل كي يقطع الصمت

- هل هذه المرة الأولى التي تأتون فيها إلى هنا؟

أجاب سكبان باختصار:

- نعم.

- كل صيف يأتي إلى هنا نجمي بك، ويبقى أربعة أسابيع.

- سيأتي هذا الصيف.. قال هذا سكبان، وما كاد يضيف: «لكن لم يبدأ الموسم بعد» حتى أدرك أن الحديث بهذه التفاصيل لا يليق به.

وبينما كان النادل يهم بالخروج، قال:

- الحمام إلى اليمين، الباب الثاني.

زاد هذا الكلام حدة رائحة الحمام. بعد خروج النادل فتح سكبان النافذة، فامتلأت الغرفة بصوت تلاطم أمواج البحر. نظر إلى الشاطئ الرملي. ثمة صياد سحب قاربه، وبجانبه ثلاثة أشخاص. مظلات الشاطئ كومت على الأرض وتحلق حولها خمسة أشخاص، وفي البحر إلى اليمين ثلاثة أولاد، وفي العمق أربعة أو خمسة. الأولاد السابحون يمينا يتراشقون بمياه البحر. فتح سكبان حقيبته وأخرج تبانه البرمودا، وقميصه البشكيري الأصفر، والحصيرة، ونعليه، وقبعة الجولف

السوداء، وزيت الشمس، ثم ترك الشيئين الأخيرين مبتسما. وهل ثمة شمس؟ خلع ثيابه بسرعة، وارتدى التبان والقميص، ثم النعال، وأخذ المنشفة والحصيرة. نزل الدرج. حسب المخطط، يجب أن يسبح قبل تناول طعام الغذاء.

عند واجهة البناء الخلفية المطلة على البحر امرأة سمينة، تدرك أنها أجنبية من النظرة الأولى، تحمل فرشاتها، وملونها، وتحاول اختيار منظر لأمواج البحر الأسود.

تقدم سكبان. تدحرجت كرة بحر أمامه قادمة من الطرف الأيسر. خطا سكبان بقدمه اليسرى أمام الكرة، ووضع اليمنى خلفها، وبحركة بهلوانية قذف الكرة من الخلف إلى الأمام. لم يكن صاحب الكرة في السن التي تؤهله لتقدير هذه الحركة القديمة. إنه في السابعة من عمره، أنمش الوجه، أزرق العينين، أحمر الشعر. انحنى آخذا كرته، ونظر إلى سكبان مليا.

كان سكبان يشعر بنفسه خفيفا كطائر. فتح ذراعيه، ورفعها إلى أعلى بقدر مايستطيع، كأنه يريد أن يرمي أصابعه في الهواء، ثم انحنى إلى الأمام. لامس أصابع يديه بأصابع قدميه. كرر هذه الحركة عدة مرات. سر لمجيئه. رفع رجله حتى لامس بطنه بركبته، وكرر العملية بتبديل رجليه، ثم شد عضلات جسمه ووثب وثبة طويلة. وقتها أدرك أنه هدم قصرا رمليا، لعل الطفل الذي رآه قبل قليل قد بناه. توقف للبس فردة نعاله التي علقت في الرمل. تقدم باتجاه البحر. اقترب من الأشخاص الثلاثة الذين رآهم من النافذة قبل قليل. أحدهم قصير القامة، حاسر الرأس، ضخم الجذع، رفيع الذراعين إلى حد مدهش. عرف سكبان الرجل بسرعة. إنه تاجر جلود يهودي. قال سكبان:

- (بونجور) يا سيدي.

- (بونجور) سيد موريس.

أشار الرجل إلى امرأة شابة كروية الشكل، ملتفة بمنشفة، وقال:

- ابنتي جودث

ثم أشار إلى رجل يرسم على الرمل أشخاص غير محددين، وقال معرِّفاً:

- صهري نسيم.

جسم السيد نسيم منتفخ العضلات أشبه بأجسام رياضيي رفع الأثقال الذين تطبع صورهم على غُلُف المجلات. هو شاب متوسط القامة، في رقبته (ميدالية) نحاسية، وفي معصمه سلسلة، نهض بشكل خفيف، وألقى التحية.

- لابد أنكم تقتنصون فرصة للنزهة.. قال هذا السيد موريس تاجر الجلود.

قال سكبان:

- نعم، إنها أول مرة آتي إلى هنا، وهذا أقرب شاطئ سباحة إلى أنقرة.

- نحن معتادون على قضاء الصيف في الجزر، ولكن جودث لم تر (أقجة قوجة) من قبل. جاء بنا (نسيم) إلى هنا ليكون نوع من التغيير. قلنا نقضي (ويك إند) (نهاية الأسبوع) هنا.

شاركت جودث في الحديث:

- لسوء حظنا تعكر الجو.

قال نسيم:

- لكن البحر ليس بارداً.

كان نسيم أفضلهم لفظا للكلمات. لم توافقه زوجته الشابة الضخمة ذات الشعر الأحمر. ومن السهل إدراك هذا من وجهها الأصفر، وبشرتها المتقلصة من البرد. وعلى الرغم من هذا قالت:

- بالعكس، الجو بارد جدا.

وبينما كانت تقول جملتها، وللتأكيد، بدت كأنها قد شعرت بالبرد أكثر من السابق.

قال فتى البوسفور:

- لن يطاق البحر إذا كان كالحساء.

قالت جودث: «Les gouts et les couleurs me se discutent pas» ضحك الجميع.

فرح السيد موريس لأنه وجد رابعا للعبة البريدج، فقال:

- ما رأيك بلعبة بريدج بعد السباحة؟

- سأكون مسرورا.

- إذن، أتمنى لك سباحة ممتعة.

قال نسيم منبها:

- هناك منحدر قوي في البحر بعد خمسة أمتار.

كان قد ذهب سكبان إلى مدينة (شيلة) ثلاث أو أربع مرات، واستنتج بالتعميم أن بنية ساحل البحر الأسود الجيولوجية تبدأ بعمق قليل، ثم يصبح البحر عميقا جدا بشكل مفاجئ. نهضت السيدة الشابة الضخمة ذات الشعر الأحمر. ضغطت رقبتها إلى أسفل، وشدت كتفيها، وضمت ذراعيها إلى جسمها، كأنها تقول: تجمدت. وهي تدرك أن هذه الحالة لا تليق بها. جمعت عائلة موريس الحصيرة والمناشف واتجهت نحو البناء. فتح سكبان حصيرته، ألقى قميصه البشكيري الأصفر، ووضع فوقه حجرا كي لا يطيره الهواء. تقدم باتجاه البحر. خاض الماء حتى ركبتيه. ثم قفز قفزة من طراز أيام زمان. سبح بسرعة في البداية بتأثير البرد، لكنه عاد إلى السباحة بإيقاع متزن. كان يخترق الأمواج التي تعلو قبل انخفاضها دون تغيير خط سباحته، وكأنه قارب ذو محرك يترك وراءه فقاعات الماء. سبح مستمتعا ببرودة الماء وبإيقاعية حركته، ثم التفت بحركة مفاجئة نافضا الماء عن شعره. نظر إلى الشاطئ الذي أصبح بعيدا جدا. في الحقيقة إنه يستطيع الابتعاد أكثر، لكنه وجد أن هذا القدر من السباحة كافيا لليوم الأول. ألم نقل إنه مبدئي. يحدد مدة معينة للسباحة، أو التنس، أو الجولف، ويعتبر أن الالتزام بهذه المدة بالثانية عملية تمرين على النظام. عاد محافظا على إيقاع الذهاب.

بدأ الاقتراب من الشاطيء. كان الأشخاص الثلاثة الذين على الشاطيء ينظرون إليه، لوحوا له بأيديهم. لعلهم ظنوا من طريقة سباحته الجريئة أنه سائح أجنبي. الثلاثة متشابهون كأنهم إخوة. شعورهم مقصوصة بطول ثلاث درجات. لو نظرنا إلى غرفهم ماء البحر بسلة الشباك ندرك أنهم محليون. سكبان أيضا سلم عليهم. خرج باتجاه الشاطئ متوازنا. الماء البارد، أو اللطم القوي للأمواج جيد جدا بالنسبة إلى جسمه. قفز على قدم واحدة، ونظف الماء الذي تسرب إلى أذنه.

جلس إلى الحصيرة، جفف كتفيه وظهره، وقف، ارتدى قميصه الأصفر البشكيري، جمع حصيرته، وضع المنشفة على رقبته، وسار ببطء إلى الفندق، كانت السيدة هاوية الرسم البدينة قد لونت الأمواج بالبنفسجي المحمر، والزبد بلون (الكريم) الفاتح، وجعلت لون السماء الرمادي أدكن مما هو في الحقيقة في طرف اليسار، وأبقت على مساحة ثقب صغير في الطرف الأيمن بلون رمادي فاتح. كانت اللوحة بشكل عام حية، مليئة بالحركة. تكاد الأمواج تخرج من اللوحة. يبدو أن حالة السيدة الفنية بين هاوية جيدة أو محترفة متوسطة. قال لها سكبان:

Felicitations, Bravo (برافو، أجمل التهاني)، وعندما لم تفهم السيدة قال: «Sehr gut, Ver, well» ابتسمت السيدة. من الواضح أنها فهمت العبارة الأخيرة، ولأنها تحدثت بالسلوفاكية، لم يفهم أي كلمة مما قالته. لكنه بالتسامح المعهود عنه، والوجه الباسم الذي يقابل به السياح، استطاع أن يشرح لها مستخدما حركات اليد، ومزيجا من الإنجليزية والألمانية، أن أسلوبها مشابه لأسلوب (أيفازوفسكي)، وأن الجو يمنح البحر طابعا خاصا، وإذا أمطرت يصبح لون البحر متميزا، ولهذا سمي بهذا الاسم، وأن احتمال هطول المطر ضئيل، لأن الرياح تسوق الغيوم بعيدا، وأن البحر بارد ولكنه جيد جدا. قالت السيدة دون ترك فرشاتها وملونها كلمات مثل: «اسطنبول، قارية موشة، الحثيون، جامع، Seher gut» اقترب الطفل الأنمش منهما، وقد لوث يديه بالرمل الرطب. الآن أصبح معروفا بناء القصور والبيوت على الشاطئ.

نادته المرأة الضخمة، وهي تمد جسمها من النافذة:

- مردخاي، مردخاي، تعال لنأكل.

أخذ الطفل كرته التي كان قد خبأها في الرمل، وابتعد راكضا.

عندما دخل سكبان إلى الصالة، كانت عائلة موريس تحتسي العصير الذي جلبته معها.

رفعت السيدتان الأنقريتان رأسيهما معا، ورمقتا سكبان، ثم عادتا إلى احتساء حسائهما.

قالت جودث:

«حسن! إنكم تسبحون جيدا جدا.

قال صاحب جسم رافعي الأثقال الجميل وهو يضحك بتحبب:

- أنا أسبح المسافة بين الجزيرتين مائة مرة، ولكني لا أجد ضرورة للسباحة هنا.

كان مردخاي ينقل نظره بين المتكلمين كأنه يتابع مباراة تنس. سأل السيد موريس:

- هل لكم في كأس عصير؟

- شكرا، علي أن أذهب، وأرتدي ثيابي أولا.

اتجه نحو الدرج. مازالت الرائحة الكريهة تنبعث من الصالة العلوية. دخل إلى غرفته. نشرت حقيبته المصنوعة من جلد الخنزير في الغرفة رائحة ليس مهما إن كانت جيدة أم سيئة، ولكنها أضفت على الغرفة جوا أوروبي الرائحة. خلع لباسه، لبس قميصه الخاكي ذا الجيبين، وتحته سروالا كتانيا. سحب حزامه ذا الإبزيم الفضي على شكل رأس نسر من التبان، وأدخله في البنطلون. إنه كأحزمة رعاة البقر جلبه له صديق من مدينة (دلس). سكبان لا ينسى وضع هذا الحزام أيام العطل. اتخذ هذا عادة له. على الرغم من أن الموسم في أوله، لكن وجهه

المشموس، وحاجبيه الأشقرين القويين، وسالفيه المخضوضبين يذكرنا بعقيد إنجليزي قضى خدمته في الهند.

نزل إلى الأسفل. كان النادل قد جهز له طاولة لشخص واحد. يالجمال أن يكون المرء وحيدا في زحمة كهذه، كرأس قطار دون أي قاطرة، يتحرك كما يشاء، ويثير فضول الجميع.

لأن السيد موريس غارق في الحديث مع ابنته، فلم يجدد دعوته لشرب كأس من العصير.

كان سكبان يتناول حساء الطماطم عندما كان الجميع يشارفون على الفراغ من طعامهم. مسك سكبان ملعقتين، ثم مد يده إلى المملحة. ملَّح الحساء. اندس إلى جانبه رجل صغير العينين، مدبب الذقن، وقال:

- أهلا بكم يا سيدي.

لابد أن هذا الرجل رضا بك. رد التحية سكبان:

- أهلا.

كأن شعر الرجل مستعار، مُشّط من الخلف إلى الأمام ليغطي مقدمة الرأس. لِمَ فعل هذا؟ أليس الصلع التام أفضل من هذا؟

- لسوء حظكم، يزداد الطقس سوءا. يبدو أنه سيتبدل في المساء أو الصباح الباكر.

- الـ (Haut saison) (الموسم الحار) في هذه المنطقة يبدأ في أواسط تموز، وينتهي في أواخر آب.

قالت هذا المرأة ذات السترة السوداء والبنطلون الأسود لجلسائها

إلى الطاولة، ولكن كلامها موجه إلى الآخرين في حقيقة الأمر.

قال رضا بك:

- من الصعب جدا إيجاد مكان في ذلك الوقت، لأن كل سكان أنقرة يتدفقون إلى هنا.

قالت الشقراء ذات ربطة الشعر الزرقاء:

- مباركة عليكم أقجة قوجة، لا تزعلوا مني. أنا لم أحبها.

بدأ الحديث رجل متوسط العمر، جعل الجميع يشاركون فيه:

- الضجيج هنا مرتفع جدا. لا أدري لِمَ لا يستطيع سكان هذه البلدة سماع المذياع دون رفع صوته إلى أعلى حد.

- أنتم محقون في هذا.

قال هذا سكبان لكي لا يدع تساؤل الرجل دون تعليق، لحظتها تذكر أنه تعرَّف إلى هذا الرجل في نادي الجولف. عرَّفه إليه (خسرو بك).. إنه مدير شركة (شل) أو (موبيل) أو (بريتش بترول)، أو إحدى الشركات المشابهة. كان النادل يتصبب عرقا لكثرة نقل الطعام من المطبخ إلى صالة الفندق، وإلى الخارج. كانت تفوح منه رائحة حموضة. على الرغم من وجود مساعد له، لكن المساعد غر، ويبذل النادل جهدا إضافيا لتوجيهه دون جدوى.

قالت السيدة الأنقرية ذات البنطلون الأسود، والسترة السوداء:

- كان الجو البارحة جميلا جدا، ومع هذا لم أسبح. كانت الدببة تستحم، وتنبعث رائحة لا تطاق.

عندما أيقن رضا بك أنه لن يستطيع مجاراتهم في الحديث، انسحب إلى طاولة في زاوية المكان.

وضع نظارته. ثمة فواتير مصفوفة، ودفتر على الطاولة، بدأ يكتب محتوى الفواتير على الدفتر.

انتظر سكبان جلوس السيدة التشيكوسلوفاكية إلى الطاولة الفارغة بجواره، لكنها لم تأت.

لابد أنها تقيم في أحد (البنسيونات) المجاورة. والنادل حضَّر هذه الطاولة احتياطا، لأن اليوم جمعة، يتوقع وصول من يريد قضاء عطلة نهاية الأسبوع. ليمنحه الله العقل.

عندما وصلت شرائح اللحم إلى طاولة سكبان، كان الجميع يتناولون حلوى التفاح.

كانت السيدة الأنقرية ذات الشعر الأصفر، والرابطة الزرقاء ولون البشرة السمكي تختلس النظر إلى سكبان، تدقق في إصبعه الخنصر، وطريقة مسكه الشوكة والسكين، وهندامه، لتأخذ فكرة عنه. الرجل المتوسط العمر الذي يبدو أنه زوجها، والذي تعرَّف إليه سكبان في نادي الجولف، المدير لإحدى شركات البترول يكاد ينفجر لعادة زوجته تلك. ألغى المسافة بين حاجبيه كأنه يريد أن يقول: «رحماك (يا سفيم)، أو (آيلين)، أو (آيشين) - أو أيا كان اسمها - اتركي عادتك هذه ولو مرة واحدة. أتيت إلى هنا لتستريحي، فلتريحي نفسك من عادة التجسس هذه». لكنه لم يقل، وقرر ألا يتنازل إلى منزلة الأطفال. وقال لنفسه كما يقول كل زوج لنفسه في ذلك العمر: «هذه التصرفات تليق بها».

أصبح الجو أكثر ألفة بعد الأكل، نهض نسيم وقدم لسكبان سيجارة

(بول مول)، لأن مدير شركة النفط لا يعلم بالحديث الذي جرى ظهرا (من أين له أن يعلم؟ لم يكن هناك)، قال:

- ما رأيك بلعبة البريدج؟

رد السيد موريس:

- لا السيد سكبان محجوز عندنا.

قالت جودث بعد أن مسحت فم الطفل الأنمش بقطعة قماش مبللة، وجففته:

- (Priorite).. ولأنها تلفظ حرف الراء غينا، خرجت من فمها (بغيوغيت)، وهكذا بدت أنها فرنسية. قال رجل المجموعة الأنقرية الآخر ذو الوجه الباسم والسالفين الطويلين:

- إذا كان الأمر هكذا، فاحجزوا لنا دورا بعد العشاء يا سيد سكبان.

ضحكوا جميعا... باختصار، كانوا يتنافسون على سكبان.

حمل صهر السيد موريس الطفل الذي ثقلت جفناه، وبدأ يتصرف بشكل غريب وصعد به إلى أعلى كي ينام. أخذت جودث فنجانها الذي قلبته قبل قليل، واندست بجانب ذات الربطة الزرقاء. يبدو أن قراءتها للفنجان شهرتها في الفندق. اقتربت النسوة الثلاث من بعضهن بعضا. لا تزيح الساحرة عينيها عن قعر الفنجان وهي تنبئ بأخبار الغيب بصوت خفيض، والمرأتان الأخريان تستمعان بشكل جاد إلا من ضحكات خفيفة كانت تقطع وجومهن أحيانا.

استفاد سكبان من انشغال رباعي البريدج، وهمس للسيد موريس:

- سأذهب لأنام قليلا ثم أعود.

كان سكبان قد اعتاد على النوم أو التمدد لمدة عشرين دقيقة على الأقل بعد الظهر. وفي الأيام التي لا يستطيع النوم بها يشعر بتراخي جسمه في أجمل وقت من أوقات النهار بين الساعة السادسة، والثامنة مساء. تمدد على ظهره، ووضع يديه تحت رأسه، وأغمض عينيه.

ارتفع صوت الموج أكثر . أحدهم فتح المذياع إلى غايته لكي يُسمع المساكين ممن لا مذياع لديهم. كانت تبث أغنية للمجموعة من مقام عشق حسب قول المذيع:

فلم تطق الجبال أنين روحي وما لجراح قلبي من دواء

تناول سكبان من حقيبته الكتابين. كان كتاب ذكريات غاندي المعنون «تجاربي في سبيل الحياة» فوق الآخر، فأخذه. فتحه من غير تحديد، وبدأ القراءة: «أنا لا أجد نفسي ذكيا، ولا أهتم لهذا. ثمة حدود لنمو الذكاء عند الإنسان، ولكن ليس ثمة حدود لنمو العاطفة».

أعجب كثيرا لهذا التواضع من الزعيم حافي القدمين، وهو بين صاح ونائم. لابد للإنسان أن يكون صاحب مزايا متعددة يثق بها كي يعترف بعدم ذكائه. أهي الإرادة القوية أم الإحساس الداخلي؟ ما الذي أراده المهاتما غاندي من جملته هذه؟

قلب بعض الصفحات. ثمة صورة وسط الكتاب تتضمن أشياء غاندي الشخصية معروضة على مكان مرتفع قليلا. كل أشيائه هي: نعال، نظارة، ساعة جيب، صحنان للطعام، ملعقتان خشبيتان، وكتاب.

فتح الكتاب مرة أخرى على صفحة غير محددة. هذا أيضا لابأس به: «لم أتعصب لفكر واحد في أي لحظة من لحظات عمري. أنا باحث

عن الحقيقة. إذا كنت أفكر في موضوع ما، علي أن أقول ما أفكر به في اللحظة ذاتها، دون أن أضع في حسابي ما كنت قد قلته في الموضوع ذاته».

غاندي رجل عظيم، وهذا ما تثبته كلماته وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، بشأن القاتل الذي أطلق النار عليه: «لا تسيئوا إليه!». من المؤكد أنه لم يقل هذه الكلمات عبثا. إنه تعبير واضح للرجل الذي رفض العنف مدى حياته، استمر في رفضه ولو كان ردا على العنف المنفذ ضده. على الرغم من هذا، استفاد من نهايته بهذا الشكل. لابد أنه كان سيموت بعد أشهر، أو سيصبح طريح الفراش ويموت بتأثير المرض. لعله سُرَّ كثيرا لهذا الاغتيال الذي أنهاه بسرعة، دون معاناة، وجعله يضع نهاية لحياته بأفضل طريقة ممكنة. لابد أنه شعر بسعادة سقراط نفسها وهو يشرب السم.

بينما كان يفكر في هذا، تراءى له منظران: الأول، ساحة البريد في نهاية زقاق (غورما) والموظفون يلعبون الكرة الطائرة أثناء فرصة الظهر- اسمع من أين يقفز إلى أين ؟ - والمشهد الثاني: أشرعة النايلون المنشورة لتجف، بألوانها الأزرق والأبيض كعلم فرنسا. بعدها، تراءى له من حيث لا يدري منظر لجسر. إنه يشبه جملا هجينا بثلاثة أسنام، وكرة تتدحرج عليه من طرف إلى طرف، وهي تسرع وتتباطأ. تسرع وهي منحدرة من إحدى القمم، وتتباطأ وهي صاعدة مرة أخرى. ثم تذكر أن ذلك الجسر هو الذي بناه (المعمارسنان) في مدينة (قنبرغاز)، وبينما هو يفكر في هذا الاكتشاف...

ما إن سمع سكبان آخر جملة من موسيقى شخيره، حتى فتح عينيه. كم نام يا ترى؟ لعله ثلاث دقائق أو أكثر، لعله أقل. لكنه شعر بالراحة.

هذه الفترة كافية لتعيد التوازن إلى رأسه.

تمطى، ثم مال إلى جانبه، واتكأ على مرفقه الأيسر، وسها لفترة، ثم تناول الكتاب الآخر، وهو رواية بوليسية (لأجاثا كريستي). عنوانها (عطلة هركولس بويروت). تقع أحداث الرواية في قرية ساحلية. وحسب رأي السيدة (وبستر): «هذا البحر الساكن كبحيرة، والشمس الدافئة، والمنظر الهادئ، والناس المتراخون في شهر آب، مكان غير مناسب لوقوع جريمة». لكن هركولس بويروت يقول: «إنك تبنين فرضيتك على معطيات أولية غير عميقة يا سيدة (وبستر). البحر الهادئ لا يعد أكثر من رمز شاعري. لكن البحر دائما يثير القلق، ومعرض في كل لحظة لهبوب العاصفة، وهي تهب في زمن غير متوقع أبدا». ثم أضاف المحقق الخبير «لا تنسي أن الشر يتربص دائما في مكان ما تحت الشمس. يقول (ألفرد دوفيغن) الطبيعة في أغلب الأحيان لا تعير اهتماما لأحلام البشر، كما أن البشر في أغلب الأحيان مشغولون إلى حد رؤيتهم جمال الطبيعة. أنا لاأوافقك يا سيدة وبستر، على العكس، هذا الجو مناسب للجريمة. افترضي أنك تريدين التخلص من عدو لك، فلا يمكن أن تدخلي بيته أو مكتبه دون أن يلاحظ دخولك أحد، لكن في شهر كآب (أغسطس) وقرية ساحلية كهذه، لو دخلت البنسيون الذي يقيم فيه عدوك، هل يلاحظ دخولك أحد؟»أعجب سكبان بهذا الجو الذي يسبق التشنج كالجو الذي يسبق العاصفة، خلال هذه الصفحات.

أمن الممكن ألا يكون هركولس بويروت على حق في كلامه هذا؟ توقع أن تكون الصفحات التالية مثيرة جدا. فوضع المشط عند الصفحة التي وصل إليها، وأغلق الكتاب.

الروايات البوليسية، وروايات الخيال العلمي من العناصر التي لا يستغنى عنها في عصرنا هذا عصر التقنية. فمن غير الممكن أن يُشدّ الإنسان عن همومه اليومية، ومستلزمات حياته بغيرها. عشر صفحات من رواية بوليسية، كافية لإراحة إنسان متعلم... هذا بالطبع بالدرجة الثانية بعد الشطرنج.

نظر إلى ساعته. مرت ساعة على زمن تناوله الطعام. فكر في السباحة قبل أن يشتد الجو سوءا، ومن ثم بتناول كأس من الشاي. فتح النافذة، وبينما كان يتناول منشفته وتبانه المنشورين، نظر إلى الشاطئ. ليس هناك أي بشر. أصبح البحر بنفسجيا أدكن من الذي لونت به السيدة التشيكية. طيور السنونو تتطاير على الساحل مذعورة، تهوي على الأرض ثم تعلو وكأنها أضاعت شيئا ما. أخرج سكبان الحزام ذا الإبزيم الفضي على شكل رأس نسر، وأدخله في التبان ثم ارتداه. تناول المنشفة ولبس النعال ثم نزل.

وجد في الصالة السيد موريس، والسيدة الأنقرية ذات البنطلون الأسود والسترة الصوفية السوداء، ومدير شركة النفط - الذي تعرّف إليه في نادي الغولف - وجودث، قد شكلوا رباعيا حول الطاولة. والسيدة ذات الشعر الأشقر قارئة الفنجان، والشابة الأنقرية الأخرى التي أرادت حجز سكبان من أجل لعبة المساء، تجلسان إلى طرفي طاولة، وتعملان على إثارة بعضهما بعضا بالرد.

التفت الجميع إلى سكبان. كانت نظرات بعضهم تحمل إعجابا، وبعضهم دهشة، والآخرين استهزاء. سأله نسيم:

- آآآ... هل ستسبح مرة أخرى؟!

ثم سمع صوت السيد موريس وهو يقول:

- لا تكن طفلا يا سيد سكبان.

نظر السيد رضا من النافذة، وقال:

- ترتفع أمواج البحر كالجبال. في الحقيقة لقد وصل البحر إلى ذروة سوئه هذا اليوم.

قالت لاعبة النرد، السيدة ذات الشعر الأشقر والربطة الزرقاء:

- يذهب المرء إلى الشاطئ، وينظر إلى البحر. فإن لم يجد في نفسه الشجاعة كي يسبح فلابد أن يعود. قالت هذا دون أن تلتفت، وهي تربح حجرين للاّعبة المقابلة لها.

تصبب سكبان عرقا، وقال باسما:

- إنك تبالغين يا سيدتي.

قالت جودث، وكأنها تريد أن تعدل موقفها الصباحي:

- لا تشغلوا بالكم. إنه سباح ماهر جدا، معتاد على الأمواج.

ثم نظرت إلى سكبان وكأنها تقول له: كيف؟ أو ليس حسنا ما قلت؟ كان النادل قد أحضر صينية، وعليها ستة فناجين من الشاي بلون دم الأرنب. تناول كل فنجانه.

قال مدير شركة النفط متوسط العمر:

- ولا ورقة رابحة.

قالت السيدة ذات اللباس الأسود:

- أنا أربح!

ورفعت عينيها فجأة، ونظرت إلى سكبان.

مشى سكبان. أخذ نفسا عميقا، شم من خلاله رائحة البحر حتى تغلغلت الملوحة إلى جيوبه الأنفية. كانت سقيفات المطاعم كطائر يخفق بجناحه يريد الطيران. ثمة أربعة أشخاص تحلقوا حول الطاولة يتحدثون بصوت مرتفع. على مبعدة منهم رجل مسن أمامه نرجيلة. طلب من النادل جمرة. لكن الريح بددت صوته قبل وصوله إلى النادل.

قال سكبان لنفسه: «لن أستطيع السباحة مدة طويلة. سأدخل البحر ثم أخرج» عدم سباحته لا يليق به من جهة، ولا ببرنامجيته من جهة أخرى. شعر بحركة ما قرب ساقه. نظر، فوجد موردخاي، وقد قطب حاجبيه، ويسير نحوه بهدوء مباعدا بين ساعديه، ويدوس بثقله على قدمه التي يرتكز عليها كأنه يريد إطلاق النار كما في أفلام رعاة البقر. لابد أن أمه تصطحبه إلى السينما دائما. عندما نظر إليه سكبان توقف كأنه قبض عليه متلبسا. توقف لحظة وكأنه متردد بإطلاق النار بالمسدسين الوهميين اللذين يحملهما. وضع مسدسيه في حافظتيهما الخياليتين وكأنه عاد عن قتله هذه المرة.

نزل سكبان إلى الشاطئ الرملي. ثمة رجل ذو قميص مرقع يجمع المظلات، وينقلها إلى الداخل.

غمر الشاطئ صوت الموج المزبد، تتلامع الطحالب لحظة قذف الموج لها، ثم تكبو تدريجيا. ثقبت الشمس الغيوم لحظة مذكرة أن أقجة قوجة تعيش فصل الصيف.

سُرَّ سكبان لهذا. نزل إلى الماء مصمما. بدأ السباحة كما في

الصباح، لكنه منذ اللحظة الأولى أدرك أن البحر الذي يسبح فيه غير ذاك الذي سبح فيه صباحا. أمواج هذا البحر مختلفة تماما. إنها أكبر. أيقن أنه لن يستطيع فعل ما فعله صباحا. يجب أن يترك نفسه على سطح الماء ليرتفع وينخفض كفلّينة. لابد أن لهذه الحركة طعما خاصا بالنسبة إليه. ما يخيفه ليس ضخامة الأمواج، بل صوت ارتطامها بالشاطيء.

بينما كان يهيئ نفسه للارتفاع والانخفاض على سطح الماء، فوجئ بموجة رصاصية اللون ترتفع ثلاثة أو أربعة أمتار أمامه كالجدار، وفي ذروة الموجة زبد أبيض آيل إلى الانهيار. لعله رأى الموجة أكبر مما هي عليه لأنه في حالة الانخفاض. رنت في تلك اللحظة كلمات السيدة (إنجيلا) في أذنيه: «أمواج البحر الأسود ليست كبقية الأمواج يا سكبان». قال في داخله لحظتها: «لابد أن هذه الموجة من تلك الأمواج المختلفة». أثناء تفكيره في هذا شعر بأنه يسبح إلى الخلف باتجاه الشاطيء. كان يهرب. يهرب دون أن يبدي لنفسه هذا، لكنه لم يسلم. ما كاد يضرب بيديه ضربتين حتى شعر بجبل ينهار فوقه. وجد نفسه في أعماق المارد الأزرق العكر. استجمع قواه وخرج إلى السطح. استنشق، انفجرت الموجة التي سحقته للتو على الشاطئ بقوة هائلة. قال: «زالت»، وترك نفسه للارتفاع والانخفاض مجددا. بدا أنه ارتاح. نظر إلى الشاطئ فوجده قريبا. قريبا جدا. قال: «لو أردت العودة لعدت».

ولأنه ملتفت هذه المرة إلى الجهة الأخرى، نزلت عليه من الخلف موجة أخرى كأنها الرصاص. وهي كالسابقة ثقيلة، وقاسية. قلبته، وأنزلته نحو الأعماق. فكر في أن هذه الغطسات تريحه قليلا وتمنحه متنفسا! أي متنفس في أعماق الماء؟ فكر في أنه بدأ يهذي. فور صعوده

إلى سطح الماء نظر إلى الساحل. ثمة شاحنة محملة بالبندق تبتعد على الطريق الأبيض. جلساء المطعم بعيدون جدا. لو صرخ أو لوح بيده لما سمعه أو رآه أحد. دب في قلبه رعب أكثر من ذي قبل. توهجت الشمس فوقه معاندة. رأى السنونوات، وقال: «سأذهب ضحية مجانية، بعد عصر يوم حزيراني كهذا». لعل السنونوات ستتطاير فوق جثته بعد قليل.

فجأة أشفق على نفسه. استجمع قواه. قال لنفسه: «صدمت». بذل ما بوسعه للوصول إلى الشاطيء وهو يقول: «لا ترتبك، ها هو الساحل. ثلاث من هذه الموجات أصبح هناك». كان يظن أنه يسبح، وفي لحظة شعر كأن أحداً ما قبض على كتفيه، وكبسه إلى الأعماق. صرف آخر احتياطي أنفاسه تحت الماء. قلبه يخفق كأنه سيتوقف. شعر لحظة بأن قدميه لامستا الحجارة. عند عودة مياه الموجة عن الشاطئ شدت معها هذه الحصيات. أعادت إليه الأمل موجة أو موجتان دفعتاه نحو اليابسة. ولكن كانت الموجة تسحبه مثل فلينة تسحبها فتاحة الزجاجات إلى خلف مكانه الأول بعد أن تقذفه إلى الأمام.

بدأت تراود ذهنه كلمات وعبارات لا يربط بينها رابط. قال لنفسه: «سأموت في الغالب». شعر بأن ساعديه وكتفيه لم تعد جزءا من جسده. أحس بمغص وتقلب غريب في معدته. «أهذا نصيبي»، «ما هذا؟» «أهذا ما كان ينتظرني في بحر الله؟» فكر في الصراخ. محزن أن يقع لي ما يقع، لكنه خجل أن يبدو مشفقا على نفسه. «يجب ألا أموت ميتة سافلة». خطر بباله ميتة الذئب. لم يمح بعد إحساسه بالموج وهو يغوص في عمق البحر. عليّ أن أموت ميتة الذئاب، لا ميتة الكلاب. وحيدا وبعيدا عن نظرات الوقار والشفقة. الموت ضحكا. لينسحب من هذه الحياة بكرامته. كان يعيش اللحظات تلك ما بين صاح ومغمى عليه. مرة أخرى انتصبت أمامه موجة رصاصية اللون ضخمة. نظر إليها. لم ترف

جفناه كأنه يقول: «ها هي قاتلتي. أعرف هذا» بدأ يضحك، أو أنه جرب الضحك أو الابتسام. لعل إحدى خلايا عقله التي بقيت متيقظة استطاعت أن توجه الأوامر لعضلات وجهه، لكنه لا يعرف تماما فيما إذا كانت هذه العضلات قد استجابت أم لا. ظن أنه ضحك أو ابتسم. لعله في الحقيقة قد ابتسم.

وجدت أمواج البحر هذا الإنسان الوحيد لتلعب به وكأنها تلعب بعجلة سيارة. تتقاذفه، تبعث فيه الأمل تارة، واليأس تارة أخرى. وعندما اكتفت من اللهو معه تركته. تناولته إحداها ورفعته في الهواء، ثم قذفته كفاكهة مسحوقة فوق كومة من طحالب البحر.

لم يكن سكبان صاحيا. كان يشعر بأن الأمواج تقذفه وتسحبه. انحسرت الأمواج هذه المرة دون سحبه. تركته. لا يستطيع فتح عينيه. انتظر أن تفعل به الموجة الأخرى ما لم تستطع فعله تلك. شعر أن الأمل غير مجد أمام تلك الأمواج الظالمة، والساخرة، وأنه قد فقد آخر فرصة له في الحياة. أتت موجتان، ثلاث انحسرت. لم تسحبه. بللته إلى خصره. لو أنه شد ثلاثة أمتار عن الماء لنام هناك أياما من شدة إرهاقه، لكنه لم يستطع تحريك ذراعه. كأنه في دهليز تلمع في نهايته بقعة ضوء وتخفت، وقال: «إنني أعيش».

لم يعرف كم مضى عليه من الوقت. فتح عينيه لحظة. أمر نفسه: «استجمع قواك». لكن داخله السحيق يغط في عالم الأحلام. انقلب على وجهه. وقف على ركبتيه. تحرك إلى الأمام ببطء على يديه وركبتيه فوق الرمال الرطبة وكأنه طفل يتعلم الحبو حديثا، ثم تمدد فوق الرمال الرطبة.

قلبه يخفق كأنه يكاد يقفز من بين ضلوعه. بقي هكذا مدة كي

يرتاح، ثم بالطريقة نفسها تقدم قليلا إلى مكان لا تصله الأمواج. تمدد على ظهره، وأغمض عينيه. أُغمي عليه. لا أحد يعلم كم من الوقت مضى.

عندما صحا، وقف فجأة. لم ينفعه الوقوف المفاجيء. كاد أن يختنق. أذناه تطنان، فرك بطنه بيمينه، وتقيأ، فتح عينيه، ثم جلس بعد أن تنفس بعمق. ثمة كلب حقير يدور حوله هازا ذيله . أتى وشم ما تقيأه سكبان، وذهب. عاد للتمدد مرة أخرى على ظهره. عدل وضعه لأنه شعر بوضع ظهره منحنيا. تقيأ هذه المرة مخرجا صوتا أعلى من السابق، وكمية أقل من القيء، خرج من فمه ماء أخضر. بدا كأنه ارتاح. تمنى قدحا من الكونياك. أمنيته هذه أرهقته. أثناء تفكيره في هذا، رأى موردخاي بجانبه.

موردخاي ينظر إلى سكبان.

لعل الطفل بجانبه منذ زمن طويل، وقد اكتشف وجوده الآن بعد استيقاظ وعيه، لكنه لم يمتلك قوة تمكنه من تحليل مضايقته لوجوده. تمطى. لم يهتم لهذا.

لم يسأله: «لماذا تنظر إليّ؟ ما هنالك؟». لو قال هذا فسيخرج من فمه شخيرا يخيف الولد.

ابتعد موردخاي راكضا.

لم يتحرك سكبان إلا بعد أن وجد في نفسه القدرة على المشي. انتصب على قدميه ببطء. نسي قميصه البشكيري الأصفر، وحصيرته، ومنشفته، ونعليه حيث تركهما، ومشى بخطوات متعثرة. إنه مستعد لدفع ألف ليرة ذهبية مقابل عكاز. لم تعد أشياء الشباب (تبان البارمودا،

والحزام ذو قفل رأس النسر الفضي) تليق بالجسد الذي يبدو خمسينيا من التعب.

جلس على الدرج الخارجي للفندق. الاستنشاق أراحه قليلا من الإرهاق الشديد. غسل فمه من ماء الصنبور الخارجي. لم يشرب خوفا من التقيؤ مرة أخرى. غسل يديه، ووجهه، وقدميه. لحظتها أدرك أنه نسي نعليه على الشاطيء. لم يهتم. صعد الدرج ببطء، ودخل الفندق بخطوات أسرع.

الناس في الداخل غارقون في اللعب، وهذا ما ينسي الإنسان مرور الوقت. لعل ظهور الشمس جعلهم يفترضون هدوء البحر، لهذا لم يخطر ببالهم أي مخاوف. حتى إنهم لم يلحظوا دخوله إلى الفندق. وكونه حافيا ساعد على دخوله بهدوء. مشى نحو الدرج بحذر. في تلك اللحظة رآه نسيم وهو يلتفت مصادفة، فقال:

- حسن، ها قد أشبعتم رغبتكم جيدا.

التفت الجميع نحوه.

ارتاحت السيدة ذات اللباس الأسود على الرغم من إثارة اللعب. فإحساسها الأنثوي، أو الأمومي - ولا يلعب العمر دورا في هذا الأمر - أو الغريزي يدفعها إلى القلق من تأخره. طلبت من النادل الشاي.

قال السيد رضا:

- البحارة لا يسبحون في مثل هذا الطقس، وحتى أبطال السباحة أيضا. ليحرسك الله من العين.

أدى سكبان حركة بيده وهو صاعد الدرج لا تعني إلا: «غير مهم».

وكمن يحاول أن يبدي نفسه حيا، بخطوات ميتة لم يرخ نفسه إلا على السرير في الغرفة. تمدد وهو لا يملك أن يخلع تبانه البرمودا المبتل.

لم يذكر أنه نام في حياته بهذا العمق.

لم يستطع استجماع قوى إدراكه عندما استيقظ. إذ لم يعرف أين هو. قال: «كونياك». على الرغم من أنه لم يضع كونياكا في حقيبته نهض وبحث عن كونياك فيها. ضغط على زر الجرس. قال للنادل القادم:

- احضر لي زجاجة كونياك، وشايا، وخبزا محمرا، وجبنة.

كانت المصابيح منارة في الممر. نظر إلى ساعته، كانت تشير إلى السابعة والنصف. قال بعد ذهاب النادل: «هذا يعني أنني نمت أربع ساعات مثل الميت».

غسل يديه ووجهه. جلس فوق السرير طاويا رجليه تحته. بدأ يتذكر ما حدث له. لقد أنقذ من موت محتم. هذا ما حدث فعلا. تذكر قراره بمواجهة الموت بالضحك، وابتسامته أمام آخر الموجات، وتمدده منهارا، وتحركه على رمل الشاطيء حابيا. حسنٌ أنه لم يكن وقتها أحد على الشاطئ. فضيحة لو كان أحدهم هناك. فجأة تذكر موردخاي: «هل رأى ما حدث يا ترى؟».

أتى النادل وقد وضع زجاجة الكونياك، وإبريق الشاي، والفنجان، والخبز المحمر، والجبنة في صينية.

- قال وهو يصب الشاي، ويده اليسرى كأنها ملتصقة بظهره:

- هل ستشربونها مع الكونياك؟

- أنا أصبه بنفسي.

- لعل البحَر أتعبكم؟

عزم على قول: «لم أنم. كنت أقرأ كتابا» ثم تذكر أنه عندما ينام بهذا الشكل فيشخر بشكل غريب، ومن الممكن أن يكون قد سمعه وهو يعبر الممر. قال:

- نمت قليلا.. لم أنم منذ البارحة.

دَهَن الجبنة على الخبز كما تدهن الزبدة. إنه يشعر بجوع شديد. أفرغ نصف الشاي الذي صبه النادل، وصب مكانه كونياكا، شربها دفعة واحدة. شعر فجأة بالدفء في داخله.

أنقذ من موت محتم. أكل الجبنة والخبز . صبَّ الشاي مرة أخرى. شرب. شعر بأن وعيه قد عاد إليه تماما، ولكنه مازال يشعر بوهن، وآلام في جسمه. وقف. لبس ثيابه. أخرج هدية (دلاس) حزام رعاة البقر ذا القفل الفضي من التبان وأدخله في البنطلون. مشَّط شعره. أشعل غليونه. نزل إلى الصالة.

لم يكن في الصالة سوى رجل البترول. والشاب الأنقري الآخر. كان الشاب يقول:

- يجب أن تتوافر الصناعات الكيميائية قبل الصناعات الثقيلة. ما ينقصنا نحن هو صناعة كيميائية. يرش على دونم الأرض في بلجيكا ٦٠٠ كيلو غرام من السماد الكيميائي. اليونان، تلك التي لا تعجبنا، ترش على المساحة نفسها ٦٠ كيلو غراما. بينما نحن نرش خمسة كيلو غرامات ونصف. احسب كم نحتاج...

– إننا بحاجة إلى مصنع سماد كذاك الذي في مدينة كوتاهية.

– كم؟!.. اثنان، ثلاثة.. قولوا أربعة.

الرواية التي كانت تقرؤها السيدة ذات اللباس الأسود متروكة على الطاولة. نظر سكبان بطرف عينه وقرأ: «وكان ينهار الصقيع ببطء». مع أنه ظنها تقرأ رواية «المستودع» أو «عَبَرَ كالريح».

قال رجل البترول متوسط العمر:

– لابد أنكم استمتعتم بطعم البحر. من يعلم كيف يكون أثناء العاصفة؟

أجاب سكبان باختصار:

– ليس ممتعا إلى ذلك الحد.

قال الشاب:

– البارحة استطعنا أن نسبح قليلا: إذا بقي الطقس هكذا فلن تأتينا مثل تلك النعمة.

كان السيد موريس وعائلته قد خرجوا ليتنزهوا قليلا قبل العشاء. وهم الآن عائدون.

– البحر يفور ويزيد.

قالت هذا جودث. كانت تلبس كنزة زرقاء كاشفة. وبنطالا بنفسجيا. قال السيد موريس بلهجته المميزة.

–كيف سبحت في هذا الجو يا عزيزي؟

نظر موردخاي إلى سكبان.

لا يمكن أن يكون هذا اللقيط قد حكى لهم كل شيء. بادل سكبان موردخاي النظر. لا، لو كان الولد قد رأى ما حدث سيهرع ليخبرهم، وهم بالتالي سيهرعون لإنقاذي، أو لفعل شيء ما على الأقل. لابد أن موردخاي قد رأى سكبان بعد خروجه إلى الشاطيء بكثير.

الأنقريتان تنزلان الآن من غرفتيهما من أجل طعام العشاء، بعد أن غيرتا ثيابهما. السيدة التي كانت تلبس الأسود صباحا استبدلت به لونا بنفسجيا لائقا جداً بها. أما ذات الشعر الأشقر، قارئة الفنجان، فقد لبست سترة صوفية طويلة قليلا، وتحتها بنطلون صوفي عريض الكمين.

من المحتمل أنها تكمل حديثا بدأته في الغرفة بجملة: «... تصوري أن يكون بلون الخاكي العسكري وبطانته حمراء». عندما نزلتا إلى الصالة، سلمتا على أصدقائهما الأقدم، عائلة السيد موريس:

- مساء الخير.

- مساء الخيرات.

ثم انحنيتا قليلا لسكبان قائلتين:

- مساء الخير.

قال نسيم لسكبان:

- يبدو عليكم التعب.

تدخلت السيدة الفضولية ذات الشعر الأشقر:

- وهل من السهل السباحة عكس هذه الأمواج؟!

بحث سكبان عن جانب ساخر في هذه الجملة. أمن الممكن أن هذه السيدة تراقبه من نافذة غرفتها؟ ثم تذكر أنه عندما عاد من البحر كانت في الصالة، تغوص في لعبة النرد لا علم لها بشيء. فاستنشق نفسا عميقا.

كان السيد موريس يصب الوسكي لأفراد عائلته من حافظ برودة معه. قال ممازحا:

- ما رأى السيد بكأس من الشراب؟

- نعم بكل امتنان.

- بصحتكم.

- بصحتكم وجرأتكم التي أظهرتموها اليوم.

قال الشاب الأنقري من الطرف الآخر:

بالتأكيد.

موردخاي يركز النظر إلى سكبان.

رفع سكبان القدح إلى فمه. كان يقابل سكبان كل عبارات المديح، ونظرات الإعجاب بسكوت ظاهره تواضع، يزيده غرابة، ويدفعه إلى استمرار اللعبة.

موردخاي ينظر إلى سكبان، ويمشطه بنظراته من أعلى إلى أسفل. سكوت العارف يخيف أكثر من الجوع. لم يبث الذعر في قلوبهم. لم يشارك أحدا في سره. إنه الشاهد الوحيد على ما حدث.

موردخاي ينظر إلى سكبان.

تثاءب سكبان. تضايق من لبوس السباح الجريء الذي ألبسوه إياه، ومن تمثيله لدور البطل.

موردخاي ينظر إلى سكبان.

قال لنفسه: « هل أحكي لهم كل شيء؟» بعثت هذه الفكرة الدفء في داخله. ماذا يخسر؟ وهل يتطلب تمثيل الشجاعة جرأة أكثر من الاعتراف بالجبن؟ نعم سيعترف لهم بكل ما جرى. كيف يلعب الإنسان دورا أكبر منه، ويثير قرفه، ويشعره أنه يرتدي ثيابا فضفاضة جدا. يجب أن يبدو على ما هو ولو مرة واحدة، ولو بكل جوانبه المثيرة للسخرية، حتى مواجهة الموت ضاحكا كاسبارطي، كل ما حدث، وبالتفصيل، حتى ما خطر بباله وهو يصارع الموج، وسقوطه في مستنقع أفكاره. كيف جهد من حلاوة الروح وزحف على الرمل؟ كيف استهلك نفسه؟ كيف أنزله الخوف والرعب والذعر من مرتبة الراقيات إلى مرتبة الزواحف..

موردخاي ينظر إلى سكبان.

نظره الذي يمشطه من فرقه إلى قدمه. ثم توقفه بمستوى بطنه، يذكره بتقيئه وهو على وشك الموت. لكنه الآن اعتاد على هذا. لعل سبب ذلك التقيؤ هو الإحساس بالألم أثناء التنفس وكأن قبضة حديدية تنهال على صدره. لعل السبب الأساسي هو قرفه من نفسه. أمستحيل هذا؟

موردخاي ينظر إلى سكبان.

لو أنه لم يخف من موردخاي، كانت تستفزه النقطة الصغيرة، والصافية، والثابتة في كل عين من عينيه الزرقاوين المحاطتين بالنمش. كم يصغر الإنسان عند الإفصاح بأنه سيموت، هنا جانب الطاولة المستريحة وسط دخان السجائر أمام أناس لا يزالون يظنونه بطلا.

كـيف أنه هـذا الصـبـاح، وكل صـبـاح، وكل يوم - ليس هو فـقـط، بل جميعنا- يخبو انتفاخه. نعم يخبو في ليلة عاصفة من ليالي حزيران في بلدة أقجة قوجة وفي فندق حقير، وأمام أناس لم يشعر لحظة بالقرب منهم. لكنه يعد هذا دينا على نفسه، ولنفسه. محاسبة الذات. ليقولوا: قتل غرته خنقا بقول: «ها أنذا..» مخرجا نفسه من سجن نفسه.

موردخاي ينظر إلى سكبان.

قالت السيدة الشقراء:

ما هذا؟ شردت بعيدا يا سيدي...

يبدو أنها فكرت وخططت في غرفتها لكي تكون أكثر جرأة، وتلفت نظر سكبان، حتى لو اضطر الأمر اتخاذها موقفا معاكسا منه،

قال سكبان بهدوء:

- نعم، إنني متردد

فجأة نظر الجميع إليه عدا نسيم. لم يسمع ما قاله سكبان لانشغاله بتنظيف غليونه.

قالت السيدة الشقراء وهي تؤكد على مخارج الحروف:

- وهل تنوون السباحة قبل الطعام في الليل أيضا؟

- لا .. سبب ترددي أمر آخر.. هل أقول الصدق، أم أستمر في الكذب؟

ثم اتخذ قراره بسرعة. لحظتها قال وكأن الكلام سقط من السقف فجأة:

- أنا رجل غبي.

أسرع الجميع بقول عبارة: «استغفر الله».

- لا، لا.. أنا رجل غبي. إحدى العزيزات أخبرتني بأن أمواج البحر الأسود مختلفة. رميت كلامها خلف ظهري. وثقت بنفسي. سبحت صباحا في تلك الأمواج.. اكتف بهذا يا غبي! لا.. ازداد غضب البحر بعد الظهر. لم يبق أحد على الشاطيء. أنا عبد من عبيد الله السخفاء المعجبين بأنفسهم. قلت لنفسي: «أنا رياضي سابق، ولا يهمني أي بحر». ازددت غرورا بنظراتكم الخائفة، فرميت نفسي في البحر. أي رمية تلك؟ كدت أغرق. بينما كنتم تلعبون هنا البريدج، والنرد، كانت الأمواج تتقاذفني كندفة قطن أمام حلاج. قذفتني لحظة إلى الشاطيء، لكنها سحبتني كالزوبعة قبل أن تدع لي فرصة للفرح. خارت قواي. تقطعت أنفاسي، تأرجحت كخرقة. أيقنت أن نهايتي أتت وأنا وحدي، وفي سبيل مظاهر قذرة. لعل هذا هو قدري. الإنسان معرَّض.. لأبتسم للموت إذن. حسب زعمي أنني سأموت برجولة. بقيت حتى هذه اللحظة ألهث وراء موقف شكلاني، لكن الموجة الأخيرة ألقتني كفاكهة مسحوقة إلى الشاطيء. لعلها لم تجدني قويا أستطيع الموت ضاحكا. بعدها تمددت هناك مثل الميت. تقيأت، ثم حاولت شد نفسي زحفا إلى مكان أكثر أمنا. (نظر إلى موردخاي في هذه اللحظة) عندما وجدت قوة في رجلي.. استجمعتها وصعدت إلى غرفتي وكأن شيئا لم يكن. نمت أربع ساعات مثل جثة. والآن نزلت لأجلس معكم وأنتم تشربون نخب استمراري في التهريج. لنشرب إذا كنتم تصرون، ولكن نخب غبائي. هذا ما يمكنني شرب نخبه معكم. وسكت.

تبادلت النساء النظرات، ثم نظرن إلى أزواجهن. خيم الصمت

لحظة. لم ينبس أحد. الأخبار تبث من مذياع في الخارج. حكى سكبان هذا بسرعة وكأنه غير واع. عاد إلى وعيه ببطء أثناء الصمت. أدرك أين، ومع من هو. قال رجل البترول المتوسط العمر:

- حمدا لله على سلامتك.

لماذا بعد كل هذا الوقت؟ يبدو أنه وجدها بعد عناء وتفكير.

قال السيد موريس:

- آه، آه.. أحزنتني كثيرا.

- أنا أكثركم حزنا.

قال هذا سكبان. ألم يفرغ ما في داخله، ارتاح، ثم أضاف:

- العيش شيء جميل سيداتي وسادتي... خاصة بعد أن يجدع أنف المرء، ويشعر بضآلته.

قالت السيدة ذات الشعر الكستنائي، والتي لبست الأسود صباحا، والبنفسجي مساء، وتعرف ما يليق بها:

- أي منا يا ترى لو وقع بما وقعت به سيجد القلب والجرأة للاعتراف؟

يبدو من خلال بنائية جملتها أنها تقرأ كثيرا من الروايات، ولكن يجب الاعتراف بأن كلماتها حارة وصادقة. كأن الشقراء قد صدمت. يبدو أن الأحداث جرفتها بعيدا عما خططه إحساسها الذي كانت تظنه لا يخيب.

قالت وكأنها تريد أن تثأر.

- يتمادى الإنسان أحيانا إلى حد التضحية بنفسه. من أجل لفت النظر يحاول التغلب على الموج سباحة.. ولهذه الأعمال معجبون.

لم يظهر الهدف من هذا الكلام. لعلها تقصد نفسها، لأن هذا النوع من النساء لا يعرفن حتى ما يردن.

الرجال هم الذين أضفوا على هذا الحديث شيئا من الحلاوة. قال نسيم:

- أنا أفهم إحساسكم جيدا.. ضعت وسط الضباب في جبل (أولو) ذات مرة. لم ينقشع لمدة عشر ساعات. حفرت الأرض ورفست الهواء برجلي كي لا أتجمد. وصلت إلى اليأس في إحدى اللحظات.

قال السيد رضا:

- في لحظة كهذه يستعرض الإنسان حياته من أولها إلى آخرها.

قال الشاب الأنقري:

- كلام.. مجرد كلام.. هل يستطيع الإنسان التفكير في شيء وهو يواجه الموت؟

قال رجل البترول:

- أنا لا أعرف هذا أو ذاك، ولكن إذا كان الإنسان يواجه الموت وليس بجانبه أحد، وإن وجد لما استطاع إنقاذه، فما فائدة الصراخ والمقاومة. لا مفر أمام الإنسان إلا أن يصبح قويا، أو يضحك أيضا.

قال الشاب الأنقري.

- في حالة كهذه، القوة التي يتحلى بها محكومو الإعدام في

اللحظات الأخيرة تأتي من اليأس أكثر من الإرادة.

قال رجل البترول المتوسط العمر:

- لم لا؟

جرى الحديث فترة على هذا المنوال. بعدها، أتى الطعام من المطعم الخارجي. بعد الطعام، احتسيت القهوة.

أصبح الجو أكثر حرارة. لعب سكبان البريدج مع موريس وجودث، ورجل البترول المتوسط العمر، ولعبة أخرى مع الشاب الأنقري، ونسيم، وموريس. وربح من نسيم لعبة نرد مزدوجة. بعدها لعبت جودث مع السيدتين الأنقريتين، والشاب الأنقري الكونكان، واستمتعت جيدا.

التقى سكبان بموردخاي في الممر أثناء صعوده إلى غرفته. كانت أمه تصطحبه ليتبول قبل النوم. توقف موردخاي. نظر إليه مرة أخرى، نظرة استعرضته من فرقه إلى قدمه. وركز نظره عند بطنه. ترك أمه. لقد أعطى قراره، وأشار إلى حزام سكبان ذي القفل الفضي بشكل رأس النسر، وقال له:

- من أين اشتريت حزام الشريف هذا؟

نظر سكبان إلى جودث، ونظرت جودث إلى موردخاي بحيرة. أضاف موردخاي:

- لم تجد لي أمي واحدا مثله. لا يوجد مثله في السوق الأمريكي في أنقرة.

ثم هرب، واختبأ خلف أمه.

ضحك سكبان، ثم ضحكت جودث أيضا. فك سكبان الحزام، وقدمه إلى موردخاي، وقال:

- خذه، بما أنك لم تجد واحدا مثله، خذه.

قالت جودث:

- كيف هذا؟

- إنه يرغب أن يكون شريفا. ليكن.

- ثم غمز موردخاي وقال له:

- بعد أن تصبح شريفا، لا تتعقبني وتحاول قتلي.

مد له يده بالحزام، وبقيت في الهواء، لم تدرك جودث ما قصده سكبان، لكنها أبدت لنفسها أنها خمنت شيئا. سرت فيها حرارة الدم بمحبة ابنها، فانحنت، وقبلته، ثم قالت له:

- هيا خذه.

قفز كجارح يلتقط فريسته، ثم اختبأ خلف أمه مرة أخرى.

- لا ليس هكذا. قل للسيد شكرا، تعال يا (موردو). كيف علمتك؟ كيف تحيي.. وتقول شكرا؟

موردخاي يدقق النظر متمسكا بالحزام. أحنى رأسه خوفا من أمه، لكن سكبان قال دون اهتمام:

- تصبحان على خير.

قالت جودث:

- تصبح على خير. قل له شكرا.

ثم مسكت الولد من يده، وسحبته إلى غرفته. كان يحاول وضع الحزام على خصره، لكنه لا يستطيع تثبيت قفله. وضعه على كتفه كحزام الذخيرة الجركسي. ثم تمترس خلف الباب، وأطلق نارا وهمية على سكبان.

يبدو أن هذا الطفل لن يتخلى عن مبارزة المسدسات. أي راعي بقر أصبح شريفا فتعقل؟

دخل سكبان إلى الحمام أولا، ثم إلى غرفته. كان مصراع النافذة الخارجي مكسورا، يخرج صوتا، فتحها، وحاول إصلاحه. بدا البحر أكثر هدوءا. تناهى إلى سمعه آخر الجمل الموسيقية من نشيد الاستقلال يبث من مذياع بعيد.

مرت سفينة في البحر وأطلقت صافرتها. كانت أضواؤها ترتجف، كأنها تغمز، أو تحرك كتفها بدلال. قال سكبان لنفسه: «لابد أنها لعبة من ألعاب العاصفة. عندما لم يستطع إصلاح مزلاج النافذة أغلَقه وثبته، ثم تمدد على سريره.

صميم قوجة غوز

(ولد في بلده سوكة عام ١٩١٦-)

درس في جامعة اسطنبول، كلية الآداب، قسم اللغة التركية وتخرج فيها عام ١٩٤٢، ثم تابع دراسته في قسم تاريخ الفن في جامعة (لوزان) وتخرج فيها عام ١٩٤٥. عمل فلاحا في مسقط رأسه بلدة سوكة.

تناول في قصصه قضايا الفلاحين، والأرض، والصراع والتخبط الاجتماعي في الأناضول، وخصوصا في سهول (سوكة) و(مندرس) منها: (الحور ذو الأسلاك ١٩٤١)، (العم سام ١٩٥١)، (سائق الدنيا ١٩٥٤)، (خراف أحمد ١٩٥٨)، (الصخرة التي على الطريق ١٩٦٤)، (فتاة تحت المطر ١٩٦٨)، وفاز بجائزة مجمع اللغة التركية عن هذه المجموعة (الشاب في الساحة ١٩٧٨) وفاز بجائزة (ليونز) الأدبية عن هذه المجموعة أيضا. (تنفس الليل ١٩٨٥).

اشتغل على تجسيد الواقعية المحلية، وتأثر بالأفكار النابعة من المجتمع المحلي، وأهمها حرب الاستقلال في كتابة روايته ومنها: «العالم الثاني ١٩٣٨)، (بابان لمدينة ١٩٤٨)، (قصة أفعى ١٩٥٤)، (عودة عشرات الآلاف ١٩٥٧)، (أصحاب القبعات والأرسن الغليظة ١٩٦٣)، (زوج الثيران ١٩٧٠)، (في وسط إزمير ١٩٧٣)، (مناقشة ١٩٧٦)، (فوق البنفسجي ١٩٨٧) وفاز عنها بجائزة (أوغوظ باير) للثقافة والفنون. (أرض قديمة ١٩٨٩).

جمع مقالاته في كتاب بعنوان: (الرواية وشرف الكتابة ١٩٨٣).

فاز بالجائزة الأولى في المسابقة التي تنظمها صحيفة (Herald Tribune) «هيرالد تريبيون» النيويوركية عن قصته (العم سام).

خصصت مجلة (فارلك) الثقافية عدد تموز ١٩٨٩ للحديث عنه.

غضب

بينما كان ظلام الليل يرخي ظله، دفع باب الحوش ذي المصراعين، ودفع حماره، ثم سحبه محاذرا ألا يطأ شَتّلَ الخضار نحو المرابط، وعقله إلى اليمين، وضع أمامه بعض التبن، ثم قال للبقرة ذات العينين الكبيرتين اللامعتين، المنعكس بريقهما على مسافة في الظلام: «وأنت أيتها الصبية السوداء...» ووضع أمامها بعض التبن أيضا. خرج من هناك، وتفحص ببصره فيما حوله. القرية تسكن في ظلام مطبق. ثمة أنوار تنبعث من نوافذ البيوت. ارتفعت وتيرة ضربات قلبه عندما تناهت إلى بصره زريبة جاره (والي) وبيته إلى اليسار. تحسس لحيته بغضب، قال: «عديم الشرف!»، واتجه نحو البيت.

عندما وصل إلى بداية درج البيت قابلته (حفيظة) زوجته قائلة:

- الحمد لله على السلامة ياعلي..

- يسلمك الله.

خلع سترته، ورماها على مقعد خشبي طويل، ورمى قبعته خلفها، وعند جذع شجرة الكرمة صبت له حفيظة ماء من الإبريق، غسل وجهه، وأزال الغبار عن لحيته. دخل، وما إن تربع على المقعد، حتى عدل عن ذلك، وذهب إلى بيت الخلاء. غسل هذه المرة يديه، وساعديه، وبينما كان يجففهما نظر إلى عناقيد الحصرم، والعنب الناضجة السوداء. وضع سترته على كتفيه وعاد إلى الجلوس. اتجهت حفيظة نحو الطرف الآخر من المقعد، وسألته بصوت حزين:

- ودعت الولد بالسلامة!

رمق زوجته، وقال متأوهاً:

- ودعناه بالسلامة. ذهبنا، هو ماشيا وأنا راكبا على الحمار إلى أول الطريق، وعند القهواتي (راغب) تركنا الحمار. ركبنا هناك الحافلة، وذهبنا إلى الناحية. وصل القطار ظهرا، وأخذ محمدا وذهب..

ضوء مصباح الغاز المنبعث من الغرفة الداخلية يسقط على وجه الأم العجوز الجالسة إلى جانب نهاية المقعد وعلى غطاء رأسها. عينا المرأة جامدتان، وشفتاها مزمومتان وسط وجهها المجعد الذي أضفى عليه الضوء لوناً وردياً.

- آه.. انتهت إجازة محمد بسرعة ياعلي..

قال الرجل محركا يده حركة انفعالية:

- الجندية لا بد وتنتهي.. أنا نسيت كم سنة خدمت في الجيش. قال محمد إنه سيأتي في الصيف القادم، قبيل الحصاد.

سكتا مدة، ثم تابع علي الحديث:

- ليست الجندية المشكلة.. انظري إلى بيتنا، وإلى بيت والي.

نظرت المرأة إلى حوش جارهم وإلى البيت الأبيض وسطه، ثم طأطأت رأسها. تابع زوجها الحديث:

- لنترك جانبا جيرتنا، وتكاتفنا منذ الطفولة، وعلى مدى أربعين عاما مع هذا الديوث. خدمنا الجندية معا في لواء الخيالة بقيادة فخر الدين باشا. عندما هرب الكفار إلى إزمير، خرجنا لنقطع الطريق عليهم.. ليس هذا هو المهم.. في إحدى استطلاعاتنا أصيب بطلق ناري، وحملت هذا المتلوِّن على ظهري، وسرت به تحت مطر الرصاص مدة

ساعتين ونصف حتى وصلت إلى مكان تجمع الخيول، وأنقذته.. بيننا خبز وملح... والآن ما هذه القذارة التي أكلها كي يخرج من فمه ما خرج؟ يطلب ثلاثة آلاف ليرة مهراً ليزوج ابنته لابننا محمد.. ابنة هذا الحمار غالية جدا.. طوال خمسة عشر يوما مدة إجازة محمد، وأنا أتوسل إليه.. أقول: «لنحل مشكلة الخطبة» فلا يرد. خاصمته فلم يرضَ. غضبت منه ذاك اليوم، وكدت أضربه في المقهى، لكن الأصدقاء ما تركوني. مسكوا يدي. ألا يعلم هذا الكلب أنني لو مت لا أستطيع جمع ثلاثة آلاف ليرة..

أجابته حفيظة مهدئة، بصوت رقيق:

- لا تهتم يا علي.. إن رضي حسنا، وإن لم يرض... عندما ينهي محمد الجندية يخطف زهرة، وعندها يعرف.. البنت لا تتركني. راضية منذ البداية.. تموت حباً بمحمد! كأنني لم أرها عندما كان محمد ذاهبا صباحا. كانت تبكي في طرف البستان.

علي مسن، لكن بنيته ضخمة. قال منتبها، وبفرح:

- صحيح يا امرأة.

لكنه بعد لحظة تفكير، تابع قائلا:

- ولكن ألا يبيع هذا الكلب ابنته قبل عودة محمد؟

- ما زال يخجل منك. إنه يحترمك.

كانت عينا علي ثابتتين نحو رؤوس أصابع قدميه، وهو يتمتم قائلا:

- كان والي في تلك الأيام رجلا بحق.

خيم صمت طويل مرة أخرى. كان الظلام قد أرخى سدوله على

القرية جيدا، وبدأت الكلاب تتنادى فيما بينها على مسافة. بدأت حفيظة حديثا آخر:

- قم يا علي لنأكل لقمة خبز. ألم تجع؟ قطعت كل هذا الطريق رواحا ومجيئاً.

- لا شهية لي بالأكل.

- يوجد حساء على النار.

رمق الرجل العجوز زوجته، وقال:

- هيا، لن أحزنك.. ثم نهض ودخل الغرفة.

خرج مرة أخرى، وأشعل سيجارة، لم يرغب في الذهاب إلى القهوة، ثم إنه كان تعبا. جلس على الدرج. حك رأسه. كان متضايقا جدا، ويدخن ناظرا إلى بيوت القرية التي ينبعث منها الضوء. مهما بعد بنظره، لابد وأن يعود به إلى بيت والي، الناصع البياض وسط الظلام.. علي لا يحب الكلاب. ويوتر أعصابه نباح كلاب والي خلف السور ردا على نباح كلاب القرية. غسلت زوجته الأطباق ورتبت الغرفة. جلست مدة على المقعد الخشبي، ثم دخلت. كان علي يجلس على الدرج. نهض، وجلس على المقعد، وأشعل سيجارة أخرى. كانت ليلة أيلولية كثيرة النجوم، علي ينظر إلى سواد الليل والنجوم عبر أوراق الكرمة. نهض وجلس على الدرج مرة أخرى، ثم نادته زوجته قائلة:

- فرشت لك يا علي.. ألن تنام؟

- نامي أنت.. واطفئي المصباح.. أنا قلق.

الشيطان داخل علي لا يهدأ. ضبط نفسه، ولم يرد على شيطانه، وجلس فترة طويلة على الدرج. فجأة وقف. أطفئت جميع أنوار القرية تقريباً. خطا خطوة إلى الأمام، وأخرى إلى الخلف، ثم وقف جانب

الجُبّ، وتناول حجرا كبيرا. قذفه نحو حوش والي، فأصابه. ومع اصطدام الحجر بالحوش هبت الكلاب هبة واحدة. هاجمت الباب. كأن القيامة قد قامت عندما أجابت كلاب القرية على نباحها، رأى علي واليا يخرجَ إلى درج داره لابسا سرواله وقميصه الداخليين، حاملا مصباحاً يدويا. قال علي لنفسه:

- انظر إلى هذا الرجل.. انظر!

بعد فترة طويلة هدأت الكلاب. قال علي لنفسه: «لأذهب وأنام»، ولكنه مازال قلقا، كأن صخرة تضغط على صدره.. قذف حجرا آخر نحو حوش والي وهو يقول: «خذ» نباح الكلاب هذه المرة أدخل السرور إلى قلبه. خرج والي مرة أخرى، وصاح:

- يا (جاويش) علي.. ياجارنا..

لكن علي نهض بهدوء واتجه نحو الدرج، ثم جلس على المقعد. لم ينبس بصوت. أشعل سيجارة أخرى، ثم أخرى.. كان الليل قد انتصف. نهض وقذف حجرا آخر قائلاً:

- لن أدع كلاب هذا السافل تهدأ هذه الليلة.

جن جنون الكلاب. قلبت الحوش رأسا على عقب بنباحها الذي كاد يمزقها. خرج والي بقميصه وسرواله الداخليين أيضا، حاملا بندقية هذه المرة، جاب أطراف الحوش، وأهل داره يمسكون له المصباح مضيئين أمامه. لم يهدأ والي، فأفرغ طلقة بندقيته في الهواء. رددت القرية صدى الطلقة وسط الظلام. هرع كل رجال القرية وكلابها نحو بيت والي. دخل علي إلى بيته وأغلق الباب. خلع ثيابه. اندس في فراشه، وسحب اللحاف فوق رأسه. قال لنفسه: «أي رجل هذا؟.. يطلب ثلاثة آلاف ليرة مهراً.. يقول إن ابنته غالية.. أليس ابني غاليا؟».

يشار كمال

ولد في إحدى القرى التابعة لمحافظة أضنة العام ١٩٢٢.

اسمه الحقيقي كمال صادق غويجلي. ترك المدرسة قبل أن ينهي الصف الأخير من المرحلة الإعدادية. انخرط في ميدان العمل، واشتغل عامل بناء، وكاتب استدعاءات، وصانع حذاء، وعاملاً زراعيا... وبلغت الأعمال التي اشتغل بها حوالى أربعين عملاً.

بعد ذهابه إلى اسطنبول بدأ كتابة التحقيقات الصحافية، وزاوية ساخرة أسبوعية في جريدة الجمهورية.

فيما بعد أسس مع مجموعة من الأشخاص مجلة سياسية بعنوان (ANT/القسم) واستمرت في الصدور من (٣ كانون الثاني ١٩٧٦ حتى ١ آيار ١٩٧١).

يعيش الآن من عائد كتبه.

بدأ حياته الأدبية بكتابة الشعر، ونشر مجموعة من أشعاره في المجلات باسمه الحقيقي.

عكف مدة طويلة على البحث في التراث الشعبي، وجمع كتبا عديدة في هذا المجال.

بدأ كتابة القصة بعد ذهابه إلى اسطنبول مستخدما اسم يشار كمال.

كتب القصص الطويلة والروايات، وحاز شهرة عالمية في هذا النوع الأدبي إذ وصل عدد اللغات التي ترجمت إليها روايته «محمد النحيل» إلى ثلاثة وعشرين لغة، ووصلت طبعاتها حتى العام ١٩٨٣ إلى الطبعة الثامنة عشرة. وقدم (بيتر أوستينوف) هذه الرواية كفيلم في انجلترا.

نال عدداً كبيراً من الجوائز الأدبية التركية والعالمية، وقُلِّد مختلف الأوسمة.

له كتاب واحد في القصة القصيرة بعنوان (الحر الأصفر ١٩٥٢).

الأقلام

المزابل واحدة من أهم معالم المدن. هل خطر ببالكم تصور كل هذه الأهمية أو الضرورة للمزابل؟ أنا لم يخطر ببالي هذا قبل رؤيتي إحدى مزابل المدن الكبرى. المزبلة بالنسبة لي تعني مدينة.

اسطنبول مدينة جميلة، أخاذة، لو تذوق أحد طعمها، واستنشق هواءها، فلن ينساها، وهي لوحات تنساب من خلال فرشات الرسامين عبر السنين. كم التقط لها من صور، وكتب عنها من شعر؟ أنا أعتبر نفسي قرأت وشاهدت معظمها، ولكن لم تعطني أي منها صورة شاملة عنها كالصورة التي أعطتها لي مزابلها. إذا كانت اسطنبول تنبعث من مزابلها رائحة نتنة، كرائحة الجيف، تخدش الأنوف... وإذا كانت رائحتها أنظف، فتنبعث من مزابلها رائحة أقل نتانة، وإذا كانت رائحتها عطرة، فتنبعث من مزابلها رائحة طيبة. ستقولون: «أتنبعث رائحة طيبة من مزبلة؟» نعم، تنبعث.. لماذا؟ وهل أنا إنسان يعرف المزابل عن قرب إلى هذا الحد؟ يجب أن أدافع عن نفسي. أنا لست خبير مزابل.. لا بد أن أخبركم بهذا السر لكي لا تنظروا إلي بعين الريبة. أولا: أنا أحب النوارس.. أحبها؟.. لا، لا، من الأدق أن أقول: مهتم بحياتها. أذهب لأراقبها ساعات.. فوق البحر، أو الصخور، أو المزابل. النوارس مخلوقات شرسة، ومقاتلة. تنهش كل ما يقع تحت مناقيرها. لهذا عندما أريد الكتابة عن النوارس ليس من الضروري أن أدخل إلى أدق تفاصيل حياتها. لعلني أكتب لكم يوما مقالة غريبة، وطويلة، عن النوارس، تلك المخلوقات الشرسة. يتجلى صراع النوارس أكثر ما يتجلى على المزابل، وهي سبب اهتمامي بالمزابل. والسبب الثاني هو جارنا الجاويش رستم.

لجارنا رستم هذا شاربان كثان، وعينان براقتان، وهو حيوي، ومرح، ومفعم بالحب والحياة، وهو من ناحية ظارا، التابعة لمدينة سيواس، وزبال في اسطنبول منذ عشر سنوات، ورقِّيَ إلى مرتبة جاويش الزبالين منذ أربع سنوات.

اشترى قطعة الأرض المجاورة لبيتنا بعد أن أصبح جاويش الزبالين. في البداية سوَّرها وغرس فيها ثلاث شجرات دلب. فوجئنا بتفتح زهر العسل في الربيع، إذ عبق الحي برائحته.. متى حدث هذا؟ متى بني البيت وسط قطعة الأرض؟ لم ينتبه سكان الحي لهذا، كما لم أنتبه أنا.. ولعله لم ينتبه هو أيضا.. هناك خلف السور المزهر يبدو بيت نافذته ذات ثلاثة مصاريع، يتلامع، وكأنه هناك منذ ألف عام. عرفنا زوجته فيما بعد. قصيرة عريضة الفخذ، ذات عينين واسعتين، صبية تبدو في الخامسة والعشرين من عمرها. تقضي يومها من الصباح حتى المساء بمسح الزجاج، وتنظيف الأخشاب، وعزق الحديقة. كان بيتهم أجمل بيوت الحي وأنظفها. أحيانا، كنت أرى الزوجين واقفين أمام البيت، وينظران إليه بإعجاب كأنهما ينظران إلى لوحة رسام. عندما يلاحظان أنهما بهذا الموقف يهربان خجلا، بخوف طفل ضبط متلبسا، إلى بيتهما. كثيرا ما ضبطهما بهذا الموقف. فيما بعد، أصبحنا نشاهد البيت معا، ولساعات طويلة، دون أن نشبع منه.

في الربيع تفتحت أنواع من الزهور في حديقة البيت.. وامتلأت نوافذ البيت بأصيص زهور المسك، والعيهون والريحان.. كان بيت الجاويش رستم لوحة تنعش النفس، وتبعث فيها السعادة، أنجزتها يد فنان كبير.

لديهما ولدان. صبي وبنت. كان الصبي ناعما، مفعما بالحركة، ويطن

كنحلة من الصباح إلى المساء دون توقف ولو لحظة. يظهر في كل مكان من الحي، وهو ليس من أولئك الأولاد المغبرين من فرقهم إلى قدميهم. كان نظيفا وعطرا كبيتهم. أما ابنتهما فهي أكبر قليلا، هادئة، قليلة الكلام، دائمة الابتسامة اللطيفة، خجولة، حلوة، ذات وجه مكدر قليلا.. دقة ذقنها، وامتلاء شفتيها يجعلانها تبدو أكبر مما هي عليه. هذا كل ما حولهم. كانت العائلة بيتا وأولادا وأزهارا وزوجين نبعا من حب، وأفقا من سعادة. وكل من يمر جانب البيت يدرك هذه السعادة، ويفعم بالحب. ثمة أمكنة وبيوت وأناس تغمرك السعادة عندما تنظر إليهم.

طيلة سنوات أربع، كلما تضايقت، أو اسودت الدنيا في عيني، وحلت علي لعنتها، أخرج وأنظر إلى ذلك البيت الصغير فأشعر بالراحة. يعود الرجل الوسيم ذو الشاربين الكثين ببذلة الزبال كل مساء، إذا كان فرحا يحتضن طنبوره، وبصوت خافت جدا يؤدي أغنيات شعبية لم أسمعها، ولا أمل لي في سماعها مرة أخرى حتى أموت. ماذا تقول تلك الأغاني؟ هل تعني الفرح؟ أم القدر؟ أم تحكي قصة ما؟ لم أفهمها. أحيانا كنت أرغب في ضبطه وهو يغني، والاستماع إليه، وفهم ما يقول، ولكن ما إن أدخل بيته، يهب واقفا، ويجلسني بعد أن يرمي طنبوره بسرعة خلف صندوق بجانبه. طلبت العزف منه عدة مرات، ولكني فهمت أنه لن يعزف أمامي مهما كان الثمن، فعدلت عن طلبي، وهذا ما كان يؤجج نار فضولي. ما الكلمات التي يؤديها الجاويش رستم لتغدو أغانيه جميلة إلى هذا الحد؟ كان يحبني. طلبت منه اصطحابي إلى مكان عمله فلم يخجلني، بل، على العكس، فرح.. تكررت زياراتي. المكان خارج المدينة حيث أفران القرميد. تفرغ القمامة هناك، والجاويش رستم على رأس العاملين. يحرقون القمامة أحيانا، وجدت أنه لا توجد في هذه الدنيا رائحة أكثر كرها من رائحة حرق القمامة.

المزبلة مختصر مدينة، وتحتوي على كل ما تحتويه المدينة من أشياء. ثمة ساعات ثمينة، حتى إنها جديدة جدا. ثمة خواتم، وأساور، وأطواق ذهبية، وماسية. ثمة أقلام حبر، وجافة، ومقصات، ولفات خيوط، وبكرات، ونظارات، ونقود... يتقاسم الزبالون كل ما يخرج من المزبلة، قيّما كان أم بخسا. الأقلام هي المادة الوحيدة التي لا يستطيعون اقتسامها. من يجد في المزبلة قلما يصرخ بفرح كأنه وجد ذهبا أو ماسا.

- يا جاويش رستم.. وجدت قلما.. قلم جميل جدا.. لونه أحمر، ولم يفتح بعد.

- يا جاويش رستم.. قلم آخر.. جاف.. أخضر، يا له من لون..

- يا جاويش رستم.. قلم يساوي ثمنه مائة ليرة.. ما زال في علبته.

أمام الجاويش رستم وعاء ماء، يقلب القلم المجلوب إليه، ثم يغسله بالماء والصابون.

أصر الجاويش رستم على اقتسام الأقلام بين الزبالين، لكنه لم يستطع إقناعهم. لديه ولدان يتعلمان، سيصبحان من السادة والسيدات، لهذا، فإن كل ما يجدونه من الأقلام، حتى لو بلغت الآلاف فهي لطفلي الجاويش رستم.

يشعر الزبالون بمنتهى السعادة والفرح عندما يعطون الأقلام للجاويش رستم. إعطاء القلم للجاويش رستم كأنه تحقيق نصر كبير، أو إنجاز عمل عظيم. كان كل منهم يشعر بسعادة لمساعدة طفلين سيصبحان إنسانين جيدين، ومسؤولين، وليس زبالين. هذا ما يقرأ في عيونهم بشكل واضح، والجاويش رستم لا يعطي لنفسه الحق بحرمانهم

من هذه السعادة. والأقلام من أهم ألعاب الأطفال. كان يعود إلى بيته كل مساء بمختلف الأشكال من الأقلام، ويتراهن الولد والبنت والأم على عدد الأقلام التي سيجلبها الأب كل يوم، ودائما يجدون أن عدد الأقلام إما مساويا أو قريبا إلى توقع البنت.

البنت هذا العام في الصف الخامس الابتدائي. يخفي الجاويش رستم فخره واعتزازه بالبنت عن الجميع، وهو يثق بها ولا يظهر هذا لأحد. لدى تلاميذ المدرسة كل ما يحتاجون.. ملابسهم رائعة، وحقائبهم جميلة، ولديهم سيارات خاصة تأخذهم من أمام المدرسة، ولكن لم يكن عند أحدهم أقلام بعدد أقلام البنت، حتى من لدى آبائهم دكاكين أقلام. كانت تفخر بأقلامها بلا حدود. كلما فكرت فيها تبرق عيناها. ويلمع خداها بلون زهري.. لا أحد يعلم أن لديها كل هذه الأقلام. وهذا هو همها.. لو جلبتها إلى المدرسة، لأكل الأولاد أصابعهم من الدهشة.. كان لديها ألف قلم بألف لون.. الأحمر، والأبيض، والأسود، والأزرق، والبرتقالي.. لو جمعتها لشكلت تلة من الألوان.. حقيقة إنها تلة من الأقلام. إنها تريد أن تأخذها إلى المدرسة، ولكن ماذا يحدث لو سألها الأولاد عن مصدرها؟ ماذا يمكنها أن تقول؟ لا تستطيع القول: إن أباها رئيس الزبالين، جمعها من القمامة. لا تستطيع أن تقول هذا ولو ذبحوها. كيف تقول هذا؟ ولكن يجب أن تأتي بها.. يجب أن تريها لأصدقائها.

فكرت في هذا طويلا، فما وجدت حلا. لو قالت أبي اشتراها لي لما صدقها أحد. حتى أصحاب الملايين لا يشترون لأولادهم كل هذا العدد من الأقلام الجميلة. آه.. لابد من جلب هذه الأقلام إلى المدرسة لتريها للأولاد. يجب أن تجد مخرجا لهذا الأمر. صممت على هذا، ولم تعد تستطيع نزعه من رأسها. في أحد الأيام ملأت حقيبتها بالأقلام،

وأخذتها إلى المدرسة، جن جنونها لفرط رغبتها أن تريها للأولاد. ولكن مع الأسف لم تستطع أن تريها لأحد. على مدى أسبوع وهي تكتوي بنار تشوقها لأن تريها لأصدقائها، لكنها لم تفعل. لعلها كانت ستنسى الأمر هذا العام أيضا لولا أن التقت جارهم (إرول)، الذي يعمل في مكتبة ضخمة في منطقة (العثمانية). أخذت منه دفترا. ثمة أقلام كثيرة في محل عمله.. آه لو كان إرول هذا قريبها.. ابن خالها مثلا.. ما أجمل هذا؟.. كان من الممكن أن تقول: «أهداني هذه الأقلام ابن خالي إرول». فكرت في إرول حتى منتصف تلك الليلة.

عندما ذهبت إلى المدرسة صباحا ملأت حقيبتها بالأقلام، وعرضتها أولا على زميلتها في المقعد (صباحات).. لدى والد صباحات دكان صياغة في السوق المغلق، مليء بالذهب والأساور.. ولكن لم يكن لدى صباحات هذا العدد من الأقلام..

- آآآ.. من أين لك كل هذه الأقلام؟

أجابت نرمين دون اكتراث.

- إرول جلبها لي.. كل مساء يجلب لي أقلاما. لدى إرول مخزن مليء بالأقلام في حي (بايزيد).. أتعرفين إرول من يكون لي؟.. إنه ابن خالي. لم يتزوج بعد.

هرعت صباحات إلى بقية الأولاد قائلة:

- عند نرمين أقلام كثيرة.. بهذا القدر.. عندها.. عندها ألف قلم.. لتعم عيني إذا كنت أكذب.

تراكض الأولاد نحو نرمين. حقيقة كان لديها مزيد من الأقلام. قالت صباحات.

- إنها من ابن خالها.. لم يتزوج بعد.. لديه دكان ضخم في بايزيد لا يوجد فيه سوى الأقلام. سنذهب كل يوم إليه ويعطينا أقلاماً.

سرت نرمين من صباحات كثيرا، واختارت خمسة أو ستة أقلام، وقالت:

- أرسل إرول هذه الأقلام لك.. قال لي: اعطيها لصباحات. حدثته عنك كثيرا، وقلت له إنك أفضل صديقاتي.

قالت صباحات ضاحكة:

- أعرف.. شكرا لك..

رن الجرس، وملأت نرمين حقيبتها بالأقلام أمام دهشة الجميع. دخلوا إلى الصف.. أصبحت أفضل من الجميع.. امتلأت وفاضت فرحاً.

بعد هذا أصبحت تذهب كل يوم إلى المدرسة بحقيبة مليئة بالأقلام. كانت توزع أقلاما على الجميع. أصبحت أختا لكل التلاميذ. لم يشتر الأولاد أقلاما من السوق؟ إرول يجلب لها الكثير، وهي تعطي للجميع. كان لديها أقلام لو وزعتها على جميع تلاميذ المدرسة، لظل عندها الكثير.

استمرت فرحة نرمين حتى انفجرت هذه القضية القذرة.

أتعرفون ذاك القصير زهدي الغبي، أفطس الأنف ابن السمان؟ هو الذي خرب كل شيء. إنه كاذب خنزير. لو نظرت إلى وجهه لأوشكت على التقيؤ، وما استطعت الأكل لمدة أربعين يوما.. كل ما حدث بسببه.

وقف أمام المعلم، وقال:

- والله، والله يا أستاذ.. والله، بالله.. ليميتني الله إن كنت أكذب.. نرمين سرقت قلمي.. رأيته بين أقلامها.. إنه قلم أخضر، وقد علمته بحزّين، ورأيته معها.

نادى المعلم نرمين، وطلب إليها فتح الحقيبة.. دهش المعلم لهذا العدد من الأقلام.

ارتمى زهدي فوق الأقلام. أخذ قلمه، وقال:

- هذا هو يا أستاذ.

سأل المعلم نرمين بصرامة:

- من أين لك كل هذه الأقلام؟

كانت نرمين جاهزة للإجابة. قالت:

- أعطاها لي إرول، وعندي في البيت القدر نفسه منها.

نظر المعلم إليها نظرة مكر، وقال:

- اذهبي، واحضري بقية الأقلام من البيت!

ثم قال لزهدي:

- اعط القلم لنرمين.

- ولكن يا أستاذ، يا أستاذ..

- اعطها القلم!

أخذ القلم من يده، وأعاده لنرمين.. أعادت نرمين الأقلام إلى حقيبتها، وركضت نحو البيت.

ناداها المعلم قائلا:

- اتركي المحفظة هنا!

عادت نرمين، وتركت المحفظة على الطاولة، وهرعت نحو البيت، وملأت حقيبة قماشية بالأقلام، وأسرعت عائدة إلى المدرسة.

- ها هي يا أستاذ.

قال المعلم:

- اذهبي الآن إلى صفك.

ذهب المعلم إلى المدير وشرح له الوضع بتفصيل. تجول المدير على صفوف المدرسة كلها، وأذاع على التلاميذ: «من أضاع، أو سرق له قلم، فليأت إلي بعد الانصراف».

بعد عدة ساعات، تجمع التلاميذ أمام الإدارة. نصف تلاميذ المدرسة قد سرقت أقلامهم، أو ضاعت.

يقول المدير: «صف لي قلمك المسروق!» يصف التلميذ قلمه، يخرجه المدير من بين الأقلام، ويعيده له. وهكذا أعاد المدير أقلام مجموعة كبيرة من التلاميذ. الأطفال لا يكذبون. الأقلام فعلا كانت لهم.

- قولي كيف سرقت كل هذه الأقلام؟

- لم أسرقها.

- سأعفو عنك لو قلت الحقيقة يا بنتي.

- لم أسرقها.

- لو كان إرول هذا مليونيرا، فلا يعطيك كل هذه الأقلام. لنقل أنه أعطاك خمسة أو عشرة أقلام.. ولكن، مئات الأقلام؟

- أعطاها لي إرول. دكانه مليء بالأقلام.

بعد تحقيق طويل. عندما لم يستطع المدير سحب الحقيقة من لسان البنت، قال:

- اذهبي، واحضري أباك أو أمك.

عادت نرمين إلى البيت، ارتمت على سريرها وهي تبكي. تحولت عيناها إلى وعائين من الدم. الأم تحاول استجوابها بقلق. والبنت لا تستطيع الإجابة لفرط نحيبها. عندما هدأت قليلا شرحت لأمها ما جرى. عاد الأب مساءً يخرج الأقلام مرة أخرى. قذفت نرمين الأقلام بكل قوتها إلى الشارع. شرحت له الأم ما حدث لابنتها وهي تبكي. كانت نرمين تصرخ بأقصى قوتها متوسلة:

- أرجوكما لا تقولا إن الأقلام من الزبالة. قولا إن إرول أعطاها لي.

- لن يصدقوا.

- غير مهم، وهل جمع الأقلام من الزبالة أفضل من سرقتها؟

استغرق الجدال بين البنت من جهة، والأب والأم من جهة أخرى إلى منتصف الليل. نرمين تقول:

- إذا قلتما إن الأقلام من المزبلة سأموّت نفسي.

الجاويش رستم يعرف أولاده جيدا. من الممكن أن تنتحر ابنته. قال لها:

- معك حق يابنتي. سأقول لهم في المدرسة إن ابن خالك إرول أعطاك إياها.

شرح الجاويش رستم للمعلم، والمدير، عندما ذهب مع ابنته صباح اليوم التالي عن إرول، وشهامته، وكرمه. طلب المدير عنوان دكان إرول. دهش الأب وابنته. أخيرا، كتب الجاويش رستم عنوانا غير معروف وأعطاه للمدير، ثم ذهب من المدرسة.

انتهى التحقيق. أدينت نرمين بسرقة الأقلام. ولهذا فصلت من المدرسة.

سمعتُ بهذه القصة بعد مدة طويلة. هرعت إلى بيت الجاويش رستم فلم أجد أحدا. ترددت إلى البيت أسبوعا. كان جدار البيت وبابه متشابهان. بعد ستة أشهر، عندما انتقلت إلى حي آخر، كان البيت مغلقا.. وقد داس الأطفال بأقدامهم الحديقة، وقلعوا الأصص من النوافذ.

أنا أعرف المزابل جيدا بواسطة الجاويش رستم. المزابل مرايا المدن.. إذا كانت المدن تعج بالقذارة، والسفالة، والغدر، والقسوة، فالرائحة التي تعج من مزابلها أقذر ألف مرة.. مثل الجيف.. وتحط طيور النورس على مزابل اسطنبول، فتشكل فوقها ستارة بيضاء.. ولا تعد ترى المزابل بسببها.. آه.. ويمكن إيجاد أقلام ملونة في مزابل اسطنبول.. حتى إنه وجد في بعض المرات خواتم ذهبية..

زيات سليم أوغلو

(ولد في اسطنبول العام ١٩٢٢)

درس في الثانوية الألمانية، وكلية الحقوق جامعة اسطنبول، وتخرج فيها، ثم عمل شريكا في إدارة شركة بحرية.

متفرغ الآن للكتابة والترجمة. شق طريق النجاح من خلال زاويته الصحافية: «من قرى مدينة ريزة» التي نشرها بين العامين ١٩٤٩-١٩٥٠ في جريدة الجمهورية، ونال عنها جائزة يونس نادي الأولى.

اشتهر من خلال قصصه، وترجماته عن الألمانية، وتمثيلياته الإذاعية، إذ نال جائزة مؤسسة الإذاعة والتلفزيون التركية عن عمله: «نقطتان في البحر».

ولأنه عمل في شركة بحرية، فقد أعطى حيزا واسعا من قصصه لحياة البحارة، وتصرفاتهم، بأسلوب بسيط، وهي: «نهاية العراك وبدايته ١٩٥٥»، «رجل في أعلى الساري ١٩٦٦» ونال عنهما جائزة سعيد فائق للقصة العام ١٩٧٠، «اجتماع في مؤخرة السفينة ١٩٧١»، «نقطتان في بحر واسع ١٩٧٣» وقد نال عنهما جائزة مجمع اللغة التركية للقصة العام ١٩٧٤، «طغى البحر على البر ١٩٧٥» «الزلزال ١٩٧٦ - قصة طويلة»، «العراة ١٩٨٠»، «زقاق الجبل المزهر ١٩٨٢»، «رجال البحر ١٩٨٤ - وتضم المجموعة الكاملة لقصص البحر»، «كان كأغنية ١٩٨٧».

نشر رواية واحدة بعنوان «زوايا التعصب ١٩٨٢»، ومنذ العام ١٩٦٦ حتى العام ١٩٧٧ قدم عشرين عملا مترجما.

نشر عدة كتب للأطفال: «الزورق الصغير ١٩٧٩»، «جزيرة النوارس ١٩٧٩»، «نوري اللامتأقلم ١٩٨١».

عشق محمود الفسفس

غالبا ما يمثل هذا المشهد بعد طعام العشاء.. كنا نجتمع حول الطاولة أربعة أو خمسة أشخاص. يجلس الريس محمد على مقعد القائد الرئيسي من الطاولة، وعلى بقية المقاعد يجلس الريس خضر والضابط البحري المتقاعد مسؤول التشغيل في السفينة السيد حسين، وأوهانس، وأنا.. ألا يوجد على ولائم القادة مقاعد مخصصة لضيوف الشرف؟.. كان ينضم إلى هذه المائدة في بعض الأحيان زكي مسؤول اللاسلكي.. وزكي هذا ضيف الشرف. ونحن لسنا في مركب لنقل الفحم، بل على سفينة حازت شريطة الملكة ماري الزرقاء، وجلسنا إلى المائدة محتفلين بهذا النصر. بعد أن يأكل الريس محمد نصف الدجاجة التي يمسكها من فخذها بيده، وينقض عليها بأسنانه الحادة كالذئب، يلتفت إلى محمود الفسفس لاهثا، ويقول ناهراً:

- أين المنشفة» هات المنشفة يا ديوث!

أثناء سيلان الدهون من أسفل ذقن الريس محمد الضخمة، يمد له محمود الفسفس منشفة كانت على ذراعه، تغيرت ملامحها من القذارة، اسودت، وامتصت ألف رائحة طعام، ورائحة، ويقول:

- تفضل ياسيدي.

بحركة واحدة ، تجوب المنشفة حول فم الريس محمد جارفة الدهون الموجودة، وتاركة دهونها ، وهنا تسنح فرصة تعليقه على محمود الفسفس:

- ما هذه المنشفة؟

هنا يضحك الريس خضر بصمت، ويسدد في الهدف:

....

عندئذ يحمر وجه الضابط البحري المتقاعد مسؤول التشغيل:

- آه، آه.. أستغفر الله يا سيدي!

ولكن ما فائدة الاستغفار الآن، المسرحية بدأت، والستارة رفعت، وهنا يفجر الريس محمد ضحكة تشبه مدفع الإفطار، ويقول:

- ماهذا ياسيد حسين؟ أخجلت؟

ثم يشير إلى الخمر المتبقي في قعر الزجاجة، ويقول لمحمود الفسفس:

- محمود.. هيا احك لنا عن روزا، كيف كانت تحب؟ هيا احك لنا!

وهنا يتجعد ما حول عيني محمود الفسفس الزرقاوين، البريئتين، ويقول مبتسما:

- ألا تملون من سماعها ياسيدي.. أنا مللت. فكيف أنتم؟ كم مرة حكيناها؟

يرفع الريس محمد زجاجة الخمر نحو محمود الفسفس كأنه يريد ضربه، لكن محمود لا يتحرك ويقول:

- أنت لا تستطيع ضربي ياسيدي. إنك تحبني كثيرا. أنا أعرف هذا.

وهنا ينظر الريس محمد نظرة ذات مغزى، ويقول:

- حسن. هل كانت تحبك روزا؟

- آه. أمن الممكن ألا تحبني. كانت مجنونة بحبي، تجن من أجلي، تجن..

- إذن لماذا كانت تضربك ياديوث؟ قل لماذا كانت ترفسك؟

- هذا أمر آخر. المرأة ترفس الرجل لفرط حبها له. روزا كانت تحبني، ولا تستطيع العيش من دوني.

هذه المرة، الريس خضر هو الذي يسدد في الهدف:

- يبدو أنك تقصد البغلة بكلمة امرأة..

- روزا تحبني.. وكنت أدرك مدى حبها لي من رفستها على ظهري..

هنا يحملق الريس محمد بدهشة:

- ما هذا العشق؟ تضربك المرأة وتقول تعشقك؟

هنا يهز محمود الفسفس رأسه موافقا بعناد، ويقول:

- وهل يوجد عشق دون ضرب وعراك ياسيدي؟ الضرب هو ملح وبهار العشق.. آه ياروزا.

- حسن.. اضربها أنت! وهل ستبقى أنت المضروب؟

عندئذ ينفخ محمود الفسفس نفسه منتصبا على ساقين رفيعتين مثل الديك، ويقول:

- نحن رجال ياسيدي. الرجل لا يرفع يده على امرأة، وهذا شرط الرجولة..

يحاول الريس خضر التسديد بشكل مباشر نحو محمود الفسفس:

- اسمع مفهومه عن الرجولة!... تضربك امرأة، وتعتبر هذا شرط الرجولة.

عندئذ يشيح محمود الفسفس بوجهه الشاحب عنهما نحونا، ويقلب شفتيه مبديا تعابير مختلفة، كأنه يريد أن يقول لنا: «لا يفهمون بهذه الأمور». يوهانس وأنا أصغر سنا، لذلك يعتبرنا أقرب إلى قضايا العشق. ونحن ننظر إلى وجهه مبدين تعابير بمعنى: «لا تهتم، لا تهتم، نحن نفهمك جيدا».. وفي تلك الأثناء، وهو على وشك إغلاق الموضوع، يفتحه مرة أخرى.

إثر هذا يغضب الريس خضر، ويقول:

- ما شرط الرجولة هذا؟

ويهز محمود الفسفس كتفيه، ثم يأتي دور الريس محمد بالغضب. يمسك طرفي الطاولة بيديه القويتين ويصرخ قائلا:

- اسمع، تضربه امرأة ويعتبر هذا رجولة. المرأة تسر للرجل المتوحش، للذي يحملها بين ذراعه ويرطمها بالأرض، للرجل الذي إذا نطق الكاف من كلمة «كفى» تجمدت مكانها، يا ديوث...

أجاب محمود الفسفس ببرود أعصاب بالغ:

- النساء اللواتي تتحدث عنهن، لا يثقن بأنفسهن. يجدن قوة الرجل وسيلة يبررن بها ضعفهن.

يلتفت الريس خضر إلى محمود الفسفس، وكأنه يريد أكله:

- وهل ستعرف أنت أكثر من الريان؟

بعد سكوت طويل، ولكي لا ينظر إليه باستصغار، تدخل مسؤول تشغيل السفينة الضابط البحري المتقاعد، وبدأ الكلام بأدب:

- المحبة تفاهم متبادل. على الرجل والمرأة أن يحترم كل منهما الآخر، وعلى كل منهما ألا يجرح شعور الآخر. نحن هكذا تعلمنا الحب. هذا ما أعرفه أنا، وأقوله.

يدور الحديث، ويعود إلى موضوع عشق محمود الفسفس، ويتأوه قائلا:

- يالروزا من امرأة.. كل جزء من جسدها كأنه امرأة مختلفة.. عيناها، يداها، كتفاها،.. لا يمكن أن يرى مثلها.

يرد عليه هنا الريس خضر:

- ولا يمكن أن يُرى رجل مثلك!

- لروزا مشية، يا لها من مشية، كأنها مهرة تستعرض قبل السباق.. كيف تقترب السفينة من الرصيف، ويقترب الرصيف من السفينة ببطء عند الرسو.. هكذا كانت تتهادى روزا بمشيتها. عندما كنت أطرق بابها، أشعر بنفسي كمهر اشتم رائحة مهرة.. هذه هي الحياة.. يا لعينيها ومشيتها.. أنا فداؤك ياروزا.. يا لمشيتك!.

- انتبه كي لا تتعثر!

عندما كان يصل محمود الفسفس إلى هنا، يرمق الجالسين إلى الطاولة بنظرات تحمل معاني مثل: «من أين لكم فهم النساء أنتم؟»، «وهل عرف أحدكم في حياته امرأة حقيقية؟»، وفي هذه اللحظة تبدو

على وجهه الطفولي، على الرغم من عمره البالغ خمسين عاما. رعشة شوقٍ، وتغرورق عيناه، وكأنهما ستدمعان. ويتابع الحديث بلطف أكثر:

- كان لدى روزا ثوب نوم وردي، مطرز بالحرير، وفي قدميها (صندل) متلامع. شعرها براق. كانت تقابلني عندما أتوقف قليلا عند الباب بقولها: «أتى محمودي». أشعر عندئذ بأن دمي يتدفق بسرعة أكبر. كنت أجيبها: «أتيت ياروزا. أتيت من جديد. أتى محمودك ياروزا..» وأدخل.

وهنا لا يستطيع الريس خضر دون أن يتكلم:

- محمود يدخل من باب، وعثمان يخرج من باب آخر..

الريس محمد لا يمرر هذه الجملة، يغتنم الفرصة، ويلتفت إلى الريس خضر مفتعلا ملامح الاستغراب:

- أتقول شيئا؟ ماذا قلت؟ وهل بيت روزا لوحة إشارة للدخول والخروج؟.. يامحمود! ماذا يقول الريس؟ ماذا يقصد بكلامه؟ أنا لم أفهم المقصد من عبارة: «هذا يدخل، وذاك يخرج»؟ كيف؟ كأن محمود الفسفس لم يكن موجودا، تابع كلامه، وكأنه لم يسمع:

- كانت تطفح عيناها بالفرح عندما تراني أمامها. تبرق عيناها السوداوان كالفحم، وشعرها أيضا فاحم وكذلك حاجباها. عندما أقترب منها أرى بوضوح كيف يتحرك جانبا أنفها. آه ياروزا.. أي امرأة أنت ياروزا.. لا يمكن أن يخلق مثلك ياروزا.. عندما يقترب منها الرجل، أو يلمسها من كتفها، أو يمسكها من ذراعيها، يبدأ الارتجاف كقلوع تعبث بها الرياح.

قاطعه الريس خضر قائلا:

- خاصة إذا كان الرجل مثلك..

- آه ياروزا.. يالك من امرأة. عندما كنت أمسكك من ذراعيك كنت ترتجفين، لماذا ترتجفين؟ كانت تقول: «كيف لا أرتجف يا محمودي.. أتى نِمري.. إذا لم أرتجف، ماذا أفعل؟».

يقاطعه هنا الريس خضر مرة أخرى:

- هيه.. ياصغيري... انظر إلى النمر كأنه قط صغير.

-.. كانت تقول لي: «يا محمودي.. ماذا جلبت لي معك؟ أي الأشياء الحلوة جلبتها لي؟» كنت أجيبها: «روزا.. ليكن محمود فداك.. خذي، خذي..» وأخرج ما في جيبي من جوارب، وعطر، وربطات شعر.. «خذي، خذي.. كل هذا لك، كل هذا لروزاي.. أتريدين نقودا؟ هل تحتاجين نقودا؟ خذي إن كنت تريدين.. خذي.. خذي..».

فقير بايقورت

ولد في مدينة بوردور العام ١٩٢٩

تخرج في معهد إعداد المعلمين العام ١٩٤٨، وعمل في التعليم الابتدائي فترة خمس سنوات، ثم انتقل إلى التعليم في المرحلة المتوسطة، وبعدها إلى التفتيش، وشغل منصب رئيس نقابة المعلمين في تركيا، ورئيس رابطة المعلمين أيضا. يعيش الآن في ألمانيا.

بدأ كتابة الشعر وهو لا يزال طالبا في المعهد، ونشره باسم مستعار، ثم انتقل لكتابة القصة والرواية.

يعتبر فقير بايقورت من الكتاب الواقعيين التقدميين من خلال التزامه بمقولته: «الفن هو تقديم قضية الريف الذي عشت فيه، مع أخذ السوية الفنية بعين الاعتبار، ومهمة مساعدة الإنسان / القارئ على القفز إلى الأمام، ولو قليلاً».

نفدت كتبه من الأسواق، وأعيدت طباعتها عدة مرات. من مجموعاته القصصية: «الجدري ١٩٥٥»، «هرب السادة ١٩٥٩»، «ألم البطن ١٩٦١»، «محمد القزم ١٩٦٤»، «جراج الأناضول ١٩٧٠»، «عشرات الآلاف من العربات ١٩٧١»، «الوردية الليلية ١٩٨٢».

له العديد من الروايات، وقصص الأطفال، والكتب التعليمية، والسير الشعبية.

نال العديد من الجوائز في جميع مجالات الكتابة - عدا الشعر - ومنها أهم الجوائز التي تمنح للقصة في تركيا.

الولد سنجاب

لم يجد سنجاب والده في البيت. كانت أمه تخبز. قاد الغنم إلى الحظيرة، وصعد خلف المقود. كانت الخرزات المعلقة في الشاحنة تتأرجح. صورة أبيه المنزوعة من وثيقة ما، محفوظة في حافظة، ومثبتة بجانب المرآة الأمامية. بماذا سيفتح التماس؟ بحث هنا وهناك. لا يعرف تشغيل الشاحنة من دون مفتاح. وبما أن الشاحنة أمام البيت، فهذا يعني أن والده ذهب لسقاية الفاصولياء في وادي التفاح.

نادته أمه: «تعال كل خبزا. سيأتي أبوك بعد قليل. ذهب إلى السقاية على الرغم من مرضه، لأنه سيفقد دوره إذا لم يذهب. تعال، سأدهنها لك بالسمن».

كانت أمه تقرقع بالأغراض فوق السقيفة من أجل جلب السمنة. إنها الفرصة المناسبة. قفز فورا، ومد يده إلى جيب سترته الجلدية، وتناول مجموعة من المفاتيح، ودسها في حزامه. أتت أمه حاملة السمنة بملعقة خشبية. فتحت قطعة العجين بشكل عشوائي، ورمتها فوق (الصاج)، ودهنتها بالسمنة ثم اقتلعتها خبزة ناضجة، محمرة، وألقتها فوق الأرغفة قائلة: «لا بد أنك جعت، تعال كل».

تناول سنجاب الرغيف المدهون بالسمنة قبل أن يبرد، ولفه، وأدخله إلى فمه. انهمر الدمع من عينيه. لم يهتم. كان مصمما. سيقود الشاحنة من القرية نحو الأحراش، ثم سيصعد التل عبر الحقول المحروثة. كان يخطط ليكون سائقا سريعا حاذقا (كخليل ضوغان)، وليس متأنيا صبورا كأبيه. سيطيِّرها. كان والده الذكي ينصحه قائلا: «عليك ألا

تصبح سائقا. كن راعيا»، وهو مصمم ألا يكون راعيا. مشى والرغيف بالسمنة مازال نصفه.

- قف! قف لأعمل لك رغيفا آخر. إلى أين أنت ذاهب؟

لم يصغ لأمه. نزل الدرج. صعد خلف المقود. جرب المفاتيح حتى طابق أحدها. أداره بسرعة. لم يقرقع المحرك كثيرا. كان يعرف الفاصل، والفرامل، والزيت... والمسرّع إلى الأمام، والخلف... واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة.. انطلق بسرعة. وبلمح البصر، أدار المقود، وسار عبر القرية، صرخ في سره: «يابنات، أين أنتن؟ أين أنتن أيتها النعاج الرضيعات؟ أيتها المغرورات، والثرثارات !» ضغط على البوق كي يهرب الأطفال من أمام العجلات. مر كالريح من أمام بيوت (إلياس الأعور»، و (أوليا قاضي)، و(مصطفى). وبلحظة نزل صوب الأحراش. إذا كان وهو طفل بهذا العمر يقود شاحنة ضخمة كهذه، فلِمَ يضحي بحياته في الرعي؟ أيمكن لطفل في صدر شاحنة ضخمة يسيطر على محرك هائل، أن يكون راعيا يسرح بالغنم؟ ثمة نساء في حديقة الورد الغربية .. ومجموعة من الفتيات في حقول اليانسون .. ضغط على البوق.. ضغط، ضغط.. جعل المكان يرتجف من الصوت.

عاد من جانب حقل المهاجر. ماذا سيحدث لو ذهب أبعد من هذا؟ في الحقيقة كان يود الاستمرار أكثر، ولكنه أصبح قريبا من وادي التفاح حيث والده يسقي الفاصولياء. سيسمع صوت البوق، ويهرع لرؤية السائق الخبير. لو سمع صوت شاحنته من خلف الجبال لعرفها. عاد سنجاب بمهارة فائقة. كان يسير وهو يرتفع وينخفض وكأنه على ظهر حمار من دون سرج. قاد الشاحنة بانفعال شديد. انعطف من بين الأحراش، تحت أعشاش اللقالق داخلا القرية. أتت عربة أمامه ووقفت.

كان عليه أن ينحرف بسيارته كي لا يصدمها، لكنه كان مسرعا جدا. أمه تنادي من فوق الدرج:

- ماذا تفعل يا سنجاب؟ وهل هذا العمل صحيح؟

لعله انحرف بالسيارة فجأة، وبقوة، أو أنه بدلا من الضغط على الفرامل، ضغط على الوقود. قفزت الشاحنة إلى الأمام كالبرق. لحظة ولوج الشاحنة في بيت (إبراهيم خليل القرش) القرميدي، هي اللحظة نفسها التي أزيل البيت عن الوجود فيها. كان جدار البيت الرئيسي متصدعا تحت تأثير المطر، والعمر، ولأنه رئيسيا سيتحمل كثيرا من التصدع عبر الزمن. ولكن كيف يقاوم شاحنة منقضة بأقصى سرعة كالنسر؟ انفتح الجدار كأنه باب ذو مصراعين، ودخلت الشاحنة منه إلى البيت، عبرت مستودع التبن من وسطه، ثم خرجت من زريبة البقر، ثم وصلت إلى الداخل عبر صحن الدار، ووقفت أمام باب غرفة جلوسهم. لم تترك جدارا، أو عمودا منتصبا في الأماكن التي عبرت منها. فكت حتى مساميرها. خلطت كل شيء. لم يبق فيها مصباح، أو زجاج، أو خرز، تصدعت المرآة، ومؤشرا السرعة والوقود. تعطلت بشكل كامل. المحرك - بارك الله فيه - وقف تلقائيا. لأنه من غير الممكن لسنجاب أن يوقفه.

لم ترتكب زوجة إبراهيم القرش ذنبا في حياتها. في البداية ظنت أن هزة أرضية قد حدثت، ثم خطر ببالها أن نهاية الدنيا قد حلت، وتهدمت القرية، ولكن عندما وجدت شاحنة (سليم القولاقجي) على مسافة شعرة منها، لم تعد تشعر بأنها ستغيب عن الوعي. أدركت ما حدث عندما رأت سنجاب يقودها. استجمعت قواها.. «واخ يامجنون الحمير! أخذت الشاحنة دون علم أبيك، أليس كذلك؟ خربت بيتي..

شردت أطفالي.. آهٍ ليمحق الله كل من يدعى سنجاب لأجلك!». ولكن بعد قليل لاحظت وجود خدوش، وكدمات في رقبته وساعديه، وأن جبهته مدماةَ، وقد شحب لونه، وأصبح كلون تبن الشعير. كان يرتجف. تألمت له. قفزت نحو مقبض الباب الأيسر، وفتحته وسحبت الولد. أخرجته، وقالت:

- تعال يا صغيري، تعال عندي، قف! لا تفلت بسرعة!..

كان الماء فاترا لتركه تحت أشعة الشمس طوال النهار. غسلت يديه، ووجهه، وسقته... «إن شاء الله أطرافك سليمة! أنت شقي لكنك جريء. كم أحبك من بين أولاد القرية! عندي ثلاثة أولاد، لو كان عندي بنت لزوجتك إياها. ولكن ثلاثة أولاد كالحطب.. سرقتها دون علم أبيك، أليس كذلك؟ ألم يكن في البيت؟ هل ذهب إلى السقاية؟

سنجاب لا ينبس. كان ينظر أمامه بخجل عميق، وهو ساكت. كان لايعرف ما الذي سيفعله، وإلى أين سيهرب، لأن والده سيذبحه، ويفرم لحمه. هذه الشاحنة مصدر خبز البيت. من يعلم كم من المئات أو الألوف تضررت. أين قطع التبديل، والمصلحون، والمصفحون، والدهانون؟

فجأة غدت القرية كيوم الحشر.

- شاحنة ضخمة دخلت إلى البيت.

- دخلت مباشرة.

- على الرغم من كل شيء فهو سائق ماهر.

- إنه على قول الأجداد: «الولد يُعرف من مناغاته»

- أنا فداء روحه. والله أنا فداء روحه.

أتى البعض راكضين مثنى، وثلاث. طفح المكان بالبشر أمام بيت خليل إبراهيم القرش. ينظرون إلى الخراب، ثم يدورون حول الشاحنة، وينحنون على سنجاب قائلين: «حمدا لله على سلامتك ياكبير السائقين!» أصبح صحن الدار طريقا للذاهب والآيب.

قالت زوجة القرش: «لا تتجمعوا ياناس. أليس لديكم عمل. حتى الذين يعملون دورة قيادة، وينجحون في فحص السائقين يعملون حوادث! ألم يعمل (كريم ماجر) حادثا؟ و(إسماعيل قالندر)، حتى (إسماعيل القولاقجي) ألم يعمل حادثا؟ اقطعوا الضحك، وانصرفوا من فوق الولد كي يصحو...».

بدأ يتفرق الجمع مثنى وفرادى. أتت (ملك غلدانة) أم سنجاب نادبة نفسها: «تفوه، تفوه! إلى أين أذهب، ومن سأقصد؟ شاحنة بهذا الحجم تخطفها بلمح البصر. آه يابني. كُتب علي رؤية ما جرى يا سبعي؟ عندما سيأتي أبوك سيذبحني. سيسحقني تحت رجليه، ويهينني شر إهانة وسط القرية. لماذا فعلت هذا يا سبعي؟».

- اسكتي يا غلدانة! قولي هذا قبل الحادث. ابكي بكاءك قبل وقوع ما وقع! اسكتي، لا حلَّ لما فات ومات... ليتفرق الزحام، وخذي ابنك، اخفيه في مكان ما. أخشى أن يميته أبوه بطلق ناري تحت تأثير الغضب.. عندما يهدأ غضبه تسحبون الشاحنة من أمام بيتي. خليل إبراهيم سيذبحني أيضا. سيقول لي: «لماذا لم تنتبهي للبيت وتركته يهدم؟» إحضار القرميد أو الأحجار، وجلب معمار من الناحية لرفع الأعمدة المهدمة قضية. نظفوا بيتي ، وأصلحوه بسرعة؟ هيا، هيا ياناس، تفرقوا! قلت تفرقوا، ألم تسمعوا؟

تفرق الجمع وكل فرد منهم يضرب يدا على يد قائلا: «في الحقيقة

إنه سائق ماهر! قلب الحائط على الأرض. ضغط على الوقود، فدخل من طرف، وخرج من طرف، وجعل زوجة القرش تقف له باستعداد».

حاول سنجاب الجلوس إلى المقود، وإدارة السيارة مرة أخرى، ولكن لم يتركوه. سحبت (ملك غلدانة) ابنها وذهبت. عندما وصلت إلى البيت غسلت يدي ابنها، ووجهه، وهو يرتجف كأنه مصاب بالحمى. كاد يموت من الندم. لو أنه عندما رأى عربة الحطب قد أخذ يمينه، وانتظر مرورها، ما الذي كان سيحدث؟ الآن يأتي أبوه، ويضربه دون وعي، وهو يقول له: «هل آلمك هذا؟ أتريد المزيد؟».

لو يهرب إلى البستان، وينام هذه الليلة هناك؟ أو يذهب إلى بيت خالته، لو يدفن نفسه بالأكياس؟

- قف، قف! لا ترتجف، سآخذك إلى بيت خالتك..

البركة بأمه لا تعذبه، ولا تقول له: «لماذا أخذت الشاحنة، ولماذا صدمتها؟».

مسكت (غلدانة) ابنها من يده، واصطحبته إلى بيت أختها. كانت زوجة ابنهم زكية في البيت، والبقية في الحصاد. زكية بقيت ترعى ابنها المريض. قالت لها:

- لو أتى عمك لذبحه، أرجوك خبئيه عندكم! أخذ الشاحنة، وذهب ليتنزه بها، فدخل في بيت آل القرش. الرجل لم يعد يدري، أيحزن على هدم بيته، أم على تكسير الشاحنة، أم على ما سيفعله سليم وهو غاضب؟ أنا سيضربني ويقول لي: «أين كنت؟ وهل أنت راعية حمير؟ لماذا لم تحرسيه ولم تمنعيه؟» يجب ألا يضربه. أرجوك يا زكية خبئيه عندكم..

تركته، وذهبت تنتظر مجيء زوجها ليضربها. ولأنها حفظت ما تناله في حالات مشابهة جيدا، أخرجت قديم ثيابها من الصندوق، ولبسته، كي لا تؤلمها كثيرا ضربات العصي..

سمع سليم القولاقجي بما حدث عندما وصل إلى جانب حقل المهاجرين. هرع فورا. سيضرب زوجته. زوجته فقط، لأن كل الذنب يقع على عاتقها. مشى وهو يشتم. لماذا لم تنتبه إلى ابنها؟ لماذا لم تمنعه؟ لماذا لم تقل له: «قف! واقعد عاقلا!» لو تركت ولدا بحجم الكف على هواه، سيتناول البندقية ويطلق النار على الناس. لماذا لم تتنبه له؟ وصل إلى بستان الورد الغربي. فجأة قال لنفسه: «ولكن ما ذنب المرأة؟ كل الحق على السافل سنجاب. من يدري كيف تحايل عليها وسرق المفتاح؟ وعندما أخذه، قفز إلى الباب، وجلس إلى المقود؟ وداس على الوقود. الذنب ذنب الولد. هذا الذي أعرفه».

وصل إلى القرية. رأى دار آل القرش وكأنها حليب سفح على الأرض، والشاحنة قطة تلعقه، فازداد غضبه مائة ضعف. صعد إلى الشاحنة، وفتح التماس محاولا تشغيل المحرك، ولكن في المرة الأولى أصدر صوت (فس) مرة و(تس) مرتين، وبقيت الشاحنة مكانها. كيف سيأخذها إلى البلدة؟ أين سيجد كهربائي السيارات، مصلحا؟ بكم سيأتي الرجل إلى هنا؟ لم تنته ديونها بعد! قال: «آآآه.. آه..» نظر إلى الأرض، ثم إلى فوق، ثم تلفت إلى ما حوله، ثم ركض نحو البيت. كان يصرخ وهو راكض: «أين؟ أين عجل الوادي؟ أين هو؟». قال جعفر الشنب.

- أنا أعرف أين هو يا خال سليم.

- قل يا جعفر، قل ولك ما تريد!

- أخذته الخالة غلدانة إلى بيت أختها..

سمعته ملك غلدانة. قالت: «لتعم عيناك يا جعفر البوال. لابد أن تقع في يدي يوما ما، عندها إن لم أسيل دمك...» هرع سليم القولاقجي. أطرق قليلا. لم تكن البندقية على كتفه. أين وضعها يا ترى؟ تناول حجرا. رمى الحجر، وسأل نفسه: «إلى أين أنت ذاهب ياسليم؟ هل أنت ذاهب لمواجهة العدو؟ إنه أسوأ من العدو. لو كان عدوا لما فعل كل هذا، خذ عصا، وربِّ ولدك جيدا. اضربه بقوة لتربيته فقط. اجعله يخاف. إذا أخفته مرة أخرى فلا يعود يفعلها.. لأن اللعب بالشاحنة ليس كاللعب بالمواعين والأدوات..».

كسر غصنا من شجرة في بيت آل (إكيز). ضغط عليه برجله كاسرا رأسه. جرده من فروعه وأوراقه، وركض.

كانت زكية تقف على صندوق خشبي، وتنظر نحو القرية مستطلعة ما يجري. رأت سليما قادما كالرعد. نزلت. هرَّبت سنجاب من فتحة تستخدم لإفراغ روث الحيوانات، ثم أخذت حفنة طازجة منه، وكورتها، ورمته بها قائلة: «اهرب. جاء أبوك. أخبره واحد لم يرضع حليب أمه». تدحرج عدة مرات على الروث الناعم، ثم انتصب، وبدأ الركض.

فجأة، رأت زكية سليما أمام الباب يقول: «هربت الولد يازكية. هربته لكنك لم تفلحي! يأخذ الشاحنة، ويتنزه بها، ويخرب بيت الناس، بعد هذا، تدلله أمه، وكنة خالته... أحسنتما!..

- لا تكن أسير الغضب ياعم سليم! اهدأ أولا، ثم أجلسه أمامك وانصحه. لا تظن أن هذا الأمر يحل بالضرب! ستكسر أحد أطراف الولد..

- اسكتي، اسكتي. بدلا من أن تتصحيني، ربي ولدك من الآن! اليوم أو غدا لابد أن يشتري زوجك شاحنة.

صفق الباب الكبير خلفه، وركض نحو القرية. كان يصرخ: «أين؟ أين ذهب الولد؟».

خرج نعمان حفيد الحاج عثمان هذه المرة، وقال:

- اختبأ في زريبة آل إكيز بين الأغنام.

ركض سليم القولاقجي، ونعمان بجانبه:

- هنا، إنه هنا يا خال سليم! بين الأغنام.

هرع سليم هذه المرة دون صياح، وصل ماشيا على رؤوس أصابعه. سيقفز مثل مهر، ويمسكه من كتفيه ثم يضربه حتى يدميه، ويهدأ. لو قفز فوق السور لرآه أو سمعه. رفع مزلاج الباب الخشبي بهدوء. كان روث الغنم قد نضج تحت أشعة الشمس، وسنجاب فوقه بين الأغنام. اضطربت الأغنام، وبدأت أجراسها تقرع. رفع سنجاب رأسه بهدوء، ونظر. نعم، القادم أبوه.

إنه هناك عند الباب. فكر، إلى أين سيقفز، أو سيهرب؟ قال لنفسه: «أبي رجل ضخم، لا يستطيع أن يدوس على الغنم، ولكنني أستطيع، وأهرب. لم يمتن! وإذا متن، أليس أفضل من موتي أنا؟». ثم قفز مثل البرق. في البداية اتجه نحو أبيه، ثم غير اتجاهه بشكل مفاجئ، وقفز فوق السور متجها نحو القرية. بقي سليم القولاجي داخل الحوش يهيم إلى هذا الطرف، وإلى ذاك. يقع، ويقف، وبعد جهد مضن خرج من بين الأغنام. تلفت حوله قائلا: «أين الولد؟ إلى أين ذهب؟ قولو لي! أروني إياه! إلى أين ذهب؟».

ما زال نعمان هناك حتى تلك اللحظة. كان على أهبة الاستعداد، وكأنه مكلف بمهمة.

- دخل إلى باحة الجامع يا خال سليم..

الجامع وسط القرية. توقف سليم القولاقجي فجأة، وقال: «آه ياكلب، آه. عرفت أين تختبئ. ولكن سأقبض عليك إذا كنت في باحة المسجد، ولكن سيختلف الوضع لو دخلت إلى الحرم. سأقبض عليك قبل أن تدخل» ثم ركض بكل ما أوتي من قوة.

كان سنجاب قد صعد فوق المتوضأ، ومحدثا نفسه: «سيبحث عني أبي في كل مكان، ولن يبحث عني هنا».

دخل سليم القولاقجي من الباب المؤدي إلى باحة المسجد. نظر إلى اليمين، وإلى اليسار، رأى ولده فوق المتوضأ. فرح. قال لنفسه: «حصرته الآن». كاد يبتسم، لكن الوقت ليس مناسبا للضحك. ارتمى نحو الصنابير بغضب أشد. قفز سنجاب نازلا. ولحظتها فكر بحذاقة. ركض أبوه نحوه بسرعة. ارتمى سنجاب بين رجليه. سقط الرجل. عندها وقف سنجاب. منذ سنتين وهو يعرف هذه اللعبة. عندما يتعارك مع من هم أقوى منه. يركض أمامهم، ثم يلقي بنفسه أمام أرجلهم فيقعون. كذلك فعل هذه المرة. مازال والده متمددا على الأرض. فكر لحظة: «إذا عدت إلى البيت فسيقبض علي. إذا ذهبت إلى بيت آخر، فسيدلونه علي». فجأة وجدها: «لأدخل إلى الحرم، فهو أفضل مكان للاختباء..» سنجاب يعرف جيدا لِمَ الحرم أفضل مكان للاختباء، سبع سنوات وأبوه مقاطع الشيخ محمد الملا. إذن الحرم أفضل مكان للاختباء. وقبل أن يستجمع الأب قواه دخل الجامع، ثم مشى بهدوء على السجاد. لم يصعد إلى المكان الذي تستمع فيه النساء للموالد، ويقمن فيه صلاة التراويح،

بل جلس بجانب الجدار متجها إلى القبلة، إذا نسي أبوه قطيعته مع الشيخ سيدخل، وعندئذ سيراه فورا، لكنه لن يدخل. لا يستطيع الدخول دون مصالحة الشيخ محمد الملا. أقسم يمينا معظما على هذا.

- سنجاب.. هيه ياسنجاب! اخرج! أقول لك اخرج! لن أضربك، وإذا فعلت فلن يكون مبرحا. سأضربك حتى أدمي أنفك قليلا. أقسمت بالله، لذلك سأضربك، وأدمي أنفك، وأتركك. هذا أفضل لك. إذا لم تخرج الآن فسأضربك ضربا مبرحا فيما بعد. اخرج. أنت تعرف أنني مخاصم المدعو محمد الملا! سبع سنوات ونحن متخاصمان.. لا تدخلني مكانا لم أدخله منذ سبع سنوات. اخرج بسرعة.

كان سليم القولاقجي يفكر بخسائره في الشاحنة المكسرة، والمحطمة من جهة، ويقول: «اخرج ياسنجاب» من جهة أخرى. ثم فكر في حجارة، وقرميد، وعمالة دار آل القرش، إضافة إلى إرضاء صاحبها. قال: «لا تفعل هذا السوء بأبيك. لا تدخلني إلى الحرم بعد سبع سنوات. اخرج وسترى. سأضربك، وأكتفي بإدماء أنفك. اخرج لأنفّذ قسمي. يالله يابني!» كان يقف بجانب الباب، ولا يتقدم خطوة إلى الداخل. وسنجاب لا يخرج.

حاول معه، تلفت، توسل إليه، ثم وجد أنه ليس من المناسب أن يتوسل إليه أكثر من ذلك. ضرب كفا بكف، وقال: «لم أدخل منذ سبع سنوات، ولن أدخل الآن.. عفوت عنك» وسار نحو البيت، غسل يديه ووجهه، وذهب إلى الشاحنة، وبينما هو مار وسط القرية صرخ: «سنجااااب! عفوت عنك يابني، عفوت عنك. اخرج! لا تبق مختبئا!».

لكن سنجاب ظل مختبئا حاسبا كل الاحتمالات. كان الرجال على وشك المجيء إلى الصلاة مساء، وسينتظر هو حتى ذلك الوقت.

حاول سليم القولاقجي تشغيل الشاحنة فلم يستطع. تحدث إلى خليل إبراهيم القرش:

- إنني أقبل بما تقدره من خسارة ياصديقي. يكفي ألا نسمع أصواتنا للناس. سأجد بنائين في الناحية وأحضرهم، وسيعيدون الأماكن المهدمة أحسن مما كانت عليه.

وقال لزوجة القرش:

- صار ما صار ! إنه ولد. ليس بضاعة تشترى وتباع. لابد أن يربى، ماذا سنفعل؟

عاد إلى أمام الجامع. قال لنفسه: «آه لو أنه خرج قبل أذان المغرب. لو أننا لم نذل أمام أهل القرية؟».

- اخرج يابني، اخرج. أصبحنا فرجة للناس، بما فيه الكفاية. يجب الا نصبح أكثر مما نحن عليه. هيا اخرج..

خرج سنجاب عندما كان الظلام قد بدأ ينسدل فوق القرية.

أمسك الأب بيد ابنه، وسارا وسط القرية.

- والله حطمت الشاحنة كي لا أضرب عربة الحطب. والله كنت أسير بشكل صحيح.

حتى الآن يتكلم وكأن لا ذنب له. غضب سليم القولاقجي، وقال: «لا ضرورة لغبائك. اقبل بغلطتك. مازلت مقسما على عدم ضربك، وإلا فلن أتدخل بعد ذلك.

عدالت آغا أوغلو

(ولدت في قرية ناليهان التابعة لأنقرة عام ١٩٢٩)

بعد الدراسة الثانوية، درست الأدب الفرنسي في كلية الآداب والتاريخ والجغرافية، جامعة أنقرة، وتخرجت فيها عام ١٩٥٠.

اشتهرت في مجال الكتابة للمسرح، ونالت جائزة مجمع اللغة التركية عن كتابها الذي ضم ثلاث مسرحيات ويحمل هذا العنوان (ثلاث مسرحيات) وصدر عام ١٩٧٣، ونالت شهرة تعدت حدود تركيا.

انتقلت في الفترة الأخيرة لكتابة الرواية، وترجمت رواياتها إلى الإنجليزية. من رواياتها: «التمدد للموت ١٩٧٣»، «وردة فكري الرقيقة ١٩٧٦»، «ليلة العرس ١٩٧٩»، «نهاية الصيف ١٩٨٠»، «ثلاثة أو أربعة أشخاص ١٩٨٧»، «لا ١٩٨٧».

أما قصصها فقد اعتمدت على الملاحظة الدقيقة، والتقييم، فاتحة الباب على مصراعيه للتجريب في تقنيات العرض. من أعمالها القصصية: «التوتر العالي ١٩٧٤»، «أول صوت للصمت ١٩٧٨»، «لنذهب ١٩٨٢».

نالت العديد من الجوائز في القصة، والرواية، والمسرحية، والعمل الإذاعي، وقدمت تمثيلياتها الإذاعية في كل من فرنسا وألمانيا منذ عام ١٩٥٥. وأدرج اسمها في موسوعة الدرامة العالمية.

فازت بجائزة سعيد فائق للقصة عام ١٩٧٥، وبجائزة سدات سماوي، وجائزة أورخان كمال في الرواية عن روايتها «ليلة عرس»

دافع عن نفسك يا عشقي، أنت دافع

أتى شخصان يحملان صفيحة طلاء،

صبغا الجدار تحت شجرة الأقاقيا بلون

رصاصي، وذهبا..

كل شيء يعتق بسرعة. الأحذية، والستائر، والأبنية، والأزقة، والجدران، والمحبة، كلها تستهلك.

ظننت أن لا أحد يهتم بعريشة الأقاقيا. كأن ذكرها في أغنية قديمة أكثر حقيقة، واستمرارية من وجودها. ولكن جدران الأبنية الواطئة في زقاق ضيق، شرقي المدينة، ما زالت تدافع عن عرائش الأقاقيا. طلّت عين الشمس خجولة إثر المطر، أما الليالي فهي باردة، وتذبل الأوراق الخضراء ذات الغبار. تتساقط الأوراق بحجم العيون فوق حمامتي أمي.

عندما يمران في الزقاق تكاد تضحك وجوهنا، وتنفرج قلوبنا. لا يمسك أحدهما بيد الآخر، أو يضع يده على كتف الآخر، ولكن كانا يبدوان لنا متعانقين. كانت تسميهما أمي: «نمامتان»، تقول: «هما هما نمامتاي، ما لكم أنتم؟» تظن أننا نغار منهما. تنظر إلى حياة زوجية أعيشها منذ أربع أو خمس سنوات، وتبتسم ابتسامة مهلهلة. دائماً أقسم على تجديد حبنا. عندما يمران من الزقاق أشعر بإصلاح ما أفسده الزمن. زوجي وأنا نعمل على قشع سحابة الدخان المتشكلة في قلبينا،

وتبذل جهدنا كي لا تتراجع محبتنا، ونبصق مرارة فمينا وننشغل في البحث عن حياة أجد.

تتساقط الأوراق على شعرهما، كأن الشهور والأيام الذابلة هي التي تتساقط وتتلاشى فوقهما. تحدث قدماهما حفيفاً أثناء مداعبتهما للأوراق يزيد من جمالهما. كنت أؤمن بأنهما قادمان في وقت نسي فيه الجمال كي يصدرا هذا الصوت من تلك الأماكن.

وجه الفتاة متطاول ورطب. يبرق على جبهتها اعتزاز استطاعتها العشق. جذع الشاب رأساً كأنه طائر دافئ. كلامهما قليل، يعطيان قيمة للصمت. تظنون أنهما لا يرغبان في تصعيد أي قضية إلى ضوضاء. كلما مرّا من الزقاق يجلسان تحت عريشة الأقاقيا بجانب الحائط المواجه لمدخل الزقاق. عندما تعبر الأوراق أو الأغصان أو كلاهما من الصيف إلى الشتاء، غالباً ما تغيّر نقش وجهيهما. جدية غير متغيرة، وطفولة تهيمن على كلمات لا تستهلك على عجل، ولون وردي يطفح على خديها يناسب شبابها. لا تضغط الأيام القادمة على عشقهما، فليس القلق صياداً، ولا صيداً.

مرّا من زقاقنا الضيق على مدى شهور. كثيراً ما جلسا على ذلك الحائط، وتحدثا عن ترك أحدهما للآخر دون جرحه. حافظا على طبيعة نقاشنا أثناء العمل، وعلى حسرتنا التي لا تنتهي، وعلى عدم تغيير تلك التمثيليات الممثلة دون نظّارة. كلما رأيتهما أقول لهما: «إذا أردنا الصمود إلى الغد فدافعا عن العشق، دافعا عن نفسكما».

من الصعب معرفة حيّهما. ارتديا العشق من رأسيهما إلى أقدامهما. رصفا أحلامهما، وصفحات حريتهما وراء بعضها بعضاً، أو أنا كنت أشعر بهذا، وأجد الكثير من البراهين التي تثبت فرضيتي هذه. هما

اللذان لا ينسيان الأقاقيا، هما المبتسمان كطفل، ومشيتهما تشبه مشية طفل يسير على رؤوس أصابعه لأخذ كرته، والابتعاد بها، ولا يتصرفان كالمراهقين الذين يلعبون في الزقاق. يدفعنا عنهما كل ما يبدو أنه سيمزق سكونهما، وانسياب كلامهما. كنت أدهش لنجاحهما هذه الأيام التي لا أحد حسب حساباً لها. هما أيضاً من نثر أول ثلج هطل على الأغصان العارية.

زوجي يقول إنهما طالبان. أنا أعتقد أنهما عاملان، وأشعر بهذا نتيجة تواجدهما في زقاقنا في فترة معينة. والدتي تقسم أن النمامتين قادمتان من مكان، أيدي ووجوه الناس فيه نظيفة. في أحد الأيام، بينما تحمل والدتي مشترياتها من السوق بصعوبة، وجدتهما بجانبها يقولان: «اسمحي لنا بحمل هذه الأغراض عنك؟». أرادت والدتي لحظتها اغتنام فرصة هذا التعارف، وسؤالهما بعض الأسئلة، ولكن لا تدري لماذا انعقد لسانها. لم تقل أكثر من «تسلمان، تسلمان يا صغيري، ليعطكما الله بقدر نياتكما». تقول: «ليسا ذكيين وجميلين فحسب، بل إنهما طيبان جداً أيضاً» ولا تضيف شيئاً آخر.

ثمة أشخاص يستطيعون التغلب على الأيام القاسية، والمليئة بالهموم كامتلاء هذه السلة، وآخرون تطفح وجوههم بالقلق أمثالنا، وهذا ما كان يدهش أمي.

يومئذ كنا في الشهر الثاني من العام. الزقاق مغطى بالجليد. شجرة الأقاقيا عارية تماماً. نُسيت أغنياتها، أغصانها الفضة تتطاول نحو السماء المعبأة بالضباب. كأن كل شيء جاهزا للكمين. كان انتظاراً مريباً، وظني لا يقترب من تصور إزهار الأقاقيا من جديد. وأنا كدت أنسى تغيرهما، ولكن ثمة شيء واحد مؤكد: أمي تتخيل أنهما ظاهرياً

هادئان، ولو دققنا النظر إليهما سنشعر أن بداخلهما عرساً مزيناً بألوان قوس قزح، وآلافا من البالونات الملونة المتلألئة المتطايرة. هذه الحيوية، وهذاالعشق يشكلان النقطة المضيئة الوحيدة في أفقنا. كانا بالنسبة لي مؤشراً.. في كثير من الأمسيات، عندما أراهما أثناء عودتي من العمل أود أن أهرع إليهما، وأحتضنهما بين ذراعي، لكنني لم أملك حرية كهذه. مع الأسف تعلمت كبت بعض الانفعالات الآنية في داخلي. كانا سيمران من أمامنا ويذهبان، وكنا سنكتفي بالنقطة المضيئة التي أشعلناها لأنفسنا و بأنفسنا. كنت سأنظر إلى جميع البيوت التي أسدلت ستائرها، وسأقاوم الشرر الذي قدحاه في هذا الزقاق الساكن، ذي عريشة الأقاقيا المنسية، وذي الوجوه التي لا ترشح المحبة، وبعناد مخفي سأعمل على ترسيخ المعنى الوحيد للحياة، غير المتوجه نحو الأمس أو الغد، وستبحث عيناي عنهما في الزقاق، تحت عريشة الأقاقيا العارية، كلما عدت من العمل. لم تعد تُرى نمامتا أمي في زقاقنا عندما توقفت الأقاقيا عن البرعمة. كأنني أعود عيني على عتمة غرفة مظلمة. سألت زوجي عن هذا الأمر، فقال إنني أعطيهما جزءاً زائدا عن الحد من تفكيري، ولكن أمي أجابتني بثقة العارف: «إيه.. سيذهب المتزوج إلى زوجته، والقروي إلى قريته. لن يهيما في الأزقة بشكل دائم. لابد وأنهما أويا إلى عشهما».

كانت نصف مكدّرة، ونصف سعيدة

الجدار المقابل لمدخل الزقاق فارغ دائماً. الأقاقيا ناقصة. كنت أراهما في لحظة ما. لم تتوقف أمطار مارس و ما جلبته من سيول، وجرف لكل ما يصادفها، لكنها ما كَفَتّ لتجعلني أنسى ذاك الشاب، وتلك الفتاة على الرغم من عدم رؤيتي لهما. تلك المحبة المجردة، تلك الحياة الرطبة تجعلني أشعر بحاجتي، وحاجتنا جميعاً لهما أكثر من أي

وقت مضى. كنت أهرب من فكرة عدم وجود مؤشر النور ذاك أصلاً. لم نستطع تعتيق كل شيء بسرعة في مكان يعتق فيه حتى العشق. لعله حلم، ومحاولة لتشكيل معلومات تحيي هذا الحلم.

قالت أمي في أحد الأيام التي أزهرت فيها الأقاقيا، وهي تتحسر، ويخفق قلبها:

- آه يا أولاد النمامتان لم تتزوجا. لم تؤسسا عشهما، وكأكثر الشباب زجوهما في السجن. آه.. هل كنتُ أتوقع أمراً كهذا؟

هل وقعت أمي في فخ الشك بملاكيها؟ وهل كانت حزينة لأجلهما؟ وهل كانت مخدوعة بأحلامها عنهما؟ هذا ما لم أفهمه. لكن زوجي يتكلم بلهجة أكثر جدية:

- لا تحزنوا! على الرغم من بعد كل منهما عن الآخر، لكنهما قريبان إلى بعضهما بعضاً. ليس مهماً كونهما متباعدين.

ثم التفت نحوي:

- بيننا بُعدٌ قصيٌّ في غرفة واحدة.

بهذا دعم جدية نبرته، ووافق على عدم جدوى محاولاتنا للانبعاث من جديد. ولكن كما إنه ليس المسؤول الوحيد عن هذا، لم تكن نظرته المتفائلة للزنزانة كافية لسلوانا.

الأحلام تزين أكثر الليالي حلكة. أدرك هذه المرة أن لي أحلامي. أحلم بأن الشاب والفتاة في زنزانتيهما ضيقتي النوافذ، يسندان جبهتيهما على القضبان الحديدية، ويتجهان بعضهما بعضاً مبتسمين، إنهما يتقاسمان الجزء الصغير الظاهر من القمر. كانا يتقاسمان القمر،

والأقاقيا. في ذلك الوقت كنت أنا أيضاً ابتسم، وأحاول إزاحة الستار الضبابي بيني وبين زوجي، وأحارب كي أؤمن بهذا. العشق مستمر. العشق الجديد والمقاوم يتخمر في الزوايا المظلمة، والأماكن الضيقة، والأزمنة القصيرة. لن تفقأعينا ذلك العشق السليم، ولكنه يتقطع بأظافر العداوة. العشق لا يمزج بين الحرب والسلم، وهو الوحيد الذي يستطيع المقاومة، والمجابهة بذاته، وصرف الجهد في أماكن أخرى دون حذر.

كنت انتظرهما. انتظرتهما فترة طويلة. مر يوم آخر، وشتاء آخر، وربيع آخر. تفتحت أزهار الأقاقيا مرتين، وتساقطت أوراقها مرتين. غيرتُ عملي. تركت الأحداث التي كنا بالنسبة إليها نظّارة. كنت أعمل على إنتاج أشياء أكثر مقاومة. في مرحلة ما من الفصل الرابع.. نسيت فيها الشاب والفتاة، رأيته.

فكرت طويلاً أن هذا الذي أراه ليس ذاك الشاب. كان متغيراً لعدم وجود الفتاة بجانبه. لم يزدد طولاً أو وزناً، لكن وجهه فقد تلك الابتسامة المنعشة. خطواته ثقيلة. طيّر الجذع من فوقه ذلك الطائر الدافئ. هكذا تهيأ لي. أتى برفقة ثلاثة شبان بعمره في ذلك الوقت، أي قبل ثلاث أو أربع سنوات، إلى تحت عريشة الأقاقيا، في ساعة لم أتوقعها في وقت مبكر جداً، كان النهار قد بدأ لتوه. لم يكن قد مر أحد من الزقاق. فتحت النافذة، كانت أوراق الأقاقيا نصف خربة، ونصف ذابلة، فلم أشعر برائحتها. خلال السنوات الماضية تهاونت في حربي وحرب زوجي الفاشلة من أجل إزاحة الدخان المتشكل بيننا، حتى لو كانت أسبابه خارجة عنا. عشنا ما عشناه. وأمامنا كثير من الأيام التي يجب أن تُعاش. عملت على تنمية نمامتي أمي بداخلي. لقد نسيتهما كفردين.

هناك، مقابلي الآن أربعة أشخاص ذكور، بينهم ذلك الشاب، الباقون أراهم لأول مرة. وعلى جبهة الحائط، تحت الأقاقيا، كتبوا بسرعة عبارة، وبحروف كبيرة، وذهبوا. عندما كان يسحب أحدهم ذيل آخر حرف، سمعت الصفير القوي لذاك الشاب. إنه صفير عدم التسامح، والطلب إليهم بالسرعة، ولكن هل كان هو؟ ما أوقفني خلف النافذة، وأمام رائحة أوراق الأقاقيا المتفسخة ليس هذا السؤال ذو الجواب القصير جداً. مهما تغيّر ذاك الشاب لكنه هو. كما إنني لم أفكر في صحة أو أهمية الكتابة التي كتبوها. أين الفتاة؟ أين أنثى اليمام؟

مهما يكن، وأيما كانت الجهة الصحيحة، يجب عليهما تحقيق ما يريدان سوية. حتى إن تلك الكتابة يجب أن يكتباها سوية. إنه وعد قطعاه على نفسيهما عندما كان يمران في ذلك الزقاق في يوم مشمس أو غائم. من الذي نكث بهذا الوعد؟ هما؟ أم غيرهما؟ أم الوعود؟ أم الموت؟

لم أستطع التفكير في موت الفتاة. تلك الجبهة الرطبة الطفولية لا تقيم علاقة مع الموت، وهاتان الشفتان لا تبتسمان له. ولا يمكن البت في هذا، لأن الموت خارج الإرادة، كالولادة، ولكن ليس كالمحبة، التي أعطت وعداً بالحياة، وتاقت للبعث.

بعد أيام جاء شابان وفتاة. طلوا العبارة السابقة بلون أصفر بشع، وكتبوا فوقها كتابة معاكسة للسابقة. عبارة تبدأ بكلمة: «الموت..». لم أردْ أن تكون الفتاة هذه هي تلك الفتاة التي نعرفها. إنها تشبهها إلى حد كبير. قلت لنفسي: «لا ليست هي، لا يمكن أن تكون هي». نعم لم يكوّنا شجرتي أقاقيا، ولم تزين أوراقها شعر الفتاة. الفرشاة تمر على الجدار بسرعة كبيرة، وقسوة خفيفة. لم يكن ذاك الشاب بجانبها، ولم تسقط

العريشة على وجهيهما نقشاً. لم يكن ثمة زمان لهذا. جبهتها العاشقة تلك مغطاة بخطوط الاستعجال، ولكنها هي. إنها هي بقلب عتيق، استخدم عدة سنوات.

لم أستطع تصور ذلك الجدار تحت الأقاقيا من دونهما. إذا كان ثمة أقاقيا فهما موجودان. إنني الآن أخاف من تعاكسهما تحت العريشة نفسها، وأمام الجدار نفسه. الأوراق تتساقط واحدة تلو الأخرى دون أن تجد متسعاً من الوقت كي تزين شعر أحد. أخاف أن يغدو مثل تلك الأوراق المتساقطة ومن سقوطهما حباً كورقتين أمام الجدار نفسه، كما حدث في الماضي.

أتى شخصان يحملان صفيحة طلاء،

صبغا الجدار تحت عريشة الأقاقيا بلون رصاصي

وذهبا...

ما رأيته: جدار قديم غيّر مكان حبه

مظفر بويرقتشو

ولد في مدينة نيدة ١٩٣٠

قطع تعليمه الثانوي لينخرط في معترك الحياة. عمل لفترة طويلة (١٩٥١ - ١٩٧٠) موظفاً في دائرة المحاصيل الزراعية.

بدأ حياته الأدبية بالقصة والشعر. نشر بين عامي ١٩٤٦ - ١٥٥٣ نتاجه القصصي في العديد من الصحف، ولفت إليه الانتباه عند فوزه في مسابقة للقصة عام ١٩٤٦. أصدر مجموعتين شعريتين كل منهما مشتركة مع صديق، وهما «صوت المستقبل ١٩٤٥»، «توسل القلوب ١٩٤٧». ومع مطلع عام ١٩٥٣ دخل ميدان الصحافة الأدبية بحضور قوي.

تناولت مجموعاته القصصية حياة الفقراء الطافحة بالهموم، والصراع في أحياء اسطنبول المتطرفة، من هذه المجموعات: «قطِران ١٩٥٦»، «ألم ١٩٥٧»، «أصابع الخوف ١٩٥٩» «رسوم ضبابية١٩٦١»، «في الجِباب ١٩٦٢»، «جهنم ١٩٦٦»، «عراك ١٩٦٧»، «مغارة ١٩٧١»، «الأغنيات تغنيك ١٩٨٢»، «في أحد الأيام ١٩٨٣»، «أزهار الثلج الحزينة ١٩٨٧»، «كل مكان مظلم ١٩٨٩».

فاز بجائزة مجمع اللغة التركية للقصة عن مجموعته «رسوم ضبابية»، وبجائزة سعيد فائق للقصة عن مجموعته «عراك».

اتجه بعد عام ١٩٦٧ إلى الكتابة الروائية، وأصدر العديد من الروايات.

الأغنيات تغنيك

خرج أدهم، ومصطفى، وجمال من السينما وهم يناقشون الفيلم الذي ملأ قسماً من فراغهم الداخلي، ونقلهم إلى حلم بحياة مريحة وجميلة وهادئة، وأنساهم المشاكل التي تنهش نفوسهم. دهش مصطفى للتشابه البالغ بين الحلم الذي رآه البارحة، ومشهد الهرب في الفيلم. كيف تطابق وضعه مع وضع عائلة أمريكية بالتمام والكمال؟ أي صدفة لا معقولة هذه؟ أمن الممكن أن يحلم أشخاص مختلفون باللغة، والدين، والعادات، والتقاليد، والمكان الحلم نفسه، ويتكاتفون لمواجهة الظروف الحياتية ذاتها؟ عندما فهم أنه لا يستطيع الإجابة عن هذه التساؤلات، أشعل سيجارة. تراءت له (نيفار) من خلال التواءات الدخان المنفوث من فمه ناظرة إليه بعينين تطفحان عشقاً. تسللت إلى أعمق ثناياه الداخلية والسرية. امرأة لا يشبع منها، تفرحه بدلالها. لو أخبر أدهم، وذهب...؟ انفعل.

وَزَنَ نفسه، ولم تعجبه النتيجة التي أشار إليها الميزان. عَبَرَ من جانبنا مثل سيارة إسعاف تعبر بين السيارات حاملة خلف زجاجها المصبوغ مريضاً لتوصله إلى المستشفى.

اقتربت سيدة جيدة اللباس، مشرقة الوجه من بائع الذرة المشوية، وأشارت إلى واحد طازج.

أصغى جمال إلى الضوضاء أكثر مما كان عليه في الصباح، وفكر في مصادر الصوت المختلفة التي تحدثها. كل الأشياء والمخلوقات تتضخم وتصدر أصواتاً توازي حجومها. ولكن - بالنسبة إليه - ثمة سر

غريب، أو لغز صعب الحل في تعايش هذه المخلوقات مع بعضها بعضاً. إنها ابتكار يصعب حتى على مبتكره أن يتابعه، ولكنه يبقى أسيره أيضاً. لكل منا موضوع، وحد وعي، يتجاوز فيه مستوى الوعي العام، وعلاقات تسوء وتتحسن ثم تسوء مرة أخرى، وحكايات تبهج أو تزعج.. سيطرت عليه هذه الأفكار المتقلبة، وعصر فؤاده انقياد الإنسان إلى قدره: «هذه الليلة كثير من الناس سيموتون، وكثير من الرجال سيجعلون زوجاتهم حوامل، وكثير من الحوامل سيضعن». الانطباعات المرسومة على وجوههم، وتصرفاتهم تذكرنا بحركة من تلك الحركات التي يرصدها الرسام، أو تذكرنا بطنين خلية النحل. فور وصوله إلى البيت، سيتمدد في الغرفة الخلفية الباردة، وبعد أن يخلع رداء التعب عن كتفيه، يضع يده على كتف أبيه الذي يشرب الخمر تحت شجرة الجوز، ويجب أن تتفجر في ذاكرته رائحة الأزهار التي ينظر إليها ممزوجة مع رائحة مقلي الفلفل، والباذنجان، والطماطم بالثوم، ورائحة اللحم المنبعثة من مطبخ أمه المفتوح، وصوت (هُليا): «الأكل جاهز. إنني أقسّم البطيخة يا أخي»ابتسم عندما رأى امرأة بدينة تلعق البوظة بالفريز كالأطفال.

كان قد التقى نظر أدهم بنظر فتاة شقراء أخاذه في حافلة النقل الداخلي. أبرق قلبه. كان سيشير بيده إلى الفتاة التي تنظر إليه وكأنها تعرفه أو تبحث عن شخص مثله، كي تنزل في الموقف التالي، و... لو أنه التقاها قبل أن يخطب (أرظو).. في الحقيقة، لو أراد أن يبدأ مع هذه الفتاة مغامرة فلن تشعر أرظو إذا لم يخبرها أصدقاؤه. ولكن ليس لديه إرادة قوية، ثم إنه سيتعذب لو برز في شخصيتها أحد الأحاسيس التي لا يفهمها، فهو يرتبط بأرظو المتطلعة، والمخططة للمستقبل، والمؤمنة بأنها ستكون بجانبه في كل تفاصيل حياته، صغيرها وكبيرها، وتعبر في كل لحظة عن إعجابها بذكائه، ونجاحه، وإقدامه، وجرأته، وتقول إنها

لا تستطيع العيش من دونه، ومؤمنة بهذا أكثر من أي شيء آخر. لنقل إنه ارتكب حماقة، وضحى بأرظو من أجل هذه الفتاة.. ولكن هل ستكسبه هذه الخطوة شيئاً؟ هل ستحقق له سعادة لا يمكن الوصول إليها؟ إذا لم يؤسس حياةً بعيدة عن التناقضات الأسرية الناتجة عن الخطأ، والتسرع، وسوء الفهم في العلاقات، فماذا سيختلف عن الكلاب؟ لو أنه وجد إجابات إيجابية لتساؤلاته لأنزل الفتاة في الموقف التالي، ولكن لن تقدم له شيئاً. وقف برهة بحيرة، ثم التفت نحو الخلف. انسلَّ من تحت ضغط التململ الذي كان يشوش عقله: «اجلس حيث أنت!».

عندما يكون الرصيف عريضاً يسيرون متجاورين، وعندما يضيق يسيرون متتابعين. يتمازحون، ويتبادلون ما يحلو لهم من الكلام. إذا مرت بجانبهم امرأة جميلة جذابة، يعلقون عليها، ويتخيلون أنهم يعرفونها تمام المعرفة ومن الداخل، ويشدون أجسامهم كما في بعض المرات التي تذوقوا فيها طعم المرأة من قبل.

وضع الحلاق الصابون على وجه أحدهم، ويحلق له بالموسى. ثمة مجنون يلوح بيده صارخاً، والجميع ينظر إليه مشفقاً أو ساخراً. العرق يتصبب من جبين جمال كأنه يحمل على ظهره كيساً ثقيلاً. مرت شاحنة تحمل بطيخاً مغطى بالأعشاب. ثمة بائع خيار متجول شاب واضعاً قرنفلة خلف أذنه اليسرى، وطفل يصب الماء في كأس من إبريق بني اللون يسنده إلى ركبتيه، أوقع الكأس وكسره، وأعرج مقطب الوجه شتم فتاة تلبس (الجينز) شتيمة قذرة. صرخ مصطفى: «عاااش». ثمة أعمى يسير على الرصيف قرب دكاني المخللاتي والعطار ضارباً عكازه بالحجارة، رافع الرأس كأن عينيه الحمراوين تنظران إلى الأفق، وامرأة بطنها منفوخ يكاد يلامس حلقها، تقبل ولداً دون سروال في حضنها

عمره قرابة عام، وتجر مؤنبة آخر أثاره منظر الكعك. ثمة رجل عجوز أبعد الوجه يثني أصابع يده اليسرى إلى كفه، ويحرك شفتيه متمتماً يحسب حسبة، وعندما يخطئ يعيد الحساب، وثمة ثلاث فتيات يتقافزن وهن يمشين، ويأكلن البذور، وينثرن قشوره يميناً ويساراً. عبر رجل مسلول قصير الخطى، جاراً قدمه، متمتماً بالدعاء. مرت حافلات وسيارات أجرة، ومجموعة من الناس حاملين بأيديهم قيثارات.

نظر أدهم إلى قافلة السيارات التي جعلت الجو يئن من صوت زماميرها. لاحظ سيارة مرسيدس خضراء متلامعة مزينة بشريط السلفان، وأوراق الكورنيش، والقرنفل التي تُزين بها المدارس عادة في أعياد الطفل، والاستقلال، والجمهورية.. داخل السيارة عروس مدورة الوجه، مزدانة بالأقمشة المزركشة، بجانبها شاب رفيع الشارب، أسود الشعر متلامع، مرتديا بدلة، رابطا على عنقه عقدة، تكاد شفتاه تصل إلى شحمتي أذنيه لفرحه، داخل السيارة أيضاً امرأتان بدينتان ملونتان قريبتا العريس على ما يبدو. تذكر أرظو وجاذبيها وهدوءها وحميمتها. ما يثير شوقه، ويخفق له قلبه ينبع من قنوات أعمق ما في الوجود، وفجأة تصبح نظراته أكثر حدة، وعيونه كالإبر. اليوم، ولأنهم سيستضيفون ضيوفاً من قونية، فهي إما تنظف البيت أو تعد الطعام. اشتاق إليها، ولا يمكن رؤيتها قبل الغد (مرت شاحنة محملة بالرمل الرطب، وقروية يرن طوقها، ومخمسها، وأساورها الذهبية) قررا الذهاب يوم السبت باكراً إلى الجزيرة الكبيرة.. واستنشاق الهواء الذي يهب على ظلال أشجار الصنوبر.. لكن لأن حماته ذات عقلية متمسكة بالقيم والمبادئ والمقدسات فهي تربط تواصلهما بعرس واحتفال وبهرجة. ولكي تحول دون عجلتهما وارتكابهما حماقة، أرسلت معهما (بورجو) شقيقة خطيبته فضايقته بحراستها لهما. لم تتركهما ثانية

واحدة. وكانت تسير بينهما مانعة مسك أحدهما يد الآخر، فتحدثا في موضوعات عامة. لم يستطع ان يعبر لها عن شعوره الخاص. (مرت طائرة كأنها تمزق السماء. ثمة امرأة تشرب شراب الليمون، وزوجها اللبن، وأولادها الكوكا كولا) مع أنهما تجاوزا من زمن طويل ستار الغربة بينهما، واكتشفا لذة التواصل الجسدي، لكنهما لم يغيبا قواعد الأخلاق عن ذهنهما، وتواصلا بشكل محدود، ولكن رقابة بورجو القوية منعتهما من تبادل الحب والقبل، وسلبتهما حقهما، ومنعتهما من أخذ مالهما، ومن تنظيم فوضى داخلهما في علاقتهما. ولم تسمح لهما بدعم تآلفهما وتوازنهما. كانت تبحث عن ذنب في أكثر تصرفاتهما براءة، وتجد، أو تشبّه، وتسمم لقاءهما إشباعاً لعقدها وعنادها وشكوكها. هل كانت تشعر - أو تبدو أنها تشعر - بالغيرة من سعادة لقائهما؟ كانا يغضبان ويثوران ويتأففان معبرين عن عدم رغبتهما بوجودها، لكنهما لا يجدان وسيلة لإبعادها. وبنظرات مسروقة عبرا عن يأسهما، وحزنهما، وغليانهما بنار الحب. «عندما أتزوج لن أدخل هذه البنت المصيبة إلى بيتي» ضحك عندما تذكر اللعبة التي لعباها في الأسبوع الماضي. كانا في الغابة. فكَّ الهواء البارد الرطب أزرار روحيهما، فانطلقا على الرغم من وجود الحارس.. كانت أشعة الشمس المنسابة بين الأغصان ترسم نقوشاً على شعر، وكتفي، وذراعي أرظو. وبغمزة بدأ يطاردها. تراكضا بين جذوع الأشجار مقهقهين. ركضت خلفهما وصاحت: «قفا.. أجننتما؟ انتظراني» عندما التوت قدمها اليسرى اضطرت بورجو للتقصير في متابعتهما، وبقيت بعيدة خلفهما. انفعلت كثيراً، وصارت تشد العشب.. أي سعادة أصابا، وكيف شعرا بفرح تضليل عدوهما، والاختباء خلف دغل الأشجار؟ أطفآ شيئاً من نار شوقهما ورغباتهما بضم كل منهما للآخر، وتبادل القبل المجنونة من الشفتين والجبين والرقبة، مع كلام احتقن كثيراً في ذاكرة كل منهما. صرخت بورجو بغضب: «أختي،

خطيب أختي». فتشت حول كل نبتة اشتبهت بها. تبادلا القبلة الأخيرة بعجلة من يخطف شيئاً. انتصبا أمامها فجأة عندما كانت تصرخ بعبارات من مثل: «إذا لم أقلْ لأمي.. وأقلْ لأبي) كانت تنفث ناراً لغضبها، وتسأل، وتحاكم موقفهما، وترفع من حدة عدوانيتها. صبّت على وجهيهما بعيق شرطي. وبحثت عن أثر يدل على ممارستهما الحب، وقالت بفظاظة: «ألم يكن على شفتيك حمرة؟» عندئذ طار صواب أرظو: «إنك تتجاوزين حدودك. نحن مخطوبان. لا تنسي. لا تتصرفي كأنني أسيرتك، فهمت؟» وعادا كئيبين أبرد من الثلج.

مر الحارس.

قال مصطفى الذي شبّه الخال الذي في يد (نيغار) زوجة (سيفي) بالعدس، بصوت خشن مصطنع:

«ستزلزل الأرض هذه الليلة»

ضحك جمال.

فكر أدهم أن كلمات كهذه ستقال يوم زفافه، وأن أمثال مصطفى سيراقبون غرفة خلوته مبرزاً رداءة هذا التصرف، فقال: «هذا لا يهمنا».

قال جمال: «الطقس حار» ثم طرد المتسول الذي قال: «لينولكم الله مرادكم»

قال أدهم: «لنذهب إلى سيفي، نشرب كأساً، ونسمع أسطوانة»

تألقت عينا مصطفى وروحه في آن واحد: «آآ.. عمرك أطول من عمري!. كدت أقول هذا.»

قال جمال بلهجة خالية من الاستخفاف: «هذا التاجر؟»

قال أدهم مدافعاً: «أنت لم تجلس معه. رجل جيد. ظريف. لا تنظر إلى كونه مسناً. راجع العقل»

كاد يغضب جمال وهو يقول: «لنر إذا كان في البيت».

قال مصطفى بلهجة فرحة: «في البيت، في البيت» لم يكن سيفي يهمه في شيء. كان متعلقاً بنيغار الناعمة والقريبة من القلب، والمرحة على الرغم من مسحة الحزن على عينيها الخضراوين. تشاركهم مجلس الشراب، وتسكر من أول قدح. ومع إطلاقها الضحكة المجلجلة الأولى تحول النظرات إلى وسيلة تعبير عن النوايا والرغبات الدفينة في القلب والعقل. وتشعر بسعادة تحولها إلى محور انتباه الجميع. غناؤها حسن، خاصة عندما تخرج من بين شفتيها المكتنزتين أغنية: «أين أنت.. يا ناظم المخمور؟» وفجأة تشرد وتؤثر على مستمعها وتقوده إلى عوالم أكثر صفاء. الذكريات تجعل روحه تتدفق، وتلاحق أحداثاً، ومشاهد قريبة، وبعيدة. نيغار تقترب من مصطفى برغبة أكثر... (مرت امرأة في معصميها أساور، وتنشر رائحة عطرة)، وتوليه كل الاهتمام. إذا قدمت طبق طعام لأحد أصدقائه، فتقدم له اثنين. تقول له: «أتريد من هذا؟ أم من ذاك؟ أأحضّر لك مكرونة؟» وتدور حوله مثل المروحة. باختصار، كانت نيغار مسرورة لشعور أصدقاء مصطفى بأنها تخفف عن نفسها حسرة الأخ الأصغر سناً بمعاملة مصطفى هذه المعاملة، وهي سعيدة جداً لأنها وصلت إلى ما تريده منه (مرت طائرة مروحية ذات صوت غليظ ومتقطع، وكادت أن تصطدم بسطح إحدى العمارات) عندما يلزم شيء مثل الخبز أو الفواكه.. كانت تقول: «أذهب مع مصطفى ونشتريه سوية. هيا يا مصطفى» يحتضنها عندما يخلو بها.

ولا يرفع عينيه عنها، ويتمتم بكلمات لا يفهمها، لكنه يشعر بأهمية معانيها، فيعصر أصابعه إلى حد أنه أوشك على كسرها.. يركض، ويقفز، ويحكي النكات، ويسأل عن حل الألغاز، ويقول جملة صعبة التكرار، ويطلب منهم ترديدها. كانا في المطبخ قبل خمسة عشر يوماً.. وبحذر قبّلت مصطفى أثناء تجفيفه المواعين بقطعة قماش، وقالت: «هذا كل ما لدي الآن، غداً نتابع» جن مصطفى الذي لا يبرحه التفكير بضم نيغار إلى صدره، والاعتراف بحبها. بقي دقائق تحت تأثير الحرارة الجهنمية التي سرت من رأسه إلى قدميه لطعم القبلة الفريد التي تركت أثرها على خطوط الفم، فلم يتكلمْ أو يتحركْ. وخشية من وضعه غير العادي، وشكها بأنه سيشعر الآخرين بشيء ما، تهمس له: «اصح يا عاشق!» بذل ما بوسعه ليصحو. حارب كل الليل إرادته كي لا يشعر بالتغيير الحاصل نتيجة تفجر خلايا وجوده. وكانت نيغار تتنقل في مملكتها الداخلية من شخصية إلى شخصية. تغدو نهراً، ووردة برية، وبنفسجة، وغزالة تقفز من هنا إلى هناك، وكأنها تقول: «امسكني!» تغدو طيراً، تحمله بمخالبها، وتنزله على الأرض المعشبة في ذروة الجبل، وتخلع ريشها، وتقدم جسدها بكرم. (أثار طفل غضب فتاة بتفجيره كيساً ورقياً). عندما مرَّ على نيغار في اليوم التالي كانت وحيدة. كانت تلبس ثوب صباح بحمرة النار: «كنت انتظرك» قضمت شيئاً من عبارتها، وقضيا ساعات على الأريكة يتعانقان. كانت تدفع يد مصطفى بهدوء عندما لا تستطيع قمع هيجانه، ويمدها إلى هنا وهناك من جسدها، وتقول: «اصبر، عندما أريد أنا..» (صدمت سيارة أجرة واحدة أخرى أمامها. صوت البوق. صياح. ركض..) تكررت مشاهد الحب هذه أسبوعاً، لكنه عندما قصدها يوم الاثنين لم يجدها. لم يفتح له الباب يومي الثلاثاء والأربعاء أيضاً. ارتاح قليلاً عندما تذكر أنها قالت: «سأذهب إلى بيت أختي..»، «أما زالت في حي (تشنكل كوي)

يا ترى؟ لعلها أتت، آه لو أتت! آه لو رأيت وجهها!» أشعل سيجارة.

مرت امرأة حدباء، تلبس حذاءً ذا كعبين طويلين.

مازالت الساعة تشير إلى السابعة. لم تغب الشمس بعد. لم تُنَرْ أضواء البيوت والسيارات والطرقات بعد. يسير العائدون من عملهم بخطوات حثيثة. الآباء يتنزهون مع أولادهم وزوجاتهم ويشترون الذرة المشوية والمجمدات والكعك. ثلاثة أشخاص يمسحون أحذيتهم أمام سينما مرمرة. لون حذاء أحدهم أحمر. لوثت إحدى حافلات النقل الداخلي العاملة على خط حي (قوجا مصطفى باشا) المكان بالبنزين والزيت. تقيأت امرأة حامل.

جمال لا يرغب في الذهاب إلى بيوت من لا يعرفهم جيداً، وإذا اضطر للذهاب فسيصارع خفافيش الغربة، وهذا ما يعذبه. كان يتعب نفسه في سبيل معرفة الصفات الشخصية للآخرين، والدخول إلى زواياهم الدفينة، والبحث عن إمكانية الوصول إلى حقائقهم الكامنة خلف ماهو برّاق. لِمَ عليه التحمل؟ التقى سيفي عدة مرات في الحي مع أدهم، وتحدث إليه وقوفاً، لم يحاول تطبيق ما قاله: «ننتظر زيارتكم». يدعي أدهم أن سيفي عمل أيام شبابه مع البهلوان الشهير حكمت الأزميري، وقاد الدراجة على الحبل، وكان يرمي خمس أو ست حلقات في الهواء ثم يلتقطها دون أن تسقط على الأرض، حتى إنه قدم بعض فقرات السحر. كان يخرج نقوداً من الأنف أو الأذن، أو العين، وبيضاً من الجيوب، ويحول بعض الورقات الملونة بعد ابتلاعها إلى مناديل. إنه رجل ممتع الحديث يتجول في الأناضول باسم إحدى الشركات لتسويق بضاعتها، وتحصيل نقودها مقابل عشرة في المائة من الأرباح. عمله جيد، لكنه متضايق للابتعاد عن زوجته فترة تصل إلى

خمسة وعشرين يوماً. مع أن نيغار لم تكن متضايقة، فهي تذهب إلى بيت أختها، أو أختها تأتي عندها، ويخابرها، ويراسلها. لابد من الصعوبات.. قال له أصحاب الشركة إنهم حزينون لهذا، ووعدوه بتأمين عمل له في المركز. كان عقيماً.. هذه المرة، لم يردّ جمال طلب أدهم، فقال: «حسنٌ».

كانوا يأكلون مخلل الخيار، ويشربون من مائه العكر. الرائحة المنبعثة من فرن حي (لا له لي) ذكرتهم بجوعهم. مضغ مصطفى لقمة قضمها في خياله.

وقفوا أمام بيت يشبه الفيلا، له حديقة ومطلي باللون الأزرق. كبس أحدهم على الزر وانتظر. كان ينبعث صوتاً من الغرف الخلفية يخدش الأذن. تناهى إلى سمعهم صفير بعيد لآلة (الترومبت) كأنه قادم من بلاد الواق الواق، ثم قرع طبل. أيتشاجر سيفي ونيغار، وفتحا المذياع إلى حده الأعلى لكي لا يسمعا صوتهما الجيران؟ أم أنهما يمارسان الحب على أنغام الموسيقى! جمال سحب أدهم جانباً: «لنأت في زمن آخر. لعلهما مشغولان»

قال أدهم: «حتى لو كانا مشغولين يجب أن يفتحا الباب»، ولم يرفع إصبعه عن الجرس مدة دقيقة. قلب مصطفى يخفق بسرعة، ونظرته المتنقلة بين الجرس وجمال تبتعد عن الفضول باتجاه القلق الغامض، والغموض يأتي بالغموض، ويقوى، حتى يضعهم في دوامة التساؤلات: هل هما غير موجودين؟ هل هما في السرير؟ هل هما في حالة حب؟ لعل سيفي الآن ينهض متراخياً بجسده الشحمي المترهل، وقطرات العرق تشعره بنشوة يعبر عنها بفرح عارم يحول دون رؤيته الحقد والقرف، والكره في عيني نيغار، لأنها تقوم بوظيفتها كزوجة. يجب أن

يكون بجانبها هذه اللحظة لتنقل له آلامها، وتحكي له تاريخ حزنها مع سيفي الذي جعل حياتها جحيماً... هنا تنتهي القصة، ويبدأ أمر جديد.. يضمها إلى صدره، ويحكي لها عن علاقتهما التي سيستمران فيها حتى يستطيعا إخراجها إلى النور.

قال أدهم: «عجيب»، وأسند أذنه إلى الباب. انتهى القرع المنفرد على الطبل، وانطلق صوت (سوبرانو) فيه عمق وحدة، ويحلق بالأحاسيس.. هل ذهبا إلى الجيران وتركا المذياع مفتوحاً كي يخيفا اللصوص إذا دخلوا بيتهم؟ انفعل. فجأة شعر أدهم أن ضربات قلبه تتباطأ، ودمه لا يصل إلى وجهه وأطرافه، وأن شيئاً يعصر رقبته. خشي أن يكونا قد انتحرا. جسدان متمددان، متجاوران، ناظران إلى الحياة كأنهما يبصقان عليها! «لا». قَطَعَ مشهدهم. بدأ يضرب الباب بقبضته. غطى وجهه بقناع السرور الذي يظهر على وجوه متلقي الأخبار السعيدة: «ثمة قادم» سمع هرولة نعال في نهاية الممر. اقتربت، ثم غابت. شعرات سيفي المخضبة بالبياض متشابكة. عيناه اللتان حفظهما في وجهه تشبهان عيني ثور حمراوين. تداخل لديه النوم والسكر. عندما يتكلم تفوح منه رائحة الكحول: «أوووه.. مرحباً يا شباب! أهلاً وسهلاً. تفضلوا، تفضلوا! (حرك أدهم ومصطفى رأسيهما) كيف تذكرتمونا؟».

قال أدهم: «الحق معكم، ولكن موعد عودتكم...»

«إنني أمزح يا عيني، أمزح»

قال جمال: «لا تؤاخذنا»

أفرغ ما في داخله على كاهل جمال قائلاً: «في بيتنا لا تستعمل هذه الكلمات»

قبل مصطفى يده باحترام «لا تقبل يدي يا عيني! من يرانا سيقول إنني عجوز»

ابتسم مصطفى: «أنا أقول لحظتها لمن سيرانا، إن الأخ سيفي ليس عجوزاً».. كانت لحظتها تظهر نيغار، وتتلاقى نظرتاهما، تتدحرج الصخور، وينهال التراب، ويقدح البرق، ويحترق بالنار المنبعثة تحت جلده، تطفئه نيغار بخرطوم مائي عالي الضغط، تغطه في بحيرتها، وتحرك أمواجها، ويذوب في الماء. سيبعث من جديد، ويطمئن ويحب نيغار كالمجانين. استغرب عدم شعوره بعذاب الضمير أثناء تقبيل يد سيفي، بل شعر بنيله حقه».

قال سيفي: «آه منك، آه.. اسمكم جميل أليس كذلك؟»

«جمال يا سيدي»

«لا تؤاخذني يا عيني، في الأيام الأخيرة لم يعد عقلي يعمل جيداً، لابد أن هذا بسبب الحر» عندما أغلق الباب خلفهم ودخل إلى البهو شعر بألم شديد جداً في منطقة الحاجبين، ومنها انتشر إلى جميع أرجاء الجبين. قال: «أف». عندما كان يقول أفّاً، كانت نيغار تقول له: «ما بك؟ أتفكر في النساء اللواتي حرقتهن بنار حبك قبلي؟..»

قال مصطفى بصوت عال، يريد إسماع نيغار: «يبدو أننا أيقظناكم من النوم» لابد أن نيغار تجهز نفسها في الغرفة الخلفية. ما يجعل عقولهم تغلي انتظارهم ثوبا لافتا للغاية، وموقفاً مثيراً إلى حد إسقاط الرجل. بحث فيما حوله بنظرات لا ينتبه إليها أحد، ولو انتبه، فلن يعرف حقيقتها.

قال سيفي: «لا يا عيني، سهرت مخموراً قليلاً» كان عارياً من وسطه إلى الأعلى. ابيّضَ شعر كتفيه وصدره. إنه بدين. أكثر البدينين قصيرو القامة. ثدياه متهدلان كثديي امرأة عجوز. لون فمه الزهري يبرز وسطه أسناناً سليمة وأخرى متسوسة، عندما يتثائب. «الحر قاتل يا عيني. أتشربون شيئاً بارداً؟»

قال أدهم: «حسن، ولكن اذهب، واغسل وجهك أولاً يا أخي»

«كنت على وشك أن أغسله» قال سيفي هذا، وذهب مقدماً اعتذاره.

بهو البيت يعيث فوضى، كبيت عازب ينظف كل خمسة عشر يوماً مرة. ألقي على مسند كرسي زوج من الجوارب القديمة جداً ، والمرقعة. ثمة قميص بلون الكريم، وبنطلون بني كأنهما رميا في لحظة غضب لا يعرف سببها، غطى الغبار الطاولات الصغيرة، وكتب عليها بالإصبع حرفي «ن» و «س». هنالك طبق بيض بالطماطم، وزيت الزيتون على إحدى تلك الطاولات أُكل نصفه، وطبق سلطة لم تؤكل طماطمه، وبصلة، ولفة جبنة مفتوحة لكنها لم تلمس، وأربع حبات بطاطا غير مقشرة، وأربع خيارات قطِّعت بالطول، ورماد سيجارة في طرف الصحن، وكيس تشكيلة بندق وفستق وحمص، وزجاجة فوتكا بقيت نصفها، وزجاجة بيرة. مقبض شوكة مرفوع نتيجة سقوط زجاجة بيرة فارغة فوقها. كانت قد انحسرت رائحة عطر الصنوبر الذي تتعطر به نيغار، ومصطفى يميزها أكثر من الجميع، ويرخي جفنيه، ويستنشقها إلى داخله. أين نيغار؟ أتراها مريضة؟ إذا كانت مريضة، فهل تنام في الداخل وسط لهب الحر؟ فقد وعيه لحظة، نهض، توجه إلى الظلمة التي تنشرها بداية الليل دون أن يراه أحد. ثمة أشياء تحدث في داخله؟ ركض، بكاء، نشيج رجل في مأزق. يد امرأة ترتدي الأبيض تمتد

لتنقذه.. جلس.

قال سيفي: «صحوت قليلاً»، هدأت آلام رأسه، كأنها خافت من الماء البارد، وانشداد جلد وجهه الذي كان متراخياً قبل قليل.. ذكرته وقفة أدهم باستعداد حافلة لتسلق جبال (بلو). شتم نيغار إذ تلقى خبر علاقتها بمتعهد ذي سن ذهبية على أريكة زرقاء وراء قفل غرفة فندق تخفي أشجار الصنوبر لونه القطراني، والهواتف ترن فيه. استيقظت ذاكرته عندما هم برفس الباب، فقال: «هل قرعتم الجرس كثيراً يا عيني؟»

قال أدهم مبتسماً لتذكره ما تخيله أمام الباب: «لا»

«دوّخني المشروب، والحر، والمخلل. إنني أشرب منذ الظهر» في صوته يأس، وقنوط واضحين، كأن نظراته تقول: «حسن أنكم جئتم من جهة، لو أنكم لم تأتوا من جهة أخرى» كان جمال قد دقق، وبحث في أسباب هذه الفوضى التي رآها عند دخوله البهو، وفي أسباب تصرفاته المتناقضة بين المنطق واللامنطق. تضايق عندما فهم أن مناقشة الأمور ستقوده إلى نتائج أسوأ مما يتوقع على الرغم من إسنادها إلى حقائق، وفهم أنه سيخسر، لاحت له شاخصة تبين له ابتعاده عن صراع أوقف خلفه. لابد أن ما حدث في هذا البيت مشابه لما خمنه. لنر إذا كان مصطفى يتناول الأمور ببساطة، والساعي لإشباع رغباته في أضيق المآزق مصيباً في إعجابه بسيفي من خلال كلامه، ومحاولاته لإضحاك الآخرين في سبيل نيل الحظوة، ومن أجل الوصول إلى سيفي آخر، وهل يستطيع أدهم فهم هذه الأمور؟

قال أدهم: «أين أختنا؟»

حك سيفي أذنه. نظر إليه من خلف تلة بعيدة من الأفكار التي يطارد فيها نيغار. في جهنم . لا، لا. هي في الجنة، وأنا في جهنم. في الحقيقة كان ينتظر هذا السؤال، ولكن بعد أن يرتاحوا. لم يدن أدهم. لأنه من الواضح ملاحظته غياب شخص تعود رؤيته، قال متأنئاً: «كانت هنا. مرضت أختها، فذهبت إليها».

قالوا: «حمداً لله على سلامتها».

انفرجت أسارير مصطفى لوجود نيغار بجانب أختها. هذا يعني أن مكانها معروف، ولن يستعجل بالأسئلة لمعرفة وضعها، وسيعود بذكرياته إلى أكثر اللحظات سعادة. كما إنه حزين، لأنه أتى على أمل قضاء بعض اللحظات السعيدة معها.

شد سيفي بنطلونه مرخياً الحزام، قائلاً لنفسه: «لو أنهم لم يأتوا. إنني لست على استعداد للكلام مع أحد»

قال جمال: «يبدو أنكم محروقون بالشمس».

وكيف؟ لا أحد يحترق مثلي. هز رأسه: «كنت في ديار بكر ياعيني. تجولت على المخازن حتى شعرت بالانهيار.. قلت لي إنك طالب، أليس كذلك؟»

«نعم يا سيدي. أدرس الحقوق»

قال أدهم: «إنه يبحث عن عمل يا أخ سيفي»

«سأجد له عملاً، وخلال بضعة أسابيع على الأغلب»

قال جمال: «شكراً لكم يا سيدي»

بعد كل وجبة طعام كانت عبارة: «سلمت يداك يا زوجتي العزيزة، أو«طعامك لذيذ مثلك» تحيل وجهها إلى وردة تفتحت للتو من الفرح. كان متأكداً من وجودها عند أختها، لأن الهاتف يرن عدة مرات ثم يعطي شارة مشغول، فهو إما معطل أو مفصول لكي لا يتصل بهم أحد. «دقيقة من فضلكم». ذهب إلى غرفة النوم. اتصل بصيانة الخطوط الهاتفية، لم يكن معطلاً. «أشكركم» الأمر كما فكر تماماً. لقد أقدمت على هذا العمل بعد استشارة أختها. لعلهما تتحدثان حول هذاالموضوع منذ فترة طويلة. «ماذا سأفعل» جلس إلى حافة السرير المرتب، ونظر إلى الوسائد، ولمسها كما لو أنها جسد نيغار. لم تشهد هذه الغرفة لحظات اللذة الجنسية فقط، بل شهدت لحظات اللذة الروحية أيضاً. تهاوت إلى حفرة ذاكرته صور الهمسات المثيرة، والهذيان، والمرض، والاستيقاظ بخوف أو فرح، والعناق،وتبادل القبل. إنهم ينتظرونني. جئتم في وقت غير مناسب. عاد إلى البهو مع خيال نيغار، وجلس على المقعدالذي كانت تجلس عليه «إلى أين وصلت في أمر قيادة السيارة يا عيني؟».

قال مصطفى: «أتلقى دروساً عن المحرك الآن. سأحصل على رخصة القيادة في أقل من شهرين»

خيال نيغار على كرسيها: «ستنزهنا يوماً، وتأخذنا إلى البوسفور، أليس كذلك؟»

قال مصطفى: «حيثما تأمرون» سيصعد نيغار أولاً، ويتجول بها في مناطق (كيليوس)، (يالوفا)، (بورصة).. حتى تقول: «كفى».. «وهل ستبقى أختنا كثيراً عند أختها؟»

كان الخيال يحبك نسيجه. قال: «أسبوعاً». وشعر أنه دخل تحت تأثير محاولة السيطرة على أحاسيسه، فخرج صوته مرتجفاً. انتابته

موجات من البكاء منذ تركته نيغار. بعد هذا شعر بتراخ في جسده، وآلام داخله، وارتجاف صوته. والآن حُمِّلَتْ نظراته بحقد وعداوة. فجأة أصبح يشعر بتدفق العرق البارد، وبتسرع ضربات قلبه، وبآلام حادة في بطنه.

قال أدهم بخوف: «مالك يا أخي؟ ماذا جرى لك؟ هل فقدت توازنك؟»

«كأس ماء»

مسكه جمال من كتفيه وقال له: «تمدد»

«ليس مهماً يا عيني، سأعود طبيعياً الآن»

قال أدهم: «اشرب رشفة أخرى، ستعود طبيعياً بالتأكيد»

شرب. شعر بأن لحمه يخرج عن عظمه، ونيغار تطعم الألياف التي أخرجتها من قبر أبيه للديدان التي تجعلها تهاجمه، وتدخل ميكروبات بحجم ذرات الملح إلى عروقه لتمتص دمه. سيطرت على عقله أفكار مثل: «هل سأموت؟ إذا مت فلم أشبع من الحياة، أو سأموت عندما كدت أن أصل إلى السعادة» لا، لا، إنه إنسان بسيط غير مهم. لو لم يكن هكذا لما تركته زوجته. لذلك من غير اللائق ذكره لتلك الكلمات التي تراوده. عليه أن يتكلم عن تلك اللحظات التي كان فيها بين ذراعي نيغار الدافئة فقط. «احببتك دائماً. أتمنى أن تحصلي على ما لم أستطع تقديمه لك من رجل شريف..» هدأ ألم ذراعه الأيسر، وخف ضيق صدره. عَدَّلَ جلسته وهو يبتسم، وبدأ بإخراج الغازات التي تضغط على بطنه. انزاحت الستارة المسدلة على عينيه، وأصبح كل شيء في مجال رؤيته الصافية إما ساكن أو متحرك. جفت زهور خياله في مزهريتها.

استنشق (كلونيا) الليمون التي وضعها له أدهم، فتسريت قطرة أو قطرتان إلى أنفسه، وبدأ يسعل. حَسَّنَ السعال وضعه إذ مسح ورمى بقايا التعب عن مفاصله: «عدم المؤاخذة يا عيني»

قال أدهم منفعلاً: «هل تحسنت يا أخي؟»

قال جمال: «لعله تشنج عضلي»

«لا يا عيني، مجرد دوخه.. من الممكن أن يكون انخفاضاً في الضغط.. التعب، والمشروب، والحرارة، ومرض أخت زوجتي..» لو لم يلجم لسانه لانزلقت كلمة «نيغار». نهض. غسل يديه ووجهه بالماء. خياله في الصنبور منتصب كأنه يتحدى الحياة. عندما تراه نيغار هكذا تشبهه بتمثال أتاتورك في منطقة (سراي بورنو). التمثال يغمز بعينه في خياله.

قال أدهم: «إذا كنت لا تشعر بأنك تحسنت، فلأستدع طبيباً»

«أشكرك. أنا مثل الحديد يا عيني. أتت الحالة، وذهبت.. إيه، ماذا نأكل؟ أظن أنكم جائعون»

قال أدهم: «لا تتعبوا نفسكم»

قال جمال: «بعد كل هذا التعب، يجب أن ترتاحوا.. لنذهب نحن»

أمسك سيفي بجمال من كتفه. «مستحيل. لم نتحدث بعد. انظروا، لدينا بعض المأكولات، وبطيخ وفاكهة تشبه المشمش. سأعد لكم بيضاً (بالبصطرمة) والفلفل والطماطم، ومكرونة بالزيدة الرائعة التي جلبتها معي من دياربكر. ما رأيكم يا عيوني؟» أصبح أكثر سروراً. سُرَّ لزيارتهم بعد أن كان يشعر قبل قليل بعدم مناسبتها. وهو الآن يستمد قوة من كل

واحد منهم. تذكر نيفار. هنالك فكرة تشده بقوة إلى هذا المكان أثناء فترات شروده القصيرة. كانت نيفار تعد لهم عدة أنواع من الطعام، وتجهز الطاولة بسرعة البرق «كنت أشعر بامتلاء حياتي بكِ حتى لو كنت بعيدة. لم أشعر بالوحدة أبداً».

قال أدهم: «كما تريد، ولكن يجب أن نساعدك»

قال مصطفى: «سآخذ هذه الأشياء إلى المطبخ»

قال جمال: «هل أستطيع تحضير صحن سلطة؟»

«اعملوا ما يحلو لكم»

ليس ثمة ما يقال عن البيض بالبصطرمة. طعم اللحم النيىء اللين أثار شهيتهم، والمكرونة شهية جداً إذا وُضِعَ لها ورقة نبات على طريقة نيغار. ضاع الخيال. عندما كان سيفي يطعم الأولاد شَعَرَ بمتعة الأب الذي يطعم أولاده. كانت نيغار تجاملهم جميعاً، فتحول جلسة الطعام إلى احتفال. تطعم إلى حد التخمة مصطفى الذي يقول: «عندما أراها أشعر باختناق في داخلي». وضع سيفي أسطوانة للمغني حافظ برهان على (الجرامافون) الذي اشتراه لنيغار في عيد ميلادها من سوق الأدوات المستعملة: «تغريد الطيور موزع على السهول». قال جمال الذي يسمع صوت حافظ برهان لأول مرة: «القديم أجمل ومعناه أعمق» قارن سيفي بين حياته الآن، وحياته قبل خمسة وعشرين عاماً، وتحدث عن المتغيرات الحياتية، حسنها وسوئها، وكيف فرغ الجهل مفهوم الجماعة من محتواه، وكيف استهلكت الضغوط الاقتصادية القيم الأصيلة، وأوجدت أناساً يهيمون على وجوههم. أضاف جمال إلى هذه الأسباب الصراع السياسي، والتنافس المصلحي، لكن أغنية «خبأت المساء مثل

ســر لسنوات» أسكتت الجـالسين إلى الطاولة. مـال مـصطفى برأســه. نيغار تسير، تقفز، تسرّح شعرها، تنظر بعينين تثيران الدهشة.

استنشق سيفي بعمق كلمات: «هذيك باسمك في الليل»، «هو في خطوط اسطوانة خيالك، يرقص ويدور» جلبت كل الحزن المعاش، والمنسي في القلوب اليائسة والجريحة والمختنقة، وضاعفته ووضعته أمامه فأدمعت عينيه. مئات الألوف من صور نيغار تتبدى له في كل شهقة نفس، وفي كل حرف من حروف الكلمات التي ينطق بها، وفي مئات ألوف النظرات التي ينظرها لمخلوق خالد يتحرك أمامه. «لن أتحمل هذا الألم». شرب.

لم يعجب أدهم وضع سيفي. ذهب ذلك الرجل الذي كان يضحك أثناء عبوس الجميع، ويجعل للحديث معنى في أكثر المواضيع عبثية، ويستعرض مهاراته البهلوانية في جُمَلِه الملونة، ويغسل صدأ قلوبهم بنكاته وحركاته المضحكة، وحل محله رجل بارد يهرب من الحديث. هل هو مريض؟ أهو مريض منذ زمن طويل، أم أصيب بالمرض حديثاً؟ لِمَ هي مصطنعة ضحكته؟ كم هي بعيدة عن الضحك؟ لم تكن ضحكة، بل كانت تمرد أو لعنة. كانت كقطع من روحه ينتزعها ألم فظيع وقذر. إنه يتقلب تحت ثقل حادثة فجيعة. «أنخابر الأخت نيغار، ونسألها عن حالها وصحتها؟..»

قال سيفي: «نخابرها، نخابرها يا عيني.. بصحتكم» وشرب دفعة واحدة نصف قدح من الفوتكا. عندما نزل المشروب إلى جوفه سُلِقَتْ معدته، وتوترت عروقه، وخرجت النجوم التي تدور في فلك مخيلته. أوووه.. وازن نفسه. النسيان والتذكر عنده سيان. يقفز من هنا إلى هناك دون توقف. نهض، وقال لأدهم: «تعال نقسم البطيخة» أغلقا باب

المطبخ. غسل سيفي يديه بالماء والصابون. «طالت لحيتي يا عيني» مشط شعره. وضع بعض المعقود على قطعة خبز وقضمها. خرج له الخيال من الثلاجة ضاحكاً. «اقسم هذه البطيخة يا عيني».

قال أدهم: «أنت في هذا المساء غريب جداً يا أخ سيفي»

قال سيفي بنبرة عالم: «الحياة مليئة بالغرائب يا عيني. أحياناً تضحك، وأحياناً تبكي» وأشعل سيجارة. رأى وجهه في المرآة فارتعد «أصبحت عجوزاً، مع أنني في بداية الخامسة والأربعين».

قال قبل قليل: «نخابرها». لو كانت أخت زوجته مريضة، أليس من الواجب أن يكون بجانبها؟ قال أدهم بتردد: «هل اختلفتم مع أختنا؟»

أغمض سيفي عينيه وفتحهما، وقال: «آه لو أننا اختلفنا». وتابع بلهجة يائسة: «اختك نيغار تركتني وذهبت».

حملق أدهم عينيه. اهتز كأنه طُعِن بسكين، فاستدار إلى الجدار: «ماذا تقول؟ صحيح؟ ارتبكتُ، وتوقفَ عقلي عن التفكير، لا أصدق! الأخت نيغار تعمل هذا؟..»

قال سيفي وهو يتخيل أن البطيخة تثني مقبض السكين: «عملتها مع الأسف، عملتها يا عيني» كان فرحاً عندما عاد يوم الاثنين من ديار بكر. ركب سيارة أجرة ليصل في أقرب وقت إلى نيغار، ويلتقي بها. شعر بانقباض في صدره. كان يدفعه إلى السرعة إحساس غريب بوقوع ما هو سيئ. قرع الجرس ولكن دون جدوى، مع أنه أخبرها هاتفياً بعودته يوم الاثنين. فتح الباب بمفتاحه. منذ اللحظةالأولى استغرب الصمت المطبق. كل شيءمنظم، وكل شيء نظيف يلمع. هل ذهبت إلى الجيران يا ترى؟ هل ذهبت مع أختها إلى السوق؟ رأى

الظرف فوق الخزانة الصغيرة. فتحه بسرعة، وشعر أنه سيجن أثناء قراءته. كل كلمة من الرسالة نزلت على رأسه كالفأس. قالت إنها عزمت على تركه منذ زمن طويل لكنها أشفقت عليه، وبإشفاقها أصبحت تشعر بالحاجة إلى الاشفاق عليها، وإنها لم تحبه في أي وقت، وصبرت عليه كي لا تهدم حياتهما الزوجية، ولن تكون مخادعة أكثر من هذا، ولن تدع عمرها يهدر مع رجل لا تحبه، وتضيف: «أنتَ بالنسبة إلي انتهيت. أسس حياة جديدة، ولا تنتظر عودتي، لأنني لن أعود».

اصفر وجه أدهم: «كنت أتوقع موتي، ولا أتوقع...»

قال سيفي: «رضع الناس حليب البقر، اليوم غير الغد. من يضمن أن امرأة لن ترفسك أنت أيضاً بعد عشر سنوات؟»

قال أدهم: «معك حق يا أخي، معك حق. لأن الأخت نيغار عاملتك وكأنها تحبك»

قال سيفي: «امرأة ذكية» وارتاح لأنه أفضى ما بداخله.

سأل أدهم خجلاً: «هل كان في حياتها رجل آخر؟»

«علمي علمك يا عيني.. خذ المشروب، ولا تبدي شيئاً للشباب»

عندما عاد أدهم إلى المطبخ حاملاً كؤوس المشروب الفارغة، سمع مصطفى يصرخ: «دنيا فارغة» أثناء أغنية «غرامك مثل السر..». وضع أدهم قطع البطيخ في زورق، وقال: «ماذا ستفعل؟»

قال سيفي: «سأنتظر يا عيني.. سأنتظر.. هذا إذا استطعت الانتظار»

«هل ذكرت الطلاق؟»

«لا.. ليبق هذا الموضوع بيننا، لا توحي للآخرين بشيء»

«لا تهتم لهذا الأمر.. ولكن أنت لا تغضب»

قال سيفي وهو يجمع حَبَّ البطيخ ويرميه: «سهل قول هذا. لو كنت مكاني لانتحرت. كتبت كلاماً..»

قال أدهم: «صحيح، صحيح.. يقول المثل، لا دواء للموت أو القهر..»

«طبيعي. ولكن اشرح هذا لقلبي.. ألومها من جهة، وأعفو عنها من جهة أخرى. باختصار، وضعي سيئ جداً يا عيني»

شريا. أطلقت ثلاثة عيارات نارية. صفّر رجال الأمن. ثم انبعث صوت أحد السكارى يعني «هناك احتمال آخر» لمع في رأس سيفي برق متشعب. كلمات أعجب بها، لكنه لم يدرك أهمية البحث فيها، وهي توضح أهم جوانب علاقتهما. كانت نيغار تردد في الشهر مرتين على الأقل، عندما تسنح لها الفرصة: «بالنسبة لي، هنالك صيحتان لهما معنى. الأولى صيحة الطفل عندما يولد، والثانية صيحة المرأة عندما تلد». «كم أنا مخدوع بنفسي؟ إنها تتصرف هكذا لأنها لا تحبني، مع أنني كنت أقول لنفسي: مزاجها هكذا»

قال أدهم: «أنذهب إلى البهو يا أخي؟»

دفع سيفي الباب وقال: «لنذهب. لنذهب.. وعذراً لأني حدثتك في موضوع شخصي»

قال أدهم: «استغفر الله»

قال سيفي: «لنشرب يا شباب. لنشرب. المشروب وافر» نظر إلى الجدار بعينين متقلصتين. وشعر بالضيق لإحساسه بأن ثمة سراً مخبأ في شفتي نيغار، وهي متضايقة لإخفائه «إنها لا تحبني». نظر إلى الفم في الصورة بشهية مفرطة. عندما يكون في اسطنبول يحرص على تقبيلها في كل مكان من البيت، في البهو، أمام الستائر المسدلة، في الغرف، في الحمام، أينما كانت نيغار، ليلاً ونهاراً. وعندما يكون في الأناضول فهي أول ما يتخيله، وشفاهها أول ما يفكر فيه، ومن ثم عيناها ونظرتها (كان يستبعد تعبها واكتئابها، ويفترض النشوة وانفعالات الرغبة) هذا ما لاحظه فيما بعد. في أي بيت، أو فندق، أو منتجع هي؟ مع من؟ أتراه ذلك المتعهد ذو السن الذهبية الذي يتخيله. غرزت الغيرة مخالبها في رقبته، وضغطت. ضاق نَفَسُهُ. شرب الفوتكا دون إضافة البيرة. قدح الشرر من عينيه. لم يسمع تنبيه أدهم: «كفى، لا تشرب. ستسوء حالتك» إنه لا يستطيع تخيل نيغار مع رجل آخر متعانقين، وشفتي كل منهما على شفتي الآخر. عقله المتخدر يخلع عليه مظهر المرض، ويبعده عن البهو. فجأة انهارالبناء بطوابقه العشرة، وتحطمت أعمدته وجسوره، وتصدعت جدرانه، وتَحَطُّمُ النوافذ والأبواب يحطم وجه نيغار المصبوغ، ويفقأ عينيها. تدحرج رأسها المقطوع إلى الشارع، اصطدم بالحجارة، ثم أمسك بذلك الرأس المدمى، ورماه إلى اللانهاية. «هل جننت؟» ضغط على صدغيه بيديه. «لن أدعك تصبحين قلب أحد يا نيغار، لن أدعك تعيشين!». وضع يده على رأس أحد الشباب، وقدم لهم السجائر وهو يشعر بالتزامه بهذا القرار. «أنغني الأغنيات تغنيك؟ أنا أحبها كثيراً» هذا ما قاله المطرب يشار أوزال بصوته العميق الذي قلب ذاكرة الشباب رأساً على عقب. طفحت عينا مصطفى، وفكر أدهم في خطيبته أرظو «لن يزعزع زواجنا أي شيء» لاح لجمال قدره الأسود عندما صافح (نورتان) مودعاً، لتقضي عطلتها في

مدينة (آيضن). لعل سيفي كرر شطر: (امرأة متقلبة وحلوة) من الأغنية عشر مرات «سأهدم هذا البيت، وأحرق نفسي» ضحك ضحكة متواترة قبل أن يحكي نكتة. لم تكن ضحكة عادية، بل انعكاساً لتصدع داخله. حالة سيفي أحزنت أدهم كثيراً. لقد انهار وانتهى. متى وكيف سيتخلص من تأثير هذه الصدمة، ويترك نفسه لتدفق الحياة اليومية بأحداثها العادية وغير العادية؟ هو لا يدين نيغار، أو يلقي كل اللوم عليها. لأنها منذ عدة سنوات تحاول إسعاد رجل لا تحبه. إنه تصرف يجب أن يحترم، لأنها ألقت برغباتها وتصوراتها عن المستقبل جانباً، ونجحت في إسكات فورة ذاتها، لكنها في النهاية هُزِمَتْ في هذه الحرب، حرب إسكات ذاتها. وقعت نيغار في خطأ واحد، هو أنها كانت تستطيع التكلم مع الأخ سيفي،وتذهب بالتفاهم، وليس كاللصوص، لأن سيفي رجل متعقل. لهذا لن يسامحها. لو كان لا يحب أرظو لقال لها هذا فوراً، ويريد أن تعبر له أرظو عن مشاعرها بحرية. شربوا.. خيّم الحزن على البيت، وكأنه مليء بالأشجار التي تنساب بينها الأفاعي والعقارب، وهذا ما يغلق الباب على المراحل بريقاً وعطاءً بالنسبة له وللآخرين أيضاً. «لا تعجبني عينا هذا الرجل. هنالك جنون في...»

قال سيفي: «كلوابطيخاً، إنه حلو جداً. وها هي أغنية: الأغنيات تغنيك، من الموسيقى الخفيفة» كان يهتز، لا يستطيع الوقوف جيداً. نظراته طائشة. لا يفهم منه ما يريد، وما يقول، كأنه ترك نفسه لتيار يرفعه ويخفضه. وكل شيء مغطى بالضباب.

أطلقت خمسة عيارات نارية. هرعوا إلى النافذة عند سماعهم وقع أقدام تركض. ثمة امرأة عجوز يتدفق الدمع من عينيها وتصرخ: «أمسكوه، أمسكوه، قتل ابني الشاب الذي كان كالسبع» والناس تلحق بالقاتل.

قـال أدهم: «رجـاءً يـا أخ سـيـفي» وأمـسـكه من ذراعـه، وأثنـاء تدويره نادى مصطفى وجمال.

«حسنٌ، حسنٌ.. أنـا بحـالة جيدة، وأجـود من جـيـدة.. ارقص لأخيك سيفي» وبدأ سيفي بالرقص.

بكى أدهم.

قال مصطفى: «يا أخ سـيفي، يا أخ سيفي.. أنا مصـطفى.. لا تخيفنا» فجأة، فقد سيفي توازنه وسقط.

حملوه من ذراعيه ورجليه وأدخلوه إلى البيت. عندما كان أدهم يتصل بأخت نيـغـار تصـاعـد صـوت صـراع من (قـهـوة الشـبـاب)التي مُـشِّطت بالرصاص.

بيلغة قرة صو

ولدت في اسطنبول عام ١٩٣٠

درست في جامعة اسطنبول، كلية الآداب، قسم الفلسفة. عملت بالترجمة في مؤسسات عامة وخاصة. فازت بجائزة مجمع اللغة التركية في مجال الترجمة عن عمل د. هـ. لورانس: «الرجل الميت»

تستخدم في قصصها أسلوباً تعبيرياً يمكّنها من الدخول إلى عوالم أبطالها الداخلية، وحياتهم بجوانبها السرية، وتعكس اللاشعور عندهم. تدخل في أدق التفاصيل، وتتناول مفارقات غنية بأسلوب تعبيري يحسب حساب الانفعالات الداخلية، والإيمان والكبت، وتتناول الوقائع المحلية التي تحاصر إنسان المدن الصغيرة، والعوالم نصف المظلمة للعصور المتوسطة في أوروبا..

أول مجموعة قصصية صدرت لها هي: (موت في ترويا ١٩٦٣)، ونالت عن مجموعتها التالية: (مساء يوم طال كثيراً١٩٧٠) جائزة سعيد فائق للقصة عن عام ١٩٧١. ثم تتالت المجموعات القصصية منها: (حديقة القطط المهاجرة ١٩٨٠)، (مقهى النصيب ١٩٨٢).

لها رواية بعنوان (ليل) صدرت في عام ١٩٨٥.

فجأة ظهر في أسفل يمين أنفه... عندئذ انشغلتم بالتفكير بما ستفعلونه كونكم بهلوانا شابا...

لنعد إلى البداية.

المعلم أمامكم.

أليس المعلم إلى حد ما هو الشخص الذي تمرس على طريق كسب لقمة العيش؟

الذي أمامكم أخذه معلمه عندما كان صغيرا، ودربه، وعلمه فن اللعبة، وجعله أشهر البهلونات الشباب، وأوصله إلى ما وصل إليه اليوم.

كم مرة خرجت العلاقة التي بينهما من كونها علاقة معلم بصبيه. كان الشاب يرى نفسه ابن العجوز، والعجوز ينظر إليه كابنه. ويعرف به أمام الآخرين قائلا: «ابني». أي معلم يحرص عندما يريد مخاطبة صبيه ألا يناديه «ابني»، أو يذكر اسمه. حديثهما لا يبدأ بنداء. إذا كان ثمة شخصان يغوصان في تفكير عميق، ويريد أحدهما تنبيه الآخر فيخرج من حنجرته صوتا، لأن الاثنين يخجلان من تنبيه بعضهما بعضا، فيعمل كل منهما على إبداء نفسه وكأنه ينظف بلعومه باذلا جهده كي يضيع الصوت الذي أصدره في الجو. يبدآن الحديث من منتصفه، أو يربطان حديثهما بما انقطع منه قبل يوم أو أسبوع. إذا دخلا برهة شرود يعتبران أن أي أنّة أو غمزة، أو زم شفة أو أبسط كلمة، عيب في عرفهما من أجل العودة في الحديث إلى حيث توقفا. لذلك كان أصدقاؤهما ورفاقهما يلاقون صعوبة في متابعة حديثهما، وينظرون إليهما باستغراب... اعتاد البهلوانات هذه التقاليد حتى وصلوا في ظنهم أن لا أحد في الدنيا يستغرب حديثهم هذا. يحاولون التحدث مع أي

شخص بهذا الشكل، ودون خجل يصدرون أنات ونحنحات، ويغمزون، ويزمون شفاههم، وبعد برهة يخجلون، ويستيقظون، ولكنهم لا يصحون تماما، ويتصببون عرقا عاملين على جعل حديثهم مفهوما.

كان يرى الشاب نفسه ابن العجوز. ولا يرى معلمه كأبيه فحسب، بل كأمه أيضا. كان يرى معلمه كأُمِّه التي ولدته وأرضعته وربته. عندما شعر بهذا لأول مرة، تضايق لغرابته وشذوذه، وفكر في أنه لا يمكن أن يتحدث به مع معلمه. فيما بعد أصبح يشعر بشذوذ، وغرابة عدم التحدث إلى معلمه بهذا، لأن معلمه بدأ يشعر بإخفاء شيء ما عنه. في إحدى الليالي، بعد العرض بينما كانا مستلقيين تحدث بهذا معه. تناهى من الفراش القابع في الزاوية المقابلة صوت ضحك مخنوق، بينما شعر هو بأن ما قاله كان خطأ حتى ولو كان لمعلمه. فأطرق رأسه، وشعر بأن العالم انهار فوق رأسه. عادت ضحكة معلمه طبيعية. لم يهدأ الضحك حتى مطلع الفجر. قال له معلمه: «يالك من شاعر!» ثم بدأ الشخير. كانت الفكرة شاذة فأضحكت معلمه، لكنه استمتع من هذا، أو هكذا بدا. عاد العالم المنهار فوق رأسه إلى ما كان عليه، ولم تعد تذكر هذه الفكرة. أصبح توحدهما سمة تلازمهما.

بعد أشهر أقدم على خطوة خاطئة أسقطته، ذكرته يدا معلمه «المنقذتان» بأمر ما. بعد العرض وقبض النقود من صاحب السيرك، وتمنيه للآخرين بليلة سعيدة، وفي أثناء ذهابه إلى البيت بصحبة معلمه، كان يعمل على استنتاج ذلك الأمر الذي تذكره في أثناء العرض، فلم يستنتج، وكذلك في الليلة التالية في أثناء سقوطه نحو الحلقة.

تشوشت أفكاره. أدرك الأمر. شعور الأمومة الذي وجده في معلمه لم يكن إحساسا شاعريا أو أدبيا. كان يصغي إلى شخير عمه من خلف

الباب المغلق. لم يسمح له بالدخول إلى تلك الغرفة منذ أيام، ولأنه لا يسمح له بالدخول إلى هذه الغرفة، ولا يدخل إلى المطبخ أو دورة المياه إلا عند الضرورة القصوى، كان يقضي سهرته جالسا على عتبة بيت الدار صامتا منذ أيام. الآن، أمام الباب يسمع الشخير. يدفع الباب بهدوء. لا أحد بجواره. أي لم تكن أمه موجودة ولا جَدَّته.

بينما كان يهوي نحو الحلقة، وبدلا من مسك معلمه له من حزامه، أمسكه بالكاد من معصميه. من الواضح تماما أنهما يدا أمه. ليلتها، عندما دخل معلمه إلى الغرفة، أنّبه بعد أن بَدَّل ثيابه. لم يؤنبه هكذا منذ طفولته، ومنذ كان في بداية تعليمه. سكت واستمع له. عندما قال معلمه بعد تأنيب كأنه امتد لساعات: «قل لي، لماذا حصل هذا؟ كيف تجمدت هكذا؟» لم يستمع إليه على الرغم من أنه بدا وكأنه يستمع إليه، وكان يظن المعلم أنه مازال يستمع.

شرح الأمر لمعلمه، كأنه يعيش كل شيء ويراه، لكنه بدأ الحديث مما يعرفه معلمه: تحدث عن موت أبيه، وخرف جدته، وتمصيل عمه لمصروف البيت، ورعاية أمه لمن في البيت. في تلك الأثناء كان قد مضى شهران أو ثلاثة على إتمامه السنتين. أمه قالت له هذا فيما بعد. كأنه يرى نفسه في المرآة وهو يلبس الصدرية المزهرة بالأحمر والأخضر. جدته لا تتحرك طوال اليوم. تجلس في مقعد غريب له مساند من كل الجهات. عندما تصبح الرائحة وخاذة في مقعدة تحت الكرسي لا تشبه تلك التي يقعد عليها، فهي أكبر، وأكثر استدارة وحمرة من مقعدته، تأتي أمه لإفراغها. وبعد أن أصبح الجو حارا بدأ يجلس على عتبة باب الدار من الصباح إلى المساء. في ذلك الصباح وضعتْ أمُهُ جدتَهُ بجانبه، وكانت جدته تغفو باستمرار. أمه غير موجودة، خرجت بسرعة قائلة سأعود بعد قليل. إنه لا يستطيع الوصول إلى مزلاج الباب وتدويره،

ولكن عندما استند إليه شعر بأنه ينفتح. اقترب من عمه، فوجده نائما على ظهره. شكّله مازال شاخصا أمام عينيه في ظلمة ناجمة عن إغلاق الستائر بإحكام. أيا ترى كان عمه ينظر إليه، أم أن فمه مشدود وكأنه يريد أن يبتسم، أم يريد أن يقول شيئا مع آخر نفس خرج من رئتيه؟ هو لا يعرف في هذا العمر. فجأة أمسكته يد من معصمه وأخرجته بهدوء. إنها يد أمه. هز رأسه الرجل الآخر، أظنه أتى معها. جلست أمه على عتبة الحمام، وأسندت رأسها بيديها دون أن تتبس. كان خائفا، وصامتا، مد يده ولمس ركبة أمة. أنزلتْ يدها عن صدغها وغطتِ بها يده، فتبدد خوفه. كان في وجه عمه، وفي أسفل الطرف الأيمن من أنفه - إنه يدرك اليمين من اليسار الآن، وهو يستطيع تخيله كما لو كان أمامه - بقعة كبيرة لم يرها من قبل. بدأ يفكر في الشامة.

عندما سمع معلمه هذه الأشياء، أنّبه مرة أخرى، لكن لمدة قصيرة هذه المرة. على الرغم من هذا استمع جيدا إلى معلمه: يجب ألا يخطر ببالك أمور كهذه في أثناء العمل. يمكن لليدين اللتين أنقذتاه ألا تمسكا بخصره أو معصميه في يوم ما.

وبناء على طلب معلمه لن يفكر في الذكريات الخاصة والماضي. سيحصر تفكيره في عمله ومعلمه فقط. وعليه أن يمسح ذكريات أمه وجدته وموتهما من عقله وقلبه، ومسح ذلك فعلا.

مسح ذلك، لكن ذكرى واحدة بقيت تقاوم على الرغم من كل محاولات المسح... لا يستطيع أن ينسى الشامة في أسفل يمين أنفهما. لم يلحظ خلال الأيام الأخيرة، في ذانيك الوجهين اللذين يظن أنه يعرفهما إلى حد رسمهما غيبا، ذلك الشيء البارز فيهما، ويقول لنفسه: «كيف لم أنتبه؟» وفكر كثيرا وحزن على الرغم من أن تلك الشامة كبرت

حتى صارت بقدر حبة الزيتون يوم موتهما.

فهم. هذه الشامات من خصائص أسرتهم. في الحقيقة لم تكن موجودة تلك العلامة في تلك الوجوه، لكنها تظهر عندما يقتربون من الموت، وتصبح بهذا الحجم عندما يموتون.

كان شابا. تعلم عدم الاكتفاء بالمعلومات المتوفرة دون تقييم الأمور والبحث فيها. في يوم ما كلف معلمه صبيا بالعمل في منتصف الحبل.

كان يوما صيفيا. لا أحد يعرف خطورة العمل في مكان قريب من ذروة خيمة السيرك إلا البهلوانات. معلمه ينظر إليهما من الأسفل، ويوجّهها. الشاب سيعمل أمام الجمهور بعد أسبوع. هو مضطر للعمل بجد. وفي يوم حار كهذا لا يصعد المعلمون إلى هناك. وبما أنه أصبح في مرحلة متقدمة فمن واجبه أن يدرِّب الصبي الجديد.

وقفا وسط الحبل متقابلين. قال للصبي المقابل له: انتبه جيدا وامسح عَرَقك لكي لا يقع حادث. مسح الصبي عرقه، وقال: أنا جاهز. عندما نظر إليه شاهد شامة أسفل يمين أنفسه. تدرّبا، ونزلا عن الحبل. في أثناء اغتسالهما قال له مداعبا: تليق بوجهك كثيرا هذه الشامة. نظر إليه الصبي بغرابة أولا، ثم قال: أي شامة؟ نظر إليه عبر المرآة فلم يجدها. قال الصبي بانزعاج: لا يعجبني هذا المزاح! من يدري ما الذي خطر ببال الصبي؟ أجابه: لعلها قذرة لا تؤاخذني، بدت لي كالشامة. لكنه في اليوم التالي رأى الشامة مرة أخرى وكانت أوضح. بعد ثلاثة أيام سقط الصبي في أثناء عمله وحده وسط الحبل. عندما هرع إليه ليراه، كانت الشامة بقدر حبة الزيتون.

هذا يعني أنها ليست خصوصية أهله، بل خصوصيته هو. فهو يرى

شامات لا يراها أحد.

كان يدرك أن أولئك الناس سيموتون. وجد إمكانية التأكد من هذه الخصوصية عدة مرات. صار ينظر إلى وجوه الناس وجلا.

فيما بعد لم ير الشامات في وجوه الناس، ولم يمت أحد ممن حوله. ارتاح قليلا.

في تلك الأثناء رأى أشجار الحور.

في ليلة ربيعية، كان عائدا إلى البيت بصحبة معلمه وحيدين. المعلم وابنه. عندما مات ثالث صبي حاول المعلم تدريبه. رأى شاماتهم جميعا، ولكن لم يموتوا سقوطا عن الحبل. لم يعد يأتيه أحد. ثمة من يقول: لاذنب للمعلم... لابد أن لدى صانعه عرق النحس... بعض من يقول هذا يأتي لرؤية هذا العرق بين حاجبيه، ومنهم من يراه، ومنهم من لا يراه. صباح أحد الأيام بحث معلمه عن عرق النحس في وجهه. لم يره، أو هكذا قال. وفي نور صباح برّاق رآه هو بين حاجبي معلمه. رأى شعبة عرق النحس البنفسجي، والعرق المخضّر الذي يتفرع عنه. لم يقل هذا لمعلمه، ولكن لا يبقى الأمر الذي لا يريد إخبار معلمه به في عقله، ولم يبق. نسي هذه الأمور.

الاثنان حزينان من هذا الوضع، والواضح أنهما اعتادا العيش دون الاضطرار لمشاركة الآخرين.

بينما كانا عائدين إلى بيتهما في تلك الليلة الربيعة، وجدا أن كل أشجار الحور في الحديقة التي مرا بها صباحا قد قُلِّمت. كانا ينظران إلى الأغصان المحملة بالأوراق الصغيرة صباحا، وسعدا بها، وها هي قد كُسِّرت، وكُوِّمت على الرصيف. نزل معلمه عن الرصيف كي لا يدوسها،

بينما مر هو فوق هذه الأغصان، بكل حب واحترام، بقدمي بهلوان رشيقتين. عندما وصل إلى أحجار الرصيف وقف، واستنشق الهواء طويلا. حاول أن يشرح لمعلمه كم هو مشتاق لأن يكون بجانب مجرى ماء وسط الخضرة والعشب.

عندئذ تلقى تأنيبا. البهلوان يعمل في الأماكن المزدحمة بالناس كي يكسب عيشه، وهذه الأماكن تخلو من أشجار الحور والأعشاب ومجاري المياه. إذا وُجدت فلا بأس، ولكن مجرد تفكير البهلوان في هذه الأشياء ذنب. خاصة بالنسبة لبهلوان مثله أمضى معظم حياته في مدينة كبيرة. على البهلوان أن يفكر في حبله، وأن يمحو من عقله ما يتوق إليه أو يحلم به.

ألم يقل المعلم هذا؟ فهكذا يجب أن يحصل، وهكذا سيعمل. بعد أن محا ذكرياته، محا توقه وحلمه. تعلم أن معلمه الأهم، وأن أهمية العمل أن يدرّبك المعلم على النصح، وهذا ما تعلمه من معلمه أيضا. إنه مانحه عمله، إذ يجب أن يكون له عمل. كان مدينا بارتباطه بعمله لمعلمه. ألم يتعلم منه كل شيء؟ ألم يكن معلمه بمثابة الأم له؟ ولكن هل تعلم منه كل ما يعرفه؟ كيف استطاع بناء ذاته؟ وهل ممكن هذا؟ ما الذي منحه إياه معلمه، وما الذي تعلمه بنفسه؟ ألم يكن لديه شيء عندما مثل أمام معلمه؟ في هذه الحالة يكون كل معلم شكّل نفسه، ولمّا ينقل تشكيله إلى صبيه.

تخبطت أفكاره، كأنه يعرف جواب معلمه لو سأله هذه الأسئلة. لن يقول له: إنك لاتستوعب هذه الأمور. قال لنفسه: عقلي لا يستوعب هذا الآن، سيستوعبها يوما ما. لكن معلمه لن يقول له هذا. سيقول: لا تفكر وكفى. بعد موتي، عندما تأخذ صبيا تعلمه، فكر في هذه الأشياء.

عندئذ ستفهم نفسك وتفهمني، كأنه سمعه وهو يقول هذه الكلمات. هذا يعني أنه يصل في أحد جوانبه إلى مستوى معلمه، ويتجاوزه أحيانا. يستطيع التفكير في هذا... لكنه لم يُتعبْ نفسه أكثر في هذا الموضوع. البهلوانية تتطلب من الإنسان - إذا لم يرد الموت - أن يهب نفسه للحبل، والحلقة، والمعلم، واليد، والعين. إذا التقى يوما من يعمل بالفكر، وليس بالبهلوانية سيسأله هذه الأسئلة. ولكن هل يهتم ذلك الإنسان بما يسأله البهلوانات؟ هذا موضوع آخر.

في أثناء القفز والتقلب وسط الحبل، وجموع المتفرجين يشاهدونه، لاحظ أن عقله يتجول في مناطق أخرى، ويفكر في غير الحبل. هذا غير مسموح له. يجب ألا يدرك معلمه هذا. ضغط على نفسه، وصفّى فكره. أصبح لا يفكر في أثناء عمله. ولكن حين يتجولان بين المدن، وعلى الطرق الطويلة، كان يتظاهر بالنوم، ويخدع حتى معلمه، ويطرح هذه التساؤلات، ويتجول بين أشجار الحور والعشب.

في إحدى الأمسيات، قال له معلمه بعد عودته من العمل، وهو يضع في صندوقه الخاص بعناية نسخ الإعلان الذي يوزعونه قبل العرض من تحت الأبواب، وفي المقاهي والأزقة: لقد تعلمت. أصبحت معلما. سأترك لك العمل. دَفَعَ تأثير هذه الكلمات على عقله، وكاد أن يسأل معلمه: أليست هذه الإعلانات نوعا من الذكرى؟ غضب معلمه، وقال له مؤنبا: لم تتعلم بعد. هذه ليست ذكريات. هذا هو الأثر الوحيد الباقي من حبالنا. إن ما نعيشه وعشناه، وسنعيشه، على نسق واحد كل يوم. وفي كل عرض يرخي الموت ثقله على ظهورنا. في اليوم الذي لن نستطيع فيه حمل صندوقنا، سينتهي كل شيء، وسيهزمنا اليوم. أعلم هذا جيدا. أنا وأنت في هذه الأوراق. وهل لدينا ما نستعرضه، أو نعرضه للآخرين سوى هذه الأوراق؟

ولكن في تلك الليلة صحا بعد أن أُنِّب هذا التأنيب. لم تكن الأوراق سببا لغضبه. كيف لم يدرك هذا حتى اليوم؟ تبقى نوبة الغضب هذه خارج تلك النوبات المعتادة في العلاقة بين المعلم وصبيه. إنها محاولات لسحق ذاته، أو على الأكثر سحق شبابه.

منذ متى وهو منتبه إلى هذه الخصوصية المختلفة لهذه النوبات؟

شاخ معلمي. إنه يقول: ألم يجد وقتا للتفكير بأن الآخرين سيكبرون ويشيخون في أثناء انشغالي بالتدريب؟ هل اعتدت على عدم النظر إلى وجهه وأنا أكبر بجانبه؟ أيغضب لعدم رؤيته هذه؟ في الحقيقة إن الإنسان يريد لمن يحبه أن يكبر، ولكن لا يريده أن يقترب من الموت. طالما أنني انتبهت إلى هذا، فأنا أيضا كبرت. أما هو فمن يعرف حالته؟ ولا يكمل السؤال، أو لا يستطيع.

شاخ معلمي. في البداية كان يظن أن تأنيب معلمه موجه له، ولكنه أدرك الآن أن هذه التأنيبات موجهة لما يفصل بين طفولته القديمة ونضجه الجديد.

كيف نام هكذا؟ مع أنه لا يخطر بباله إمكانية تفكير معلمه بشكل خاطئ، أو قوله ما هو خاطئ.

مع أن معلمه أطلق هذه الأشياء في الفترة الأخيرة خطأ، بل ليريه أن هذه الأمور تطلق من أجل تذكيره بشيء ما. إنه الآن يتكلم بما كان قديما لا يجرؤ على التفكير فيه. أيغضب معلمه لهذا؟

لعله الآن يفهم عدم خطأ هذه الفكرة، لأنه مع الأيام ينتبه إليها أكثر، ويقوي إدراكه، ويحوله إلى معلومة. ألأنه صار معلما بدأ لا يفسح مجالا لاقتراب أفكار من هذا النوع إلى عقله؟

إنه معلم بناء قضى عمره في حمل الحجارة، وتكسيرها، وإنشاء بناء وصل به إلى النهاية، عندئذ كيف سيغضب لو قال له أحد إن في هذه الجدران تصدع، وأراه إياه؟

ألأنه بدأ يعجب بنفسه صار يجد عيوبا في معلمه؟ أم أن أخطاء، وظلال أفكار، وأحلام معلمه زادت من قلقه؟ أليس معلمه رجلا مثل الآخرين؟ ألن يكبر ويشيخ مثلهم؟ أليس فرقه الوحيد عن بقية الرجال من حوله أنه «معلمه»؟ أليست هذه الأستاذية ما يميزه عن الآخرين على الرغم من تشابهه معهم؟ لم يثق بإجاباته عن هذه الأسئلة، ولكنه يدرك أن لا ضرورة لمعرفتها. كان معلمه يتحدث عن عيوب صبيانه أمام الآخرين ويخجلهم، ولكنه في أحد الأيام تكلم عن صندوق إعلانات معلمه أمام الآخرين، فنال ما يكفي من التأنيب. ألحّت هذه الأشياء على عقله وخربت أفكاره. صار معلمه يغضب كثيرا إذا بحث في أمور لا يريد لأحد معرفتها، ولكنه يتكلم عن أمور صبيه كيفما يريد دون التفكير بما إذا كان صبيه يغضب من هذه الأمور أم لا. من الواضح أنه لا يتكلم بهذا الشكل كي يغضبه، أو لجهله. لا يفكر مجرد التفكير في أن ما يحكيه يُغضب، أو يسيء لصبيه. لا يمكن لعقله أن يفكر في خطأ ما يفعله.

في النهاية اتخذ قراره. لن يغضب من معلمه مهما فعل. لن ينسى أنه شاخ، وسيسكت عن أخطائه. قبل يومين، بينما كنا نشرب شاي الصباح، قال فجأة: «إني أخشى اليوم الذي سأحتاج فيه للمساعدة، وحلول اليوم الذي سأحتاج فيه مساعدتك... يجب أن نبقى دون مساعدة لكي لا نموت كالكلاب. وأسأل نفسي، هل العيش عالة على الآخرين أصعب أم الوحدة؟» مازالت هذه الكلمات تطن في أذنيه. لابد أن لها أثرا على قراره، لأنه عندما اتخذه ارتاح، ونام نوما طويلا دون

قطع، لم ينم مثله منذ زمن طويل.

صباح اليوم التالي، جلسا متقابلين يشربان الشاي، فرأى بقعة أسفل يمين أنف معلمه. أمسك نفسه عندما كاد أن يمد يده كي يمسحها. كان معلمه يعلم بأمر الشامة. خشي من مجرد التفكير فيها كي لا يخطر ببال معلمه سوء.

كانت تلك الليلة ذكرى ميت عظيم. لم يكن ثمة عرض. خرج خارج المدينة. وجد شبه مجرى ماء، ودغل من أشجارالحور. اكتفى بها، ونظر نحو السماء، وغاص في تفكير عميق... سيطر عليه الخوف من موت معلمه. ومن الممكن أن يكون أخطأ فلا يموت معلمه في هذه الأيام. ولكن أليس هذا الشعور يأتيه لأول مرة ويرعبه؟ هذا يعني أنه يفكر في موته. إنه صار لايستطيع التفكير، وهذا مفرح له. سيصبح معلما، ويقبل الصبيان، ويدربهم، وسيستطيع التفكير، وسيبحث عن إجابات ما كان يخطر بباله من تساؤلات، وسيجد الإجابات، ولكنه أيضا...

ألا يشبه معلمه الأمهات اللواتي يثكلن بعد أن يلدن؟ أو يسقطن قبل الولادة؟ كان تعليمه قد انتهى، وأوشك أن يصبح معلما. لو مات... سيجف معلمه، ويموت قهرا بسبب موت صبيه الذي بات على وشك أن يصير معلما. عندئذ سيصبح كأنه لم يُربِّ أحدا... ثمة معلمون هكذا، يعدّون منحوسين بين البهلوانات. يموت صبيانهم، والذين أتموا تعليمهم، ويموتون شبابا. من الواضح أن معلمه منهم. ومن المؤكد أنه لا يتكلم بهذا أمام الآخرين أو معلمه. ولكن أيظن أن لا شيء يمكن ذكره؟ ولكن من الواضح أنه في الفن، أو البهلوانية، يتجمد أمثال هؤلاء. مثلهم كمثل الرجل الذي يموت وليس له أولاد. ولكن أغلبهم يتعملقون بين المعلمين، وليس من السهل الاقتراب من العملقة. ولكنهم في الواقع أليسوا

كالأغصان الجافة، والنساء العاقرات؟ كل منهم تعلم على معلم، وليس ثمة من يصبح معلما على أيديهم. في الواقع لا ينقطع نسل هؤلاء، بل ينقطع نسل من يأتي بعدهم.

ولكن ها هو موجود. أخرج مرآة من جيبه، ونظر إلى أسفل الطرف الأيمن من أنفه. لا يوجد أثر حتى لشيء بحجم ذرة الغبار. هذا يعني أنه سيعيش، وأن معلمه ربى واحدا، وهذا سينقذه من أن يكون حفيد نسل مقطوع. ولكي يتحرر معلمه من هذا، يجب أن يموت، ويربي صبيه صبيا آخر، ويصبح معلما.

سُرّ لتوجه أفكاره نحو هذه الجهة. خلط أفكاره جيدا هذا التداخل للمضحك والمبكي، المفرح والمؤلم. نام واستيقظ. كانت الشمس تميل إلى الغرب. وفجأة قال بصوت مرتفع: حان وقت العودة إلى القفص. دَهِشَ. من أين ظهر لنا هذا، منذ متى...

في ذاك الصباح ترك معلمه قدح الشاي، وذهب لينظر في المرآة. خشي أن يرى معلمه البقعة السوداء في أسفل يمين أنفه. بدأ قلبه يخفق، ثم قال لنفسه: على الرغم من كونه معلما، ولكن لا يعقل، بل يستحيل له رؤية الشامة. هو الذي يرى الشامات. لم يذكر معلمه، أو أي شخص أنه رأى شيئا كهذا. ومعلمه ينظر إلى العينين، والحاجبين، أكثر مما ينظر إلى الأنف. قال له معلمه: «لن نعمل اليوم، وليس من الضروري أن تصعد إلى الحبل. ماذا ستعمل بجانب شخص لا حول له مثلي؟ كيفما كان، أنا على وشك النهاية». إما أنه رأى الشامة - وهذا غير ممكن - أو أن قوله لهذه الكلمات مجرد صدفة. انعقد لسانه. بعد برهة قال: «لا تقل هذا». «لم تعلمني ماذا أقول، أو أفعل في موقف كهذا». ضحك معلمه وقال: «اذهب وتنزه!».

القفص موجود... هذا واضح من كلامه وكلام معلمه.

يمكن الهرب من القفص. إذا كان الهرب...

ألم يكن يرغب في أن يصبح بهلوانا كبيرا. ألم يعمل كل هذه السنوات كي يصبح بهلوانا كبيرا. اعشق عملك، وفنك، وبهلوانيتك كالمجانين...

لم يخطر بباله حتى ذلك اليوم ما يجب أن يعشقه كالمجانين. أيعشق الإنسان الهواء؟ يستنشق الإنسان الهواء فيعيش. هذا كل شيء. وهذا أيضا كلام سمعه في يوم ما ورسخ في ذهنه ليستعمله في يوم ما.

كان يعشق عمله بجنون. هو لا شيء من دون عمله. لكنه يحب معلمه أيضا، ولا يتركه أبدا.

من جهة أخرى، ممن تعلم هذا العشق، وهذا الإحساس، إن لم يكن من معلمه؟ العشق، أو حتى الهواية؟ كان سيعود إلى القفص.

نظر إلى معلمه في المساء، تهيأ له أن البقعة أسفل يمين أنفه قد كبرت قليلا. تولد في داخله القلق. أسدل هذا القلق ستارة على كل الأفكار التي خطرت له على حافة الماء. زال شكه في اليوم الثالث. سيموت معلمه. وسيكبر.

طار صوابه، لا يدري ماذا سيفعل. لا يستطيع فعل شيء سوى النظر إلى معلمه، ورؤية الشامة وهي تكبر. عادا منذ أيام إلى اللعبة الخطيرة جدا. تلك التي يمثلان بها دور المتصارعين على الحبل، بعد أن تركاها فترة. كاد قلبه يقفز حتى بلعومه لشدة خفقانه عندما يخطر بباله أنه سيتسبب في موت معلمه. وتسوّد

الدنيا في عينيه عندما يفكر في أن هذا القلق سيتسبب في الحادثة. كان يدرك أن هذا الموت لا يشبه الميتات الأخرى. ويعرف أنه سيصبح فجأة وحيدا. وكلما تسلسلت هذه الأفكار في رأسه، يخطر بباله ضرب الجدران برأسه. فكر أن هذا أفضل... سيستطيع التفكير.

حتى لو أنه يشعر بأنه ثمة من لا يخاف من التفكير...

كان يجن كلما نظر إلى الشامة، وينسحق تحت وطأة عدم استطاعته إفضاء ما في قلبه للإنسان الوحيد الذي يستطيع أن يفضي له بكل شيء.

في المساء الذي أصبحت فيه الشامة بقدر حبة الزيتون، كان يشد نفسه وسط الحبل منتظرا اقتراب معلمه. أتى متماسكا. وكان موعد خطوة معلمه الخاطئة في تلك الليلة. شد نفسه كالقوس، لكي يطير ويمسك بمعلمه. أقل خطأ سيهدم الجدار الذي يبنيه منذ سنوات، ويغضب معلمه خشية تهدم ذلك الجدار. هدأ غضبه، تأخر خطوة. لن يجعل معلمه يدرك أنه تأخر بخطوته الخاطئة، ولن يخبره، أو يشعره بهذا. ولن يدرك بعد نهاية اللعبة أنه أخطأ، خاصة أنه في الصباح سيتمكن من ترتيب بعض الأمور. ومرَّ في عقله موج من الأسئلة... سأقول له إنني مريض، أو أجد أي حجة أخرى، أو أقول: لا تصعد أنت في هذا الجو الحار، أتدبر الأمر أنا وألهي الجمهور، لكنه يعرف أنه لا يمكن خداع معلمه، ولكنه لا يشعره بهذا. الآن أرخى جذعه قليلا، كان عليه أن يجهز نفسه حسب كل حركة من حركات معلمه. سيثبت لنفسه

أولا ولمعلمه ثانيا أنه معلم بهلوان. لو كان معلمه صبيا، وهو المعلم، سيدرك أستاذيته، ويضطر لإدراكها، وسيقبله من جبينه قائلا: «إنك معلم» سيقدم نفسه هذه الليلة. لعل معلمه يمتحنه، ولا يعلم بالمخاوف التي تنتاب صبييه، ويفكر في أنه سيعتز به بعد فقدانه كل أولئك الصبية، لأنه أصبح معلما. ولكن ألا يخطر بباله أن مجرد تفكيره في هذه الأشياء يعني أنه لم يصل إلى الأستاذية؟ وعندما كان على وشك فقدان معلمه...

إنه ينتظر. مازال ينتظر خطوة معلمه الأخيرة.

كان قد أمسك معلمه بالحلقة تحت وسط الحبل، ولم يسمع صوت معلمه قائلا: «آه من طيشك يا بني» وسط صراخ الجمهور المتحلق حول حلبة الرمل الناعم، عندما شعر بأنها تقترب منه بسرعة.

طارق ضرصون. ك

ولد في إزمير عام ١٩٣١

ترك الدراسة بعد أن تخرج في المدرسة الإعدادية لتأمين لقمة عيشه. انتهى إلى العمل الصحافي بعد تجربته لمختلف المهن. كتب السيناريو، وأسس دارا للنشر، وفتح مكتبة، وأدار دار «مليّت» للنشر والصحافة، ومجلتها المخصصة للأطفال.

برز في قصصه التي عرض فيها حياة أحياء إزمير الفقيرة بأفراحها وأتراحها مستعيدا طفولته وبداية شبابه. استفاد من السينما في بنائه القصصي، فقدم مجموعة بعنوان «نهاية ٢٣ كانون الأول المفاجئة» وصدرت عام ١٩٧٢، مستمدا موضوعه من أشهر الأعمال السينمائية.

قدم في مجموعة ثانية موضوعات تذكرنا بالقصص الشعبي ذي البطولة الثنائية: «عمر وزينب الجميلة» وصدرت عام ١٩٧٢ أيضا. وفي مجموعة أخرى استلهم ذكريات طفولته: «طفل البحرية» صدرت عام ١٩٧٦.

نال جائزتين في ميدان القصة، الأولى جائزة مجمع اللغة التركية عن مجموعته «عشب المرأة الجميلة ١٩٦١»، والثانية جائزة سعيد فائق عن مجموعته «رجال الوحش».

كتب عددا من القصص الطويلة، منها «آل حسن ١٩٥٥»، «حلم الوزير ١٩٥٧»، «شيء يدعى الحب ١٩٦٥». ومجموعة من الروايات، منها: «بيت عائلة رضا بك ١٩٥٧»، «دود الإنسان ١٩٥٩»، «يجب ألا يصبح الصباح ١٩٦٧»، «دم البحر ١٩٦٨»، «عاد النهار ١٩٧٤»، «ازدهار حضارة رأس الحجر وسقوطها المفاجئ ١٩٨٠»، «الحمامة الطائرة على ارتفاع منخفض ١٩٨١».



امتلئ يا قلبي بنسائم البحر

اقتربت سفينة الركاب ببطء من رصيف ميناء السنجق الخشبي القديم في الساعة ١٧,٤٠، عندما كانت ظلمة المساء ترخي سدولها على المدينة. كان سالم ينتظر أن يرموا له الحبل عند المربط الأول. رماه عامل السفينة بين ذراعي سالم. علّقه على المربط، ولفَّه لفّتين. توقفت السفينة، لكنها نجحت في العودة من جديد تاركة نفسها لتدفق مياه الخليج. شُدَّ الحبل الثخين. أصدَرَ صوتا. أنقذ السفينة من التيار، وشدها لتحاذي الرصيف. صفقنا له جميعا.

نزل من السفينة ثلاثة أشخاص. خرجوا من الميناء دون أن ينظروا إلى أحد. أحدهم ركب حافلة حي (قوناق) الواقفة عند الموقف، وغاص الآخران في الزقاق المقابل.

حيّانا الريس بصفارة السفينة. أعاد سالم الحبل، وذهبت السفينة، وبقينا وحدنا.

كان الطقس حارا، ونحن الأربعة نتصبب عرقا.

قال ضياء وهو ينظر في وجه كريم: «حسنٌ أنك تركْت الفتاة» كان كريم يمر بإصبعه على حافة قدح الخمر المشعور وهو مهموم. توقف تبادل النظر معه.

قال له ضياء متابعاً: «لم تكن مناسبة لك».

لم يردّ كريم. دلق القدح على رأسه. لم يكن قد أخذ منه أكثر من رشفتين. فعل مثله ضياء، ونقل حبات الحُمّص المملح من يده اليمني إلى

اليسرى، وقال: «أمثالها من الفتيات كثيرات في هذه الدنيا، ومثل الرمل...»

انتصب كريم دون مناسبة، اقترب من سليم، وأشعل سيجارة من سيجارته.

قال حسن: «ماذا تريد من الشاب؟»

قال ضياء: إذا لم يتخلص من وضعه المشابه لوضع كلب شارد مضروب...»

جاء كريم، أفرغت له الخمر من قدحي إلى قدحه. شربه جرعة واحدة. قال: «لنذهب». أشعر بالضيق. فهمت. نهضا. دفعتُ الحساب. رافقنا سالم إلى باب الميناء، ودَّعنا.

وقفنا عند موقف الحافلات. التفتنا فيما حولنا. مازال الجو حارا. كنت أشعر بقطرات العرق تتصبب من نهايات شعري على رقبتي. تغمر رائحة البحر الجو. الشمس المنسحبة من فوق منطقة (طوظلا) حمراء، ترسل أشعتها على أعشاب بيت ذي ثلاثة طوابق في حي (كوردون بوي).

عندما سار كريم نحو حي (غازي قادنلر) تبعناه. تهدلت كتفاه، وأنارت أشعة الشمس قسما من وجهه.

أوقف حسن ضياءً.

«لا تلح عليه: يتألم بما يكفيه... ألا تراه؟»

«هل سنتركه هكذا؟»

قلتُ: «ليس بوسعنا عمل شيء».

كريم يمشي على مبعدة منا.

أفلت مني ضياء، وقال: «إنني أتألم لحالته».

قال كمال: «والد الفتاة حمار... الفتاة تحبه».

قال ضياء: «تحبه؟... حسنا، لماذا لم تحمل أغراضها وتهرب معه؟»

قال كمال: «آه» وضحك مقهقها. ولكمه على وجهه قائلا: «وهل تظن أن فتاة كهذه تجمع أغراضها وتقول هيا يا كريم لنهرب؟» وضحك من جديد، وأضاف: «لا يمكن لك أن تصبح رجلاً!»

تحدث كريم إلى بعض صيادي السمك الجالسين المدلّين أرجلهم إلى الماء. عندما اقتربنا منه، قدم سيجارة لأحدهم، أشعل كل منهما للآخر، ثم تركهم، وسار معنا.

قال: «مازال الجو حارا».

قلت: «تأخر اليوم نسيم البحر».

«إذا لم يهب سنحترق»

تأبطه ضياء من ذراعه.

قال: «لنذهب إلى السمان نجاتي، جف بلعومي».

سألته: «وهل لدينا نقود؟»

قال حسن: «أنا لدي».

مسكه كمال من ذراعه، وهمس له: «وهل ذهابنا إلى نجاتي صحيح؟»

لم أفهم لحظتها مقصده.

«لماذا؟»

قال: «يا هذا، بيت الفتاة في ذلك الزقاق»

«ولكن هذا في أول الزقاق، وذلك في آخره»

كان نجاتي جالسا على كرسي أمام الباب. لا يستطيع أن يأتي بأدنى حركة.

قال: «الجو حار. لماذا جئتم إلى هنا؟ لو ذهبتم إلى ياسف، الرياح هناك تعصف بشدة».

قال ضياء: كل الأمكنة هكذا. مات نسيم البحر، ونحن أعلنا الحداد عليه. هات خمرا».

قال نجاتي: «في هذا الجو؟! وهل جننتم؟»

قال كمال: «المجانين أيضا يشربون الخمر» وضحك بهدوء.

نهض نجاتي بصعوبة. دخل. صف على طاولة دائرة رسمية أربع كؤوس. ملأها بخمر كاشف اللون ماركة «ملكة جمال الكوردون».

قال نجاتي: «لأقوم على خدمتكم...» قطع أربع قطع من الخبز، ومثلها من قالب جبنة كبير.

شربنا بهدوء. وضعنا الجبن على الخبز. تلاشت بقايا النهار، وأظلم الزقاق، وأنير المصباح في أوله. دخل عدة زبائن إلى الدكان. انسحبنا إلى وراء الطاولة. أفسحنا مكانا لنجاتي.

قال: «لأشغّل المروحة» وشغلها. نفخت هواء الدكان الحار على وجوهنا، وبسرعة ضغط ضياء على زرها وأوقفها.

قال نجاتي: «آه منك... سيطرت عليك الخسة اليوم».

انتهت أخبار الوكالات في الإذاعة. أذيع اسم شخص قالوا إنه شهير. بدأ يغني بلغة الكفار. لم نصغ له في البداية. بعدها تأثرنا جميعا بالعزف. كانت آلات الكمان تعزف أحيانا، ويقابلها البيانو، يتوقف هذا، فتأخذ مكانه مجموعة الكمانات.

أنهى كل منا كأسه الثاني. تناول نجاتي الزجاجة، ملأها من جديد:

«هذه ضيافتي، وأنا سأشرب معكم نكاية بنسيم البحر»

أسند الزجاجة إلى شفتيه لعدم وجود كأس على الطاولة. كبرت حبات العرق على جبينه، واستطالت نهايتا شاربيه.

نهضا عندما فرغ الزقاق من المارَّة. أنزلنا باب دكان نجاتي. وضع المفاتيح في جيبه، وقال لنا: «مع السلامة» وذهب.

ودون انتباه، عبر ضياء إلى الرصيف الآخر وتبعناه كل منا خلف الآخر. توقف عند باب بيت حديدي أزرق، ينتظرنا. انتبه كمال. التفت إلى كريم وقال:

«دعنا نسير. هذا المخمور القواد ضربه في رأسه»

ذهب ضياء إلى أسفل شرفة البيت ووقف هناك. كنا ننتظر ما سيفعله. لم يتحرك كريم من مكانه. سعل ضياء، ونظف بلعومه. أخذ نفسا عميقا في البداية، وبدأ يغني بصوته الغليظ ولكنته الأرناؤوطية: «عندما خيّم الصفاء على حديقتك...»

تسمرنا مكاننا. ارتفع صوت غناء ضياء إلى الشرفة، دخل من النافذة المفتوحة. نزل الدرج، وصل إلى البهو، انتشر في الغرف والمطبخ،

وخزانة الفرش والأغطية الثقيلة، وإلى صفائح الزرع المصفوفة على حافة الشبك الحديدي، وأزهارها، إلى صورة باشا الأزمان الغابرة المعلقة على أحد جدران غرفة النوم، إلى أمكنة أطباق الطعام التي لم تفقد حرارتها على الطاولة بعد، إلى الأرض التي شطفت عشر مرات لجفاف الجو ولم تبرد، ودرجات السلم الخشبي الممسوحة. وعاد مرة أخرى يردد «آه، ماذا أكون، ماذا أكون؟»

كاد لسان كمال أن ينعقد، لكنه قال: يا هو... ياهو...»

انتفض ضياء. خلّص نفسه منه، وتابع أغنيته: «لا تريني وجهك...»

اندس حسن بجانبه. وقفا متكاتفين. قبل أن يبدأ ضياء بالشطر الثاني تبعه حسن بصوته النشاز: «لا تريني وجهك.!»

ثم رددا معا: «لا تعطيني وعدك».

ظهرت امرأة شابة من إحدى نوافذ الأبنية المجاورة. ثدياها ضخمان. ابتسم كمال ولوّح بيده للمرأة. تحمّس. ذهب إلى الجانب الثاني من ضياء. بدأوا بثلاثة أفواه، وثلاثة أداءات مختلفة يغنون الشطر نفسه: «أموت فداءك».

كان ضياء في طليعتهم بدأ من جديد: «لا تريني وجهك، ولا تعطيني وعدك».

تابع بعده حسن وكمال: أموت فداءك، أموت...»

وقف رجل مسنٌ في الباب. فتح فمه. أراد أن يقول شيئا، لكنه لم يستطع الجزم فيما يحدث على ما يبدو. دخل إلى بيته، وصفق الباب من خلفه بقوة.

فجأة صُحِّح وضع المجموعة الثلاثية، وتوحد صوتهم، وبرز صوت ضياء في المقدمة: «آه أموت فداءك... أموت» تكاثرت الرؤوس في النوافذ المفتوحة. صرخ رجل كهل خرج بألبسته الداخلية: «عشتم ياسباعي». رفع قدح المشروب الذي في يده، وبدأ معهم: «عندما خيّم الصفاء على حديقتك...»، وقبل أن يكمل تابع ضياء: «في روحي»، أسرع حسن وكمال ليتابعوا معه: «لن تتعذبي...» تمادى الرجل ذو الألبسة الداخلية، خلف النافذة مكررا: «لن تتعذبي».

اصطف الناس على طول الزقاق من خلال نوافذ بيوتهم. كانوا رجالا، ونساء، وأطفالا، انطلق صوت أحدهم: «اسكتوا وإلا... حولتم الزقاق إلى ناد ليلي».

قال الرجل ذو الألبسة الداخلية: «لا تهتموا يا شباب!... بصحتكم!»

وللنكاية فقط أخذت مكاني بجانبهم، واستطعت متابعتهم بمقطع «لا تتعذبي»، وغنينا نحن الأربعة بأنين: «ماذا أكون... آه».

شُقّتْ ستارة النافذة التي تعلونا. نظرنا بطرف أعيننا. بدت فتاة كريم. كان ضوء الغرفة مطفأ، لكن وجهها ظهر عندما سطع نور إحدى النوافذ المقابلة عليه. أشارت كأنها تقول: لا تعملوا هذا، اذهبوا» لم نهتم. ارتفع صوت ضياء ووصل إلى السماء، من خلال أسطح المنازل، ووصل إلى البحر، كأنه ركب حافلة ذاهبة إلى منطقة التمثال.

رمى أحدهم زجاجة فارغة سقطت عند أقدامنا. انحنيت وأخذتها إذ لم تتكسر سوى رقبتها.

ارتفع صوت رفيع لامرأة: «ليناد أحدكم الشرطة. هؤلاء جميعا سكارى».

قال الرجل ذو الألبسة الداخلية: «اسكتي أيتها الجنيّة» والتفت إلينا: «من البداية يا شباب لا تهتموا بهذه المتخلفة» قلنا ونحن ننظر إليه: «لا تكوني عذابا لروحي... لا تكوني...» ثم تابع ضياء منفردا: «ماذا أكون؟ آه» وتبعناه نحن... لم يتركنا ذو الألبسة الداخلية: «لا تريني وجهك... هيا يا شباب، مع بعض...»

قلنا جميعا: «لا تريني وجهك، ولا تعطيني وعدك»، لحظتها شعرنا ببرودة خفيفة على ظهورنا. بدأ يجف العرق النازل من الصدغ نحو الرقبة. بدأ شعرنا يتماوج، وانكمشت حواجبنا. بدأت قلوبنا التي ظنناها توقفت تصدر ضجيجا يقرع غشاء الطبل. سكتنا. صاح الرجل ذو الألبسة الداخلية: «عاشت نسائم البحر... هيه. هبت النسائم يا شباب».

رمت تلك المرأة الشابة التي ظهرت من النافذة في البداية زهرة بنفسج نحو حضن كريم. مسكها كريم وهي في الهواء. وصلت رائحتها إلى أنوفنا عبر النسائم البحرية. استنشقناها إلى رئاتنا. إنها نسائم بحرية برائحة البنفسج الحقيقي.

تحسين يوجال

ولد في قرية ألبستان التابعة لمدينة مرعش العام ١٩٣٣

درس الإعدادية والثانوية في القسم الداخلي لثانوية غلاطة سراي وتخرّج فيها العام ١٩٥٣. درس الأدب الفرنسي في كلية الآداب جامعة اسطنبول وتخرّج فيها العام ١٩٦٠. عمل معيدا في الجامعة نفسها، تابع دراسته وتدريسه حتى وصل إلى درجة أستاذ دكتور. ظهرت أولى قصصه في كتاب أصدرته دار (وارلق) بعنوان: «قصص جديدة» العام ١٩٥٠.

تناول في قصصه العوالم الداخلية لأناس بلدته الذين عايشهم في طفولته. وأبرز جوانب الشخصية الطفولية القروية بومضات قليلة في قصصه الأولى. تطورت هذه الشخصية التي أسماها محمد علي لتغدو حقيقة الإنسان الريفي.

يعتبر تحسين يوجال كاتب الطبقتين الفقيرة والمتوسطة، المتناول للجانب المضطهد لأناسهما.

نقل إلى اللغة التركية أمهات الكتب الفرنسية، ووصل عدد كتبه المترجمة إلى ثمانين كتابا.

من مجموعاته القصصية: «الصحون الطائرة ١٩٥٤»، «أما كان يجب أن يعيش؟ ١٩٥٥»، «موت الأحلام ١٩٥٨»، «بعد العيش ١٩٦٩»، «تحوّل ١٩٧٥»، «أنا والآخر ١٩٨٣»، «قصص نابية ١٩٨٩».

كتب الرواية، والخواطر، والحكاية، والدراسات والنقد واللغة.

نال عن مجموعته: «أما كان يجب أن يعيش؟» جائزة سعيد فائق للقصة.

السير

قال محمد علي: «لا يُمشى في هذا الطقس. الغيوم واطئة وداكنة، لم تكن تطأ على الأرض، بل تغوص في مياه سوداء، وتقف لتغوص أكثر» هذا ما فعله (كاتب): «توقف ولكن لحظة واحدة». محمد علي على حق. لا يمكن اعتبار توقف كاتب صلبا، كأنه توقف ظاهري، أو استراحة قصيرة. أصبحت حياته سيرا لا نهاية له، لا يفكر في التوقف منذ سنوات، ولا نراه إلا ماشيا على ضفاف نهر (جاهان)، وفي أزقة قرية (أوتة غتشة) الضيقة، وفي أطراف البلدة، يسير بهدوء وكأنه يخاف أن يعلق الغبار بقدميه، وعيناه تنظران إلى فراغ بعيد. ألا يتعب؟ لِمَ لا يتعب، أم أن السير بهدوء هكذا وكأنه لا يطأ على الأرض ينسيه التعب؟ ما أصعب فهم هذا!

لا يجد محمد علي معنى لهذه الأسئلة. كان يقول: «بالتأكيد إن كاتبا يتعب، لماذا يسير دائما دون أن ينظر إلى أحد؟ إلى من، وإلى أين يسير؟ هذا ما لا يستطيع أحد معرفته» هو يعرف، بالنسبة إليه، فإن سيره اللامتوقف هذا هو نحو الأخت زهرة. إن كانت زهرة خلفه، أو أمامه، ومهما كان مقصده فهو يسير نحوها. من المؤكد أن السير لا يعني بالضرورة الوصول، أو التقدم، وهو يدرك هذا أيضا. كان يفكر في أيام طفولته عندما كان يسير إلى القمر أو الشمس هكذا. ما كان يحدث له في تلك الأيام أن المسافة لا تطول ولا تقصر. ولكن اقتربت أم لم تقتربْ فمن الجميل أن يسير الإنسان، وهذا لا يقاس بالتوقف. لهذا السبب كان كاتب يسير دائما نحو الأخت زهرة، وإن كان في أضنة أو العزيز.

هنالك أوقات يصبح فيها سير طفل نحو القمر لا يرتقي إلى سير

من تجاوز الستين نحو امرأة. لا يستطيع كاتب الابتعاد عنا، يأتي إلى بيته المقفر، ويتابع سيره على ضفاف نهر (جاهان)، وفي أزقة قرية (أوتة غتشة) الضيقة، وفي السوق، وعلى الجسر. لا يعرف الجيران حقيقة الأمر، إذ يقولون: «طُرِدَ المسكين مرة أخرى» مع أن ابنيه، وزوجتيهما، وأحفاده الخمسة يحملونه على كفوف الراحة. ابنه الأكبر يدرك أن وصوله إلى مدير مركز بريد العزيز، والأصغر يدرك أن وصوله إلى مركز قاضٍ في أضنة مدان به إلى عمل كاتب في دكان صغير لسنوات طويلة. لا يعدانه خَرِفاً، بل يريان فيه عجوزا محترما عمل كثيرا، وأفنى نفسه. لهذا السبب، عندما ماتت أمهما، جعلاه يبيع الدكان، وأخذاه عندهما كي يرتاح. وارتاح فعلا. تعدّ زوجتا ابنيه طعاما جيدا، ولا يفتقد مصروفه الشخصي. ويحبه ولداه، وزوجتاهما، وحفداؤه. أما عن سيره فهو كالقمر، لا يتغيّر، ولا يعتق. وبما أنه كالقمر يتوجه نحو الأخت زهرة. سيره يكبر بشكل لا يوصف، ويتطور نحو اللانهاية، وهو جميل دائما، وفي كل مكان. ثم يأتيه وقت يرى فيه كل شيء ناقصا، أو مائلا، أو بمنزلة عائق أمامه.

بفرض أنه عند ولده مدير بريد العزيز، وخرج للسير، فسيتلفَّتُ إلى ما حوله دون إرادته، ويقول لنفسه: «هذا رجل أعرج، إحدى ساقيه قصيرة»، «هذا بناء بثلاثة طوابق، طُلي بابه بالأخضر»، ثم فجأة يتذكر أغنية شعبية قديمة، كلماتها: «سوق العزيز طويل، دكاكينه متقابلة» ثم يقف حيث هو، ويتلفت، ويقول لنفسه: «أمر عجيب!» ويدهش لحقيقة: إن سوق العزيز طويل، ودكاكينه متقابلة، ولصحة كلمات الأغنية القديمة: «هذا صحيح كلها متقابلة» ولكن هذا يقلقه. الأن الحقيقة الوحيدة اللامتغيرة هي زهرة، أم ماذا؟ كان يدهش للأشياء من حوله دشهته لتحقق نظرية يعرفها ولا يؤمن بحقيقتها. لحظتها يحاول استنتاج

مـا يجعل دكاكين العزيز تكذبه، وتثبت له أنه لا يعـيش في واقـعه. لعله لا يعيش في واقعه فـي أي مكان، ولكن فجـأة، وهو أمـام دكـاكين الناس في العـزيـز يشـعر بثقل كـالرصـاص، لأن هذه الدكـاكين متقـابلة، وسـوق العزيز طويل، ولشوقه إلى (أوتة غتشة).

بفـرض أنه فـي أضنة عند ابنه القـاضـي. إنه يفكر في حـبـه لابنه، وزوجـة ابنـه، وحـفـدائه. ينظـر إليـهم، ويضـحـك قـائلا: «ها هو إلـهامي يحـضن زلوش، ويقـبلهـا مـن خـدهـا» ثم يناديهـا ويضـمـهـا إلـى صـدره، ويقبلها من خدها. فـجـأة يهتـز ويشـعـر بأن مـا فـعله لا مـعنى له. عندمـا يفكر في حـديثـه إلى زوجـة ابنه، وإشـفـاقـه على حـفـدائه، وتقـبـيـلهم، يسـيطر عليـه رغمـا عنه شـعور المقـارنة مع حيـاة لم يعـشـهـا مع زهـرة، فيتـألم لنفسه ولما حوله. نعم، إنه بهـذه الطريقـة يحول مـاراء الواقع إلى واقع. وهكذا كـان يتـراءى لكاتب أن مـا يعـيشـه مـجـرد توق أو تصـور، وأن ابنه وزوجـة ابنـه وحـفـداءه يمثلون دائمـا مـا لا يعـرفـه أو يراه أو يعـيشـه. أليس الذيـن يصـرخـون: «حي» في حلقـات الذكـر وهم يدورون فـي حـالة كهذه يعبرون عن توق يصبـون إليه بوعي أو مـن دون وعي؟ كسير كـاتب. نعم صـحـيح أن السير نـوع من الدوران. ولكنه بعد هـذا التفكير يقع تحت تـأثير التوق إلـى سير جديد. تتراءى له أوتة غتشة بشكل مـختلف! مجرد التفكير فيها يجعله يشعر بتعاليه على النـاس.

كلنا يعرف أن كاتبا رجل متواضع، لا يجد نفسه أكبر من أي شخص، ولكن عندمـا يصل تفكيـره إلى هذه النقطة، يرى نفـسـه أكبر من جـمـيع النـاس مـا عدا جـاويش البلدية (حجيلا). بالنسـبة لمحـمد علـي فهـذا أمر معقول. كاتب يعرف مـا يطمح إليه. كان يسـيـر على الرغم من إدراكه أنه لن يصل. إنه عـائد من لحظة الاقـتـراب مـن الوصـول. على الرغـم من مـرارة العودة، فهو يدرك أنه عائد من عتبة الوصول.

مثلما فتح له أبوه ذلك الدكان بجانب الجسر، فقد درَّسَ ولدا، وجعل منهما رجلينِ. الدكان صغير لكنه جميل. كان مليئا بما يضعه الشباب والفتيات بأيديهم أو جيوبهم أو على صدورهم من قطع برّاقة: أمشاط، ومرايا، وربطات شعر، وكريمات وجه، وسكاكين، وقداحات، وسبحات، ومنفضات سجائر، ومصابيح يدوية. ومنذ جلوسه على ذلك الكرسي في الدكان الصغير وهو يسير باتجاه زهرة. تحدث مع القادمين إليه، وضحك لنوادرهم، أعطاهم أمشاطا وسكاكين، وأخذ منهم نقودا، ولم ينقطع عن سيره نحوها. عند إغلاقه الدكان مساء يترك السير المجرد والخيالي، ليبدأ السير الحقيقي نحوها. وضع في جيبه مشطا، ومرآة، وعلبة كريمات وجه، وذهب إليها، أي إلى زهرة. كان الوقت مساء. ليس ثمة أحد عندما اقترب منها. جلس على مبعدة منها. بدأ ينظر إلى وجهها الذي لم ولن يتغير إعجابه به. كانت زهرة تنظر إليه، مبتسمة ابتساماتها الحلوة الدائمة.

سألَتْهُ: «هل فتحت الدكان؟»

قال كاتب: «نعم».

«يعني فتحته!»

«نعم فتحته»

مالت زهرة برأسها إلى الأمام.

كاد ينفذ صبر كاتب وهي مطرقة. هكذا كان يأتي دائما. يدور، ويناور، ثم يذهب إليها. لكن مجيئه اليوم مختلف. وطالما انتظر هذا المجيء. يريد أن يقول هذا لها: «أصبحت جاهزا بشكل أفضل» ليس هذا أمرا صعبا. الجيران يظنون أن كاتبا معتوها أو غبيا، لكنه يعرف

كيف يعبر عما في نفسه. أخرج المرآة من جيبه، وألقاها أمام زهرة بهدوء. رفعت رأسها باسمة، وعلى وجهها علامة استفهام. ما الذي تتساءل عنه؟ كاد كاتب يقول: «أصبحت جاهزا» ولكن لا يدري لماذا لم يستطع لفظها عندما رفعت رأسها بعد أن أعطاها المرآة. تمتمت زهرة بعبارة: «أتظن أنه ليس عندي واحدة؟» في أثناء إخراجها مرآتها، وإعادتها المرآة التي جلبها لها. اهتز كاتب لكنه لم ييأس. ألقى أمامها المشط، وقال الكلمات نفسها، لكن كلماته اصطدمت بحاجز صدى صوتها: «أتظن أنه ليس عندي واحدة؟»، نعم هكذا: «أتظن ليس عندي؟» بعد أن أرته مشطها، وأعادت له مشطه الذي سقط عند طرف قدمه لم يستطع قول: «أصبحت جاهزا». أعادت له علبة كريمات الوجه، كان عندها واحدة. المرآة، والمشط، وعلبة الكريمات عند قدمه. نظر إلى الأشياء المرمية عند قدمه بحزن. وطالما كانت تؤلمه المواقف الحزينة كهذه. جمع الأشياء، ووضعها في جيبه وهو يبتسم، ثم مشى. كان بين لحظة وأخرى ينظر خلفه، وكلما نظر يجد زهرة تبتسم، فيرد الابتسامة إليها.

كيف يبتسم كاتب في موقف كهذا يحطم الرجال؟ تفتحت جروحه فجأة، يبدو أن هذا لعدم نزفها منذ البداية. لعل هذا بسبب شعور الرجولة الذي لا معنى له؟ ألخوفه من مقابلة الابتسامة بالعبوس؟ أم لشعوره حينئذ بخطأ وقَعَ فيه عمق لاوعيه دون علمه؟ في الحقيقة هذا ما يجب أن يكون. وهكذا قالوا. أخرج لها كاتب مرآة فأخرجت مرآتها. أخرج مشطا فأخرجت مشطها. أخرج علبة الكريمات فأخرجت علبتها. إذا كان هذا ينير ضوءا في الظلمة، فكلاهما عمل على إنارته. لعل زهرة تلقت التعبير ولم تهتم بالأشياء: لديها الأشياء ذاتها فلم تأخذها. من جهة أخرى، كيف لها معرفة أن كلامها لكاتب: «أتظن ليس عندي

واحدة؟» منعه من قول: «أصبحت جاهزا!» لعلها كانت تحتضنه بكل ماليديها بعبارتها: «أتظن ليس عندي واحدة» ولكن لم يستطع كاتب تلقي هذا. ما يفهم من هذا أن حبه للأخت زهرة تجاوز حده. لم ير وجهها يحتضنه هكذا، بل رأى الفراغ المالئ عينيها. لم يكن سوى صاحب دكان ليوم واحد. أي كان على عتبة الحياة. لم يدرك ضرورة تحركه إلى هذا الطرف أو ذاك والنظر إليها.

لذلك عندما أخبره أبوه بأنه صار في سن الزواج، وهمس في أذنه اسما لا يعني له شيئا، واكتفى كاتب بطأطأة رأسه، وقوله: «لتكن التي تريدها»، ابتعد السمو ما فوق الواقعية. أي أصبح لا يفرق بين امرأة وأخرى بعد عودته عن عتبة الأسمى، وتحوله إلى وتد مغروس في الأرض. لكنه أحب زوجته وطفليه. وهذا ما يقوله لولديه الآن، ولو كانت زوجته حية لأخبرها بهذا. كان يرتبط بهم روحيا، ولا يرد لهم طلبا. كانت بعض ظلال الغيوم الكبيرة تخيّم على عقله في أثناء حديثه، أو ممارسته الحب مع زوجته، ولكنها لم تحدّ من اندفاعه. لم يكن ثمة تشابه. عندما يتحدث، أو يمارس الحب مع زوجته، كان يقوم بعمل طبيعي، لكن الحديث أو ممارسة الحب مع زهرة كالانخراط في مغامرة غير واقعية، أو تحقيق معجزة. المعجزة حققها شخص آخر من أوتة غتشة.. إنه جاويش البلدية حجيلا. لم يقلق هذا راحته أو يشعره بالغل نحوه. كان ينظر بإعجاب إلى زوج الأخت زهرة.

إنه في نقطة لم يستطع الوصول إليها. كان في فسحة خارج تطور الإنسان الطبيعي، كيف يشعر بالغيرة منه؟

بعد سنوات طويلة، وفي أثناء إقامته في بيت ابنه القاضي، قال لهم أحد القادمين من القرية: «جاويش البلدية حجيلا أعطاكم عمره، ولم

يترك ولدا» حزن كاتب لأن زهرة لم تعد معجزة، حتى إنه لم يفكر في ملء الفراغ الذي تركه الجاويش حجيلا. عاش طويلا في هذه الدنيا، واكتسب خبرة، ولم يمنعه قيد رجليه من الذهاب إلى زهرة. ولم يشعر أحد بوجود القيد. والآن لا يشعر أحد بغيابه. هنالك إرادة واحدة في داخله، وهي الدخول من خلال باب بيت الأخت زهرة الموارب دائما، وتعزيتها، والجلوس معها مدة نصف ساعة لتفضي له بهمومها، ويفضي لها بهمومه.

بعد أسبوع كان في أوتة غتشة.

وضع حقيبته على الأرض، وفتح قفل الباب، ودخل. فتح البساط المطوي، وبسط فوقه فراشا. جلس بعض الوقت، ثم توقف. غيّر ثيابه، ووقف عند الباب. زاره بعض الجيران. تحدث إليهم، واستمع منهم عن رحيل الجاويش حجيلا، تأوه. اتجه نحو بيت الأخت زهرة، كان يبعد عن بيته مقدار ثلاثة بيوت. دخل من الباب ذي المصراعين إلى فسحة الدار، صعدالدرج العمودي. نقر على باب الغرفة التي تجلس فيها زهرة.ظهرت أمامه. ابتسمت ابتسامتها الجميلة اللامتغيرة، وقالت: «أهلا وسهلا كاتب». خشية أن يرى تعبيرا ساخرا في عينيها فلم يرد التحية، وتمتم بعبارة: «البقية في حياتك» عندئذ غابت ابتسامتها كانطفاء المصباح، ونظرت إلى الأرض وقالت: «قطع الله حياتي» هذا جواب تقليدي لأي امرأة هناك تفقد زوجها أو ابنها، لكنه شعر في إجابتها غاية الجد. لهذا قال لنفسه: «زهرة مهمومة جدا» أحس بألم ينتشر في داخله. تكلم بألم. أجاب باختصار عن أسئلتها حول ولديه وزوجتيهما، وحفدائه في العزيز وأضنة. لم يسأل هو عن شيء. حتى إنه لم ينظر إلى وجهها. تحدثت بطلاوة، وهو مازال ينظر إلى الأرض. في أثناء كلامها خيّم عليه شبح ذاك الخجول الذي وضع المرآة والمشط وعلبة الكريمات في جيبه

بعد ردها لهن. عندما يبذل جهده، ليرفع رأسه وينظر إليها، يجد أن عينيها موجهتان إليه، ونظرتها ذات حدة، فيرف بجفنيه، ويعود بنظره نحو الأرض، هكذا ملأ نصف الساعة من الوقت مع الإنسانة التي طالما حلم بها. عندما مضى الوقت وقف متأهبا للذهاب. طلبت منه الأخت زهرة البقاء أكثر، وتناول الطعام، وكررت الطلب عدة مرات، لكن كاتبا لا يريد إقلاق امرأة في حدادها، ويسبب القليل والقال حول أرملة.

منذ ذلك الوقت ازداد سير كاتب اللامتناهي، كان يرى في ساعة متأخرة من الليل وهو ينسل كشبح من باب داره ويسير في السوق، وعلى الجسر، وعلى ضفاف نهر جاهان، وفي أزقة أوتة غتشة، بتلك الخطوات الخفيفة التي نعرفها، ويبدو وهو يمشيها أنه لا يطأ الأرض بقدميه. كنا ندهش، ونخاف أحيانا. لكن محمد علي لا يدهش. كان يقول: «من المؤكد أن هذا سيحدث» إنه يسير نحو سعادة أكثر حيوية، لأنه يسير نحو زهرة أكثر حيوية وحقيقة. على الرغم من عدم اقترابه منها، لكنه لا يدرك أن سيره نحو اللانهاية قد تغيرت خصوصيته، فأصبح كما كان قبل زواج زهرة من حجيلا. ولأن سيره نحو اللانهاية تغير بعد ورود إمكانية وصوله إلى زهرة، فلم يجد مبررا لعدم ذهابه إلى العزيز أو أضنة على الرغم من رسائل ولديه التي تعبر عن خشيتها من سقوطه ضعيفا وحده، كما إنه لم يجد جوابا على الرسائل يبرر به بقاءه في أوتة غتشة. بما أنه يسير نحو زهرة في أطراف البلدة، أو عند الجسر، فلا فرق لديه إن كان في العزيز أو في أضنة. لم يؤد الطريق به إلى أي مكان في أي وقت. يكفي ظهور الطريق أمامه. هذا كل شيء. ذهب إلى العزيز. لم يخطئ، فهناك سار نحو زهرة، ولكنه شعر بضيق يكبر. لم يستطع البقاء في العزيز أكثر من شهرين. ذهب إلى أضنة. من المؤكد أن سيره في أضنة كان نحو زهرة أيضا، لا يستطيع التفكير بغير هذا.

الضيق الذي كان يشعر به في العزيز لم يفارقه في أضنة. بعد عدة شهور قضاها في أضنة، أدرك أنه لن يستطيع الابتعاد عن أوتة غتشة، أي عن زهرة. وهذا ما كان يتجنب قوله صراحة لولديه، إذ يقول: «ماء وتربة البلد تشدني. لا أستطيع الابتعاد عنها».

عاد في النهاية.

بعد عودته أدرك جيدا الفرق بين السير نحو زهرة في العزيز أو أضنة، والسير نحوها هنا في أوتة غتشة. يا الله! إنه لن يصل إلى الأخت زهرة، ولكنه يستطيع أن يلتقيها هنا. إنه يراها، وتراه. كيف لم يفكر في هذا؟ كانت تنظر إليه الأخت زهرة بطرف عينها، وهو يراها تفعل هذا بوضوح، وبهذا كانا يتقابلان. كيف لم يفكر في هذا؟ كانا يلتقيان مرة، أو مرتين، وأحيانا ثلاث مرات في اليوم. إنهما يسيران كل منهما نحو الآخر في أوتة غتشة، ولو لمدة قصيرة. لا يتعالى كاتب على أحد من أهالي أوتة غتشة، لكنه يفعل هذا في العزيز أو ملاطية، أو مرعش، أو عينتاب، أو أضنة، ويجد أن له الحق في هذا لأنه ربى مدير بريد وقاضيا. كان يصافح زهرة، ويبتسم لها ابتسامة طفولية وينظر إليها متلهفا:

- كيف حالكِ؟

- جيدة. وأنت؟

- الحمد لله! شكرا لك.

- أتتلقى أخبارا من الأولاد؟

- نعم الجميع بخير.

- هيا، مع السلامة.

- مع السلامة.

ثم يذهبان في اتجاهين متعاكسين. وبالشكل الذي لم يدرك فيه أن عبارة «أتظن ليس عندي واحدة؟» نداء يمنحه جرأة، فهو لا يدرك الآن أن عبارة: «مع السلامة» فراق غير مرغوب، ولكن هذا أفضل من لاشيء. أدرك هذا بشكل أفضل عندما قطع منطقة أوتة غتشة من أولها إلى آخرها، ومن آخرها إلى أولها عدة مرات دون أن يلتقي زهرة. قال لنفسه: «يا لقلة لقاء الناس عندما يمتد العمر بهم، حتى لو كانوا جيرانا». يالسوء عدم اللقاء إنه يشابه أن يضل طريقه بين دكاكين العزيز، ويترك الإنسان في فراغ مطبق، لا يستطيع فيه معرفة أي شيء. عليه أن يعرف كل شيء بالتفصيل: ماذا تفعل زهرة إذا كانت لا تخرج؟ كيف تجلس؟ كيف تنهض؟ بماذا تفكر؟ إلى ماذا تنظر؟ أكبر مساوئ الحياة بعيدا عن الأخت زهرة، عدم معرفة أي شيء عنها، وعكس هذا العيش معها في منطقة واحدة. تستطيع في أي لحظة معرفة ما تفعله. تدخل من الباب ذي المصراعين، وتصعد الدرج، تراها، وإذا لم تكتف برؤيتها يمكنك أن تسألها: «ماذا تفعلين؟» وهذا هو الأجمل. لا يريد أكثر من هذا. عند وصوله إلى هذه النقطة، لابد أنه سيسأل: «لماذا؟».

بعد هذا السؤال لم يكن سهلا تفكيره في جوابها: «أتظن ليس عندي واحدة؟» ولم يكن شعوره بالانسحاق سهلا أمام منظر حجيلا بقبعته ذات الشريط الأحمر، وبذلته الكحلية، وحزامه البراق. كان يخفي عنها حبه الكبير أحادي الطرف، أي سيره نحو اللانهاية، وكل تحولات هذا الحب. لم يخطر بباله أن توسط الجيران، وولديه اللذين لا يردّان له طلبا، يمكن أن يضع الأمور في نصابها، فيحيد عن زاوية رؤيته التي

يبحث من خلالها عما في دكانه الصغير.. لا يتلاشى أمام القبعة ذات الشريط الأحمر. لا يستطيع خلق صورة كهذه بسيره نحوالفراغ، أو بقائه في العزيز أو أضنة، أو بمختلف أنواع البذلات. فكر أن حصوله على عمل كتابي سيوصله إلى زهرة. ولكن كيف؟ تداخلت الأرقام التي يلوكها لسانه، فعادت إلى عقله ليعمل بها من جديد كطفل متعب، وبدأ يضغط على نفسه، عاضا على شفتيه الجافتين. أمضى أياما وأسابيع وهو يبحث. كتابة رقم أو رقمين على ورقة صغيرة تجعل الإنسان يبدأ في السفر. ورقة ممدودة إليه، يقسمها إلى نصفين، يعطي نصفها لإنسان آخر فينفتح له باب جديد، وهو يستطيع عمل هذا بسهولة.

لكن صاحب السينما ضحك لهذه الفكرة، والسائقون أيضا ضحكوا، في الحقيقة ليس ثمة ما يضحك، فقد طرح فكرته بغاية الجد. يريد الزواج لهذا فهو يبحث عن عمل. مرة أخرى يضحكون، ويسألونه عما إذا كان ولداه يرسلان له نقودا. جواب كاتب واضح أيضا. إنهما يرسلان. ولو أراد زيادة لفعلا، ولكن ليس هذا هو المهم. لا يريد أن يقال عنه: «تزوج بنقود أولاده» لذا كان يبحث عن عمل، إنه مستعد للعمل بأجر زهيد، بخمس أو عشر ليرات شهريا، أو من دون نقود. يضحكون مرة أخرى، ويسألونه عن سبب عدم بقائه عند ولديه، وعن عودته بسرعة عندما يزورهما، فيتصبب عرقا، لكنه لا ييأس. نعم، كان ولداه وزوجتاهما يحبونه كثيرا، ويرتاح عندهم. ولكنه يريد أن يكون له بيته وزوجته ككل إنسان في هذا الكون، لهذا يطلب العمل. كان أصحاب السينمات، والسائقون، لا يفهمون هذا. يعتقدون أن كاتبا يريد أن يدخل بعلاقة ما مع امرأة ما، لهذا يضحكون ويقولون: «عُذرا لا توجد شواغر الآن، سنطلبك عندما يستحدث» يخرج مطأطئ الرأس، وهم يقولون: «جُنَّ كاتب».

لم يجن، لكنه يسير نحو الجنون. كان سيره نحو زهرة يمنحه سعادة لا توصف. اختلف الوضع تماما. أصبح لا يسير ليظهر أو يعيش أو لا يتغير. لم يعد يسير كما كان، نحو زهرة المطلق، بل من أجل زهرة أرملة حجيلا، الوحيدة خلف الباب ذي المصراعين، بإرادة الوصول إليها والعيش معها. بهذا يسير نحو الجنون. ضاقت المساحة التي يسير فيها. أصبح يسير في أزقة أوتة غتشة الضيقة فقط، ولا يلتقي زهرة إلا ما ندر. ويجن جنونه لهذا فيقول: «يا الله! ما أقل لقاء المسنين؟!». ثار إلى الحد الأقصى مساء اليوم الخريفي الذي نزلت غيومه إلى ارتفاع شديد الانخفاض. ضاقت مسافة سيره إلى ذهاب وإياب لعدة مرات بين بيته وبين الأخت زهرة، لعدة ساعات، وكأنه محاط بالجدران. لم تظهر زهرة. كلما تأخرت في الظهور، رغبته في الموت. قال لنفسه: «هل انتهت الحياة؟» لم تنته. يسير البعيدون عنه على طريق الحياة الأكثر هموما وصعوبة. كم من الناس يقطعون بطاقة إلى نصفين، وكم منهم يفتحون باب الحياة في عالم نزلت غيومه إلى هذا المستوى الخفيض، وكم من الأيدي تحاول كتابة رقمين أو حرفين، وكم من البشر يبدؤون رحلة جديدة في مكان لم تسودّ فيه الغيوم بهذه الدرجة. لا يمكن الادِّعاء أن كل شيء على ما يرام. يبدو أن كاتبا سيصل إلى زهرة، أو سيدخل من باب دارها، ويصعد الدرج العمودي، ويدفع باب غرفتها قائلا: «كيف حالكِ؟»، أو سيراها وتراه كل يوم. هذا ما يزيد من شعور كاتب أنه يدفن. أراد أن يقف قليلا قبل دفنه، فدخل إلى البيت.

برقبة ملوية، ووجه أزرق، وقدمين متأرجحتين ببطء على ارتفاع شبر من الأرض.. تظنه يسير ولو لمدة قصيرة، وتلخص عمره. إنه يسير في مكان ضيق من جهة، ولا محدود من جهة أخرى. الأخت زهرة تسير ولا أحد يدرك هذا، فيتكلمون عن أشياء غريبة.

لا يمكن لأي شخص أن يكون محمد علي.

أورخان ضــرو

ولد في مدينة اسطنبول عام ١٩٣٣

خريج كلية الطب البيطري في أنقرة. عمل طبيباً بيطرياً في أورفة وأنقرة بين عامي (١٩٥٦ -١٩٥٨)، ثم معيداً في الكلية التي درس فيها. فصل من عمله في القضية السياسية المرفوعة ضد (١٧٤) شخصاً، وعرفت باسم قضية الـ (١٧٤)،إثر هذا اتجه إلى العمل الصحافي في مختلف الصحف، وهو يعمل في جريدة (مليِّت) منذ عام (١٩٧٠).

كتب الشعر والقصة، لكنه اشتهر كقاص.

تتميز قصصه باحتوائها على أبطال يعيشون تحت ضغط المؤثرات الاجتماعية، ومتناقضين داخليا، ويائسين غالباً. وهكذا يعتبر كاتب قصة وناقداً اجتماعياً، كما عُرِفَ عنه التجريب والاستفادة من العناصراللاواقعية. أهم مجموعاته القصصية: «المتروك ١٩٥٩»، «خبير التوازن ١٩٦٢»، «عمال الأعمال الشاقة ١٩٧٤»، «الفقراء قادمون ١٩٨٢».

فاز بجائزة مؤسسة الإذاعة والتلفزيون التركية عن قصة: عمال الأعمال الشاقة.

قال عنه الناقد عاصم بزجي: «إن لغته بسيطة لا تحتوي على تزيينات وأسلوبه مباشر وقصصه أقرب إلى الرصد والعرض، وبعيدة عن تسجيل الأحاسيس. موضوعه غالباً ما يسير عبر الأحداث الصغيرة، إضافة إلى أثر بسيط من سخرية تشيخوف، ترسمها على الأرجح سماتها الخارجية».

مقطع

البائعة تنظر إلى المطبوعات التي اشتريتُها بعد أن نثرتها أمامها، وتنظر إلى السعر ثم تنقر بأصابعها الرفيعة الطويلة المستقيمة على أزرار الآلة الحاسبة المتربعة كالصندوق على الطاولة أمامها. تك.. تك.. تاك.. ترااااك.. وكلما انتهت من إحداها يظهر رقم كبير جداً في الثقب الذي يشبه النافذة، ثم يغيب مع بدايتها من جديد، تك.. تك.. تاك.. ترااااك.. رقم جديد، وفي النهاية: ترااااك.. فالمجموع. الرقم مخيف لكن المرأة، أو الفتاة الشابة البائعة جميلة وظريفة، تجعل المرء يميل إلى الوداعة والحب، وجاذبيتها تجعله يُدمن النظر إليها.. ضجيج الآلة من طرف، ونشوة لا يمكن إخمادها من طرف.

أي تناقض هذا؟ ما مدى هذا التناقض المتجذر في العصور القديمة، والممتد حتى عصر الفضاء؟ إنه التناقض الممتد من رنين المال إلى تناغم الطبيعة. إن وجود نقطة تطابق بين المتناقضات احتمال جدلي.

لولا القوة المادية لدار النشر والتوزيع هذه، فهل من الممكن رؤية هذه المرأة الجميلة هنا؟ أو ما فائدة كل هذه القوة المادية لو لم تكن هذه الفتاة الجميلة هنا؟ كان من الممكن رؤية امرأة قبيحة أو عجوز.

لابد أن الانفعال جعل بلعومي يجفّ. عزمت على الخروج فوراً إلى خمارة يعقوب (رفيق سابقاً) لأشرب قدحين من الخمر الممدد بالماء، وأتناول بعض المقبلات. لو سمعت جارتنا فاطمة بهذا لأشاعت بين الجيران أنني أبدأ الشرب من النهار، مع أنني غالباً لا أبدأ إلا ليلاً.

ينتهي ضجيج الآلة الحاسبة، وبمهارة فائقة تلف البائعة المطبوعات بورق جيد ثم تلصق اللفة. وتلقائياً خرج من فمي صوتٌ مخنوقٌ، وقلت كلمات مثل: «سلمت.. سلمت.. أمدَّ.. أمد.. سلمت يداك.. أمدّ الله في عمرك.. عن إذنك.. بسم الله.. آمين..»

ماذا أرى؟ المرأة لا تنظر إليّ. حتى إنها لا تصغي لكلماتي. تحاول إصلاح شعرها وهي تنظر إلى مرآة جانبها، وتستمتع بإنهاء عملها. ترتدي مايشبه بذله العمال مصنوعة من قماش الجينز، ومنفوخة، وبهذا الانتفاخ تصبح كلباس رواد الفضاء. شفتاها وأظافرها مصبوغة بلون باذنجاني. عيناها مظللتان بلون أخضر. كانت تتأكد من موازنة عرض صدرها لكل من عرض فخذها ودقة خصرها. ما هذا الشبق! من يعلم ما الذي يخطر ببالها الآن؟

لحظتها لم يبق لي متكأ أو عصا أستند إليها. لم تنظر إليّ هذه المخلوقة الجميلة. إنها تنظرإلى المرآة. هل هي نرجسية.. أم معجبة بنفسها، أم أنانية؟ أي خصائص شخصية، ومظهر خارجي أتمتع به أنا بالنسبة إليها يا ترى؟ أحمل في داخلي غضباً وانكساراً.

إنني أبحث عن أمر، عن علاقة إنسانية، أو اقتراب، أو ابتسامة.. أو حساسية.. أو جنون.. أو تعصب.. عشق.. وأمور وأمور.. إنها لا تنظر إلي، حتى لا تسمعني. إننا نعيش في عالمين مختلفين أو متباعدين كثيراً. كم نحن بعيدان على الرغم من تجاورنا. إنه تناقض.. أكاد أبكي هناك. أبحث عن زجاجة الدموع الأثرية الرومانية. أفتش في جيوبي، لا أجدها. ما فائدة البكاء دون تلك الزجاجة؟ لابد أنني نسيتها في البيت. لعلني بعتها. لا أعرف. عندئذ تذكرت طفولتي، وبيتنا القديم،

وبطاقة الخبز، ومرضي، والأطباء، والحروب، والقحط، والزلازل، والمجازر، والمنافي، والقمع، والعدوان، والقنابل، والشظايا.

عندما تتصرف هذه المرأة هكذا أشعر بالوحدة وأخاف.

مر جمع من الرجال النحاف، والفتيات يرفعون أيديهم نحو السماء ويخفضونها، ويصرخون مرددين الأناشيد والشعارات.. يجب أن يتغذى هؤلاء.. «........ ثورة حتى التحرير».

شيء غريب حقاً. عندما يقال: «تحرير» أتذكر حي (ببجي) وليس الحي الذي يحمل الاسم نفسه، أممكن هذا؟ يعتبر هذا الحي أقدم أحياء العاصمة.. بعد هذا يخطر ببالي حي (فيري كوي). أنا لدي المزيد من الذكريات، أكثر مما يجب، ولا أستطيع حمل كل هذا منها. أرغب في مسح كل ما في عقلي، وبرمجته كحاسوب. هرب كل من رأى المظاهرة خائفاً. أغلق الباعة أبواب دكاكينهم.. ثلة من الشباب يتظاهرون. البائعة تنظر إلى المرآة، ولعلها تتأكد من جمالها للمرة المليون.

أربعة أو خمسة عمال أنزلوا من حافلة على يد بعض المسلحين بالمسدسات الرشاشة، وذوات الأربع عشرة، والكلاشنكوفات، والعقارب.. بطحهم هؤلاء أرضاً، وأطلقوا عليهم النار. ثم أطلقوا مجدداً وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة. أحدثت الطلقات صدى مدهشاً وسط هذا الوادي العميق الذي يشكله هذا الركام البيتوني من الأبنية. عندئذ لم أجد معنى لما حدث، لأنني أنظر إلى جمالٍ وحيويةٍ وظرافة. أريد النظر إليها، لكن عيني انزلقتا إلى الخارج، كما انزلقت عيناً الفتاة إلى المرآة. ملأ رجال الجيش والشرطة مكان الحادث. أوقفوا الجميع، وحققوا معهم، وفتشوهم. العمال ملقون أرضاً، وتُلتقط لأجسادهم ودمائهم

الصور بآلات تصوير حديثة جداً ماركة نيكون ولايكا. الفلاشات تتلامع، والمكان كالمسلخ.

لعل هذه الفتاة غير معجبة بوجهها فتخجل. لهذا لا تنظر إلي. لعل وجهي مقطب، وشفتي متهدلتان. إنني لا أمنحها الثقة. ابتسمت عارضاً أسناني المصفرة من التدخين، والمتشكل بينها بعض الحجارة. قلت: «عذراً لإتعابك معي» يجب أن أنظف أسناني. طوال حياتي وأنا أنظفها بالفرشاة. لم ينفع هذا، لقد اصفرت واسودت ونُخرت. وانتفخت اللثة أحياناً. لعلي ضغطت على أسناني أكثر مما يجب.

لا جواب أو نبس.

شعرت باليأس. ألهذا أهمية؟ قلت لنفسي: لعلها عاشقة لشاب جميل، وحيوي. ممكن. تعلقتْ به. أفكر في بعض الاحتمالات السيئة بخجل. قد تكون عشيقة أحد الأغنياء. من أين لها هذا القرط الغالي؟ وهذه الألبسة؟ أمن الممكن الحصول عليها مما تتقاضاه؟

وقفت ناظراً إلى البائعة التي تنظرإلى نفسها في المرآة، حاملاً لفة المطبوعات في يد، وما أعادته إلي من النقود في الأخرى. من جهة ثانية، أذهب بخيالي مستعرضاً الفوضى في الخارج، والأشجار المزهرة، والماء الذي يسيل على الأغصان، والسهوب المخضرة، وقسماً من البوسفور، والأسماك التي تعبره، وطيور القمرية، وذكريات البحر، والجسر المعلق، وهضبة حي الاسكدار، وأعبر إلى الأناضول. الأناضول الواسع والذابل، والهضاب والسهول، والأبقار بارزة العظام وهي ترعى، والأغنام التي تشبه إليتها الكيس المنتفخ، والعمال الذين يضعون قضبان الحديد في حفرالأساسات، ومداخن المصانع، والغيوم التي تشبه كومات القطن.

مـاذا أنتظر؟ احـترامـاً بورجـوازياً سطحـيـاً؟ ابتـسـامـة؟ أم اهـتـمـامـاً بسـيطاً؟ هذا أمـر ليس سـيـئـاً، تتفـتح الأزهـار في هذا المحيط الـبـريـري وتضيئه. نظرتُ نظرة متعال. إنني أبحث عن علاقة إنسانية. الموضوع موضوع أخذ وعطاء. بفرض أن الفتاة البائعة ابتسمت لك، ما الذي ستقدمه لها بالمقابل؟ أنا.. ليس لدي ما أقدمه! لعلني أقدم لها تحية. هذا كل شيء. ولكن ألا يعتبر تناغم الارتجاف أمـر؟ أمن السوء اصطحاب هذه الفتاة ومداعبتها؟ أو تمرير يدي على جسدها، أو جسه إذا ما كانت حرارتها مرتفعة؟ أما الذي يلي هذا فلا علاقة لكم به، ولا لي أيضاً.

لا يحدث أي شيء من هذا. يتراكض الطلاب، والشباب، والفقراء، والباعة، وأصحاب البسطات، وبائعو الخضر، والأرامل، والمتقاعدون عندمـا يرونني. ويصطفون أمامي، ويحدقون في عيني بيأس، ثم يصرخون:

«عاش الإمبراطور، عاش السلطان!»

أمد يدي فاتحاً إصبع السبابة.

لحظتها تنظر الفتاة إلى وجهي لأول مرة فتصرخ.

فأنزل إصبعي إلى الأسفل.

سيفي خارج هذه الضوضاء، يستمع إلى أغنية المطربة (نيل بُراق): «عفوت عنك، ويتخيل أنه يسبح في قدح الفوتكا، وعروقه الدقيقة موزعة هنا وهناك: «سأقتلك! وسأذهب إلى السجن، وأنت إلى المقبرة. لا، لا.. لعلني أذهب أنا أيضاً إلى المقبرة» قفز كالجرادة إلى مركز انطلاق الحافلات في خياله. شرب الفوتكا ليغلق على نفسه الظلام. عندما وصلت المطربة إلى عبارة: «عندما يحل الليل يبدأ الألم في داخلي» من أغنية «الفراق» ضرب رأسه بقبضتيه.

انسحبوا من أمام النافذة. قال أدهم: «لنذهب نحن، ونم أنت قليلاً»

«أغنية: الأغنيات تغنيك، جميلة، لكن المرأة بضاعة سيئة. ماذا قلت يا عيني؟ هل ستذهبون؟ ما زال الوقت مبكراً».

قال أدهم: «لنذهب يا أخي، هناك من ينتظرنا»

«ما أجمل أن يُنتظر الإنسان! الأغنيات تغنيك»

قال جمال: «شكراً على كل شيء»

قال سيفي بلسان ثقيل: «سأجد لك عملاً أيها الشاب. لا تهتم يا عيني» تخيل أنه في أنف جمال ويقول: «آه..»

قال مصطفى: «سلم على الأخت نيغار»

«وعليكم السلام. وعليكم السلام.. آه، يا للأخت اللطيفة..»

قال أدهم: «من أجل خاطرنا لا تشرب بعد الآن، كفى،.. انظر..»

قال مصطفى: «لماذا ستبقى هنا وحيداً يا أخي؟ لماذا لا تذهب إلى بيت أخت نيغار؟»

«آآ.. نعم، نعم. صحيح. لِمَ لم يخطر ببالي هذا حتى الآن، شكراً، تعالوا مرة أخرى، لا تطيلوا الغياب».

تعانقوا، وتوادعوا أمام الباب، وافترقوا، ولكن بخطوات ثقيلة، وكأن شيئاً ما سيحدث. أسند سيفي يديه إلى طرفي الباب، وطأطأ برأسه المتثاقل، فأصبح كمن يُعذّب وأغمي عليه أثناء التعذيب. تخيل إبرة تتغرس في سبابة يده اليمنى. تحول لون كل شيء إلى الرمادي. شعر أنه في منطقة مستنقعات، والوحوش في قعرها تشده من قدميه إلى الأسفل. ليس هنالك قعر. والسماء فراغ لا أول له ولا آخر، وهو هائم على وجهه، ونيغار كزهرة ساكنة على قطعة من الطين تطفو على الماء العكر وتخبئ جذورها كي لا يمسكها سيفي: «كان عليك ألا تفعلي هذا بي!»

كانوا يراقبون سيفي عن بعد عشرة أمتار.

قال جمال: «وضع هذا الرجل سيئ جداً، لا يُترك وحيداً»

قال مصطفى: «لدى هذا الرجل ما لم أفهمه اليوم»

قال أدهم: «انتظر هنا، سأذهب وأسأله» وصل بعدة خطوات. احتضن سيفي الذي كان يقول:

«الأغنيات تغنيك. أغنيات قذرة.. أنا..» «حالتك يا أخي سيئة، ادخل»

لَكَمَ سيفي خيالاً تصوره يقف جانب الجرس.

قال أدهم: «مالك يا أخي؟ لن نذهب»

«ثمة ذهاب، وثمة موت.. وأغنيات تغنيك»

بكر يلدز

ولد في مدينة أورفة عام ١٩٣٣

عاش طفولته في مدن (قسطموني)، و (عينتاب)، و (أضنة). بدأ دراسته الأولى في مدينة مرسين، وتخرج في معهد الفنون -اسطنبول عام ١٩٥١، ثم تخرج في مدرسة الطباعة، قسم التنضيد عام ١٩٥٥. عمل منضداً للحروف في المطابع. ذهب إلى ألمانيا عام ١٩٦٢ ليعمل هناك في مختلف المصانع والمطابع. اشترى بما ادخره آلة طباعة وعاد إلى اسطنبول، وأسس مطبعة (آسيا)، ثم أغلق المطبعة وتفرّغ للكتابة.

قدم التجربة التي عاشها في ألمانيا خلال أربع سنوات في رواية بعنوان: «الأتراك في ألمانيا ١٩٦٦»، أما كتابه الثاني فهو مجموعة قصصية بعنوان: «رشو آغا» تناول فيها بيئة منطقة أورفة.

نال عن مجموعته القصصية الثانية: «القاطرة السوداء ١٩٦٩» جائزة (ماي) للأدب، كما نال جائزة سعيد فائق للقصة عن مجموعته: «شاهين المهرب ١٩٧٠».

تناول في قصصه موضوع الصعوبات التي يعاني منها الفلاح في صراعه مع الأرض لكسب لقمة عيشه، وموضوعات التهريب، والعادات والتقاليد الآسرة للإنسان، والمفهوم البدائي للشرف وما يؤديه من جرائم، والثأر، والزواج بالإكراه، والولادة في ظروف صعبة، والإجهاض، بشكل قاس ومثير.

مجموعاته القصصية: «من لا صاحب لهم ١٩٧١»، «شركة الزواج - قصة طويلة ١٩٧٢»، «عصر الإنسان ١٩٧٦»، «الدمية الحديدية ١٩٧٧»، «أناس المحشر ١٩٨٢»، «عروس السهل ١٩٨٥»، ومجموعة مختارة من قصصه ١٩٨٩.

رواياته: «العبد ذو الحلقة ١٩٨٠»، «حروب عائلية ١٩٨٤»، «الظالم، والمؤمن، وكربلاء ١٩٨٦».

كتب في مجالات أدبية أخرى مثل: المقالة - التحقيق - قصص الأطفال. من كتبه المخصصة للأطفال: «وادي النسور ١٩٨١»، «اليقطين الخالد ١٩٨١»، «جيش النحل ١٩٨١»، «المسدس الحي ١٩٨١».

بـــدرانة

بداية هبّت عـاصـفـة سـوداء، واسـتـمـرت عـدة أيام. جـرفت كل مـا هو خـفـيف، وأزالت نـدف الثلج الناعـمـة في البـداية والكبيـرة فيـمـا بعـد . عندمـا أصبـحت القـمة المدببـة للجبل الأسـود مسـتوية، فتح طريق قـرية (مجمن بهار) للذئاب..

رفـعت بدرانة اللحـاف الذي كـان يغطي ركـبـتـيـهـا، وحـركت النار في الموقد. كانت النار ضعيفة، وقالت: «أنا سـأنام» رفع نايف رأسـه، ونظر إلى زوجـتـه. لا يدري لماذا ارتجفت شفـتـاه عندمـا أراد أن يتـحدث إليـهـا. قال: «أضرمي النار في الموقد. ستُحل المشكلة هذه الليلة».

خافت بدرانة، وهرعت إليه كأن سكرها سيذوب في الماء، قالت: «أي مشكلة؟ أنا فداء عينيك لا تفعلها».

أطرقت بدرانة. اصفّر وجهها. خفق قلبها خوفاً.

ابتعد نايف عن الموقد، ووقف على قـدميه الدافئتين. دلّك فـخذيه المتخدرتين. لحظتهـا رفعت بدرانة رأسـهـا. دب في داخلهـا الذعر وهي تتابع زوجـهـا. لم تكن هكذا حتى في ليلتهـا الأولى معه. لعل تصـرفاته الرقيقة في تلك الليلة ولّدت في نفسها الاطمئنان. قال نايف: «نعم إذا كان قـد حدث هذا بالقـوة، فـلا حاجـة للسرعة. عـرفنا قوانين المدنيـة أيضاً».

فـتح نايف باب الغـرفـة. كـان الثلج قـد أضـاء الليل. نظر نحـو مكان الرجل الذي أطلق الدرك سـراحـه قـبل أسـبـوع. كـانت الذئاب تعـوي. اقترب مسافة أكثر من الليلة الماضية.

فجأة بدا له لون الثلج الأبيض قد اسودّ. صك أسنانه، وصفق الباب بقوة كأنه يسد عليها كل منفذ للأمل.

عاد إلى الموقد بعد أن جلب شيئاً من الحطب. بدأت ألسنة اللهب الضعيفة تتوهج.

عندما عاد إلى الموقد تعلقت به عينا بدرانة المجردة من النوم. نظر كل منهما إلى الآخر برهة. فعلت العاصفة في الجدران ما يفعله الموج الهائج. يكاد كل منهما يسمع نفس الآخر.

فجأة سأل نايف: «لِمَ عيناك مفتوحتان كأحجار الفأل؟»

سقط رأس بدرانة الذي كانت تحتضنه يداها إلى ما بين رجليها. انتشرت حرارة الموقد تحت جزء من اللحاف. «بدأت أخاف منك. كأن عينيك ستأخذان مني شيئاً».

قال نايف: «نعم.. يجب أن تموتي.. مرّت أيام، وأنا لا أستطيع الخروج من البيت، الجميع ينتظر، ويصغي إلينا، يتوقعون صدور صوت الطلق الناري بين لحظة وأخرى. ولم يعد الرجل الذي أرسلناه. من الواضح أن الطرق غير سالكة».

انتظر حتى الصباح من أجل الله. لعله يخلق هنا كالخضر ومعه دركيان»

قطب نايف وجهه ، وقال: «الأيام تمضي.. لا أحد من رجال الدولة يتحرك في أيام الشتاء والثلج هذه. ومن الممكن ألا يصل ناقل الخبر إلى المدينة.. ماذا تفعل الطيور والذئاب في أيام كهذه؟»

«وهل هذا ذنبي؟ حدث ما حدث قسراً. هل هنالك من لا يعلم

حقيقة الأمر في العشيرة؟»

أخرج نايف مسدسه من حزامه، ووضعه جانبه على المقعد. ابتعدت عنه بدرانة وتكورت في إحدى زوايا الغرفة.

قال نايف بصوت واثق: «لا تخافي.. لن أطلق النار عليك. هذا وعد. أنا لست شاهيناً. لم أنس ما جرى له. قالوا له في المدينة: هنالك قوانين. ورموه في السجن»

قفزت بدرانة وكأنها تلمست شعاع أمل، وقالت: «نعم ياه.. بما أن الأمر حدث بالقوة، فستظهر براءتي، ويرمونه في السجن. ماذا تريد أكثر من هذا؟»

فجأة صرخ نايف: «أين الحكومة؟»

اقتربت بدرانة حابية، وقالت متوسلة: «من أجل الله .. انتظر النهار، لعلهم يأتون..»

«الأيام كثيرة، ولكنها لا تختلف عن بعضها بعضاً. وهل انتظر أجدادي يوم الحكومة؟ آه منك يا شاهين وقعت بين أيدي الحكومة، وسلبتنا عقلنا. روحي فداء الأسلوب القديم. وهل يتآخى الجيد والسيئ؟ وهل يستقيم المعوج بقوانين المدينة؟»

سكتا برهة. أحدهما لا ينظر إلى الآخر. لوت بدرانة رقبتها، وركزت بصرها، وسرحت بفكرها. مد نايف يده ووضعها على المسدس الملقى جانبه وأخذه. قفزت بدرانة من مكانها عندما رأته».

عندئذ خطر ببال نايف فكرة جديدة. أعاد المسدس إلى مكانه. ليَّنَ وجهه. بدا أنه ميال للهدوء كي تهدأ أنفاس بدرانة وترتاح قليلاً.

نظر نايف إلى السقف، كان مغطى بجذوع أشجار الحور المصطفة، والمغطاة بحصيرة وطين. ثمة حلقة كبيرة في إحدى الجذوع التي تغطي الغرفة. تعلقت عينا نايف بهذه الحلقة مدة طويلة.

بدرانة أيضاً رأت الحلقة. هي تفكر فيها منذ زمن طويل. حسبت لها حساباً كي تعلّق بها أرجوحة الطفل الذي يتكون بين أحشائها منذ أشهر، فأفرغت لها مكاناً في قلبها.

سأل نايف بصوت أنعم من القطن: «أتريدين أن نتخلص من هذه المشكلة دون أن يدمى أنف أحدنا؟»

اقتربت بدرانة من زوجها أكثر: «أيسأل هذا يا سيد الرجال؟.. قل لي، أنا فداؤك. كيف السبيل للخلاص من دون دم؟»

أغمض نايف إحدى عينيه نصف إغماضة، وفكر قليلاً، وقال: «اسمعي يا امرأة. أنا صاحب تجربة جعلتني أرى الهند من ثقب إبرة. أنا شاب ولكنني متعقل. سألعب لعبة تنطلي على الحكومة من جهة، والعشيرة من جهة أخرى. عليك ألا تنبسي بحرف مما سأقوله أمام أحد».

«لن أفتح فمي.. ماذا؟»

«ستشنقين»

فجأة شعرت بدرانة بأن الثلج الهاطل خارجاً انهال على قلبها، وقالت: «هذا أيضاً موت. لمَ الفرح؟» هز نايف رأسه ليمنحها شيئاً من الثقة، وقال: «ليس شنقاً حقيقياً يا امرأة.. ليس حقيقياً»

«جعل الله كلامك مسموعاً أكثر مما مضى، هل هذا يعني أنني لن أشنق بجد؟»

«لم يتركوا لنا مخرجاً. أصبحت حياتنا دون طعم، كطعام دون ملح طُبخ في قدر مكشوف. المرأة مثل الحذاء نرميه عندما نشعر بضيقه. ولكن عندما تصبح القضية قضية شرف، فالأمر يختلف، لابد من الدم. إذا عفوت عنكِ أنا، فأبوكِ وأخوك واقفان لكِ بالمرصاد. هل سيسامحونك؟ منذ مدة وأنا أفكر في هذا. العشيرة تريد دماً.. دماً..»

كانت بدرانة تستمع بكل أحاسيسها. أخذت نفساً عندما توقف زوجها عن الكلام. ولكنها لم تلتفت إلى أي جهة. فكر نايف بأمور جديدة برهة. تناول مسدسه، ودسه في حزامه، وقال: «اسمعي يا بدرانة.. ليس في منطقتنا ما يشبه المدينة. والجبال السود لا تفسح المجال للذهاب أو الإياب. لا يوجد بيننا من يعرف القراءة والكتابة كي يدخلونه دار الحكومة. صوت العشيرة لا يسمع إلا إذا أريق الدم. ماذا قال ذو الياقة الخضراء لشاهين. شرعت في بالقتل. القلب يحب ويكره. إذا ضاجعت زوجتك رجلاً آخر عليك ألا تتبس. عندما تجتمع زوجتك وعشيقها، تأتي وتخبرنا. نحن نداهمهما، وينتهي كل شيء.. يا لهذا الرجل ذو الياقة الخضراء لم يحسب حساب الجبال. ستمضي الأيام والأسابيع قبل وصول الدرك.. وماذا سيقولون بعد مرور كل هذا الزمن؟! هذا ما لا أفهمه».

سكت نايف. نهض. وقف تحت الخشبة المعلقة بها الحلقة، وسأل: «هل يوجد لدينا حبل غليظ؟»

نهضت بدرانة. بدت ترتجف بقوة قبل وصولها إلى جانبه. خافت من الشنق حتى ولو كان الأمر لعبة. قالت: «لدينا»، وأضافت بصوت

مـرتجف: «أمـا اشـتـريت واحـداً طويلاً في الخـريف الماضي من أجل الحمار؟»

قال نايف: «اجلبيه.. لنر فيما إذا كان يصلح لهذا.. تأخر الوقت.. يجب أن يكون جاهزاً في الغد. ستشنقين نفسك.. ليس شنقاً حقيقياً. لنجرب الآن..»

فجأة وقعت بدرانة على قدمي زوجها، وبدأت تتوسل إليه باكية: «أنا خائفة حتى لو كان الشنق غير حقيقي. أليس من حل آخر؟ القواد فعلها معي عنوة. أنا لا ذنب لي. ليعلم الجميع هذا..»

فك نايف ذراعيها الملتفين على رجليه، وقال: «أعـرف أن ما حدث قسـراً.. ولو كان الأمـر على غيـر هذا، لأطلقت عليك النار في حينها. ولكن اعلمي أن أباك وأخاك لا يقبلان، ولا يفرقان بين القسـر وغيـر القسـر. أرسلا إليَّ خبراً منذ عدة أيام. العشيرة تغلي.. لولا أنني أخذت الموضـوع على عـاتقي لمتِ من زمن. ولـولا أن شـاهينا وقع تحت وطأة قوانين الحكومة لقتلتك من زمن. قال ذو الياقة الخضراء : أكل الزمان وشرب على قوانينكم. قال شاهـين: لا علم لي بالقـوانين الجديـدة . لا يوجـد في قـبيلتنا من يعـرف القـراءة والكتـابة، ولم تخـرجـوا منادياً ليجوب على العشائر ويخبرنا بهذا. توسل لذي الياقة الخضراء، ولطم نفسه أمامه، لكن دون جدوى..»

نفذ صبر بدرانة، سألته باحثة عن شـعاع أمل في كلام القـاضي: «ما الذي رد به ذو الياقة الخضراء؟»

«عدم المعرفة ليس عذراً»

«نعم، بعدها يا سيدي؟»

«حسب له والده.. سيطلقون سراحه عندما يصبح عجوزاً»

«وماذا؟»

«أي ماذا؟»

«لا شيء.. يعني، أليس حراماً إزهاق روحي. حرام عليك وعلى أبي وأخي. اشنقني شنقاً غير حقيقي لتغور المدينة. قوانينها لا تناسبنا. اشنقني، ولكن إذا لم يكن الشنق حقيقياً فما الذي ستجنيه؟»

لم يقل نايف شيئاً. حبس الكلام داخله.

اقتربت الذئاب كثيراً، كأنها ستدخل من الباب وهي تعوي، لو فُتح. لم يفقد المكان حرارته على الرغم من البرد الشديد. مسحت بدرانة من قلبها نايف الذي أخذ بعين الاعتبار أنه سيصبح عجوزاً.

سألت بدرانة وهي تركز بصرها على شفتي زوجها: «ما الذي ستكسبه إذا شنقتني شنقاً غير حقيقي؟»

استجمع نايف أفكاره، وقال: «اسمعي يا بدرانة. هذه لعبة مزدوجة.. سأخدع الرجل ذا الياقة الخضراء من جهة، وأمحو البلاء الأسود الذي حل بعشيرتي من جهة أخرى. كيف؟ ستبدين أنك شنقت نفسك في خن الدجاج.. سأركض وأصرخ: بدرانة شنقت نفسها، وسأحضنكِ وأنزلكِ. ستكونين قد وضعت الحبل حول عنقك خداعاً. عندما أمددك على الأرض تتحركين قليلاً، ويعتقد الآخرون أنك عشت من جديد. من يرى هذا، أو يسمع به من العشيرة سيقول: المرأة جريئة وقوية، شنقت نفسها لكن الله لم يرد لها هذا. وسيلغى قرار الموت الذي وضعه أجدادنا. أما بالنسبة لذي الياقة الخضراء...»

سكت نايف. نفذ صبر بدرانة، فقالت: «ماذا؟.. وذو الياقة الخضراء؟»

«سأكمل لك فيما بعد.. هات الحبل.. لنجرب أولاً.»

وقفت بدرانة. لم ترد التحرك من مكانها. وضع نايف يده على كتفها بنعومة، وقال: «إنك تتدللين حتى في الموت الكاذب. لو سقطت عن ظهر الجمل لنهضت وكأن شيئاً لم يكن. كل ما هنالك لعبة. لا تتدللي.»

قالت بدرانة بصوت يكاد لا يسمع: «يا لحظي الأسود» ثم ذهبت وأحضرت الحبل.

وضع نايف كل الفرش تحت الحلقة كما خطط سابقاً، وقال: «هيا يا بدرانة. اعملي حلقة حسب رقبتك»

ارتجفت يدا بدرانة. كاد يقفز قلبها من صدرها لشدة خفقانه. على الرغم من إدراكها أن ما يجري هو لعبة، لكنها أدهشت لارتخاء جسدها كالحليب، وقالت:

« الروح حلوة. أنا أخاف من الموت حتى لو كان غير حقيقي.. اربط العقدة أنت، واعمل الحلقة».

قال نايف قول العارف: «مستحيل.. يجب أن تفعلي كل شيء برضاك.. هنا سر لعبتنا..»

عقدت بدرانة الحلقة بصعوبة، ثم رفعت رأسها نحو حلقة السقف. مسكها من ذراعها وساعدها على القفز فوق الفرش. مدت بدرانة ذراعها اليمنى بصعوبة، مررت الحبل من الحلقة. أرادت النزول، فقال نايف:

«لم ينته عملك بعد. اربطي الحبل جيداً».

مسكها نايف من رجليها، ورفعها. فعلت بدرانة هذا أيضاً. والآن ثمة حبل يتدلى وسط الغرفة.

قالت بدرانة: «أصبح جيداً. سأضعه حول رقبتي صباحاً. تمثيل بالطبع..»

منع نايف زوجته من النزول. جاء دوره بالارتجاف. لم تلاحظ بدرانة هذا التغيير في زوجها.

كررت قولها: «ألم تقل سأشنق نفسي صباحاً؟»

قال نايف: «أنت على حق يا بدرانة، أنت على حق.. لنجرب مرة واحدة فقط. يجب أن نتقن لعبتنا يا غزالتي»

في الحقيقة كانت عيناها كحيلتين كعيني غزالة. أما هو فقد أمضى نصف حياته ولم يلاحظ هذا البريق في عينيها السوداوين.

أدخلت بدرانة حلقة الحبل تحت ذقنها، وقالت: «أهكذا سيكون يا سيدي؟»

قال نايف: «أدخليه جيداً، ليلتف حول رقبتك»

لفت بدارنة الحبل حول رقبتها جيدا. وجهت عينيها السوداوين إلى أسفل، فالتقت بعينيه.

ابتعد قليلاً عواء الذئاب. نايف يريد أن ينهي هذا العمل الذي خطط له منذ فترة طويلة، قبل صياح الديكة. رفس الفرش والمخدات من تحت قدميها. بعد هذا لم يحتمل رؤية تخبطها، فأطفأ مصباح الغاز.

عدنان أوزيالتشنار

ولد في اسطنبول عام ١٩٣٤

تخرج في ثانوية اسطنبول للبنين عام ١٩٥٥. درس فترة في قسم الأدب التركي. عمل في صحيفة الجمهورية مدققاً، ثم أصبح مدير تحرير مجلة (ياظقو) الأدبية بين عامي (١٩٨٠ - ١٩٨٤)، ومدير تحرير مجلة (غوستري) من أيار ١٩٨٥، حتى الشهر نفسه من عام ١٩٨٦. انتخب فترة أمين عام لنقابة الكتاب الأتراك.

عرض في قصصه الأولى طفولته، وصورة الإنسان في أحياء اسطنبول المتطرفة الفقيرة، ثم انتقل إلى التجريد متخذاً موقفه إلى جانب تيار الحداثة الشعرية في القصة. استخدم بنى جمليّة طويلة داخلاً في تفاصيل نفسية دقيقة. وفي المرحلة الثالثة لتجربته الأدبية انتقل إلى تناول القضايا الاجتماعية.

من أعماله: «معرِض متنقّل ١٩٦٠»، «سور ١٩٦٣»، «فوضى ١٩٧١»، «أيام الانهيار ١٩٧٢»، «الرجل معصوب العينين ١٩٧٧».

كتب للأطفال، وقدم عدة مجموعات قصصية: «الحديقة الخالدة ١٩٨٠»، «تشقق حجر الصبر ١٩٨٠»، «كيف يقرأ الغريب ١٩٨٠»، «طير الدولة ١٩٨٨».

نال جائزة سعيد فائق للقصة عن مجموعته «سور»، وجائزة مجمع اللغة التركية عن مجموعته «فوضى»، كما نال جائزة سعيد فائق للقصة للمرة الثانية عن مجموعته: «الرجل معصوب العينين» مناصفة مع القاص: (سلجوق بران).

ســوق

بنـاء ضــخم وقــديم. الواقـع أنـه لا يخـتـلـف عن غــيــره في مـظهــره الخـارجي. يذكره الناس في معرض أحاديثهم: «السوق»، «السوق المغلق يا عزيزي»، «مدينة كبيرة جداً..»، «سوق قديم عبارة عن مكان كبير نسبياً»، «يبدو كبيراً وضخماً لكثرة قبابه»، «البارحة صعدنا كعائلة إلى القلعة. يا للفرحة! بـدت المدينة كبيرة، لا أناس ولاسوق ولا شيء.. لا أحد سوانا. نحن في الأعلى، والمدينة في الأسفل.. المدينة كبيرة..»، «ركام حجري طويل وعريض وواسع جداً. واسع لكنه ميت. ميت ينمو حتى لا يجد متسعاً له. لا حي سوانا في قمة القلعة، نحن أفراد العائلة..»

بارد، ومزدحم، ومائل إلى الظلمة من الداخل. له عدة أبواب تفتح على ساحة الجامع ذي الحمام، وحدائق الشاي، والشوارع الطويلة التي تتعب العيون، ونوافذ الأبنية الطابقية، والشمس الحارة، والأزقة المجاورة للبحر، والأمطار الحريرية الطويلة، ومجموعة من الأشجار تنثر أوراقها، وساحة مترامية الأطراف انتشر فيهاالباعة المتجولون واحتلت أطرافها أكشاك الصحف، وانتظمت فيها طوابير المتقاعدين النائمين، وأجج الكناسون غبارها. وتفتح أبوابه أيضاً على الأزقة الضيقة ذات الأرصفة الحجرية الضيقة أيضاً، والبيوت الخشبية، والأسوار المتصدعة، ومواقف السيارات الصاخبة، والوجوه التي تدخل رطبة موردة صباحاً، وتخرج مصفرّة، أو سوداء مخضرّة مساءً، وعلى ظهر محدودب، وأظافر طالت وجمعت تحتها الأوساخ، ومحلات تجارية. هذا يعني أن لكل باب موسم فتح، وأن البناء ضخم وخالد ولا متناه.

لم يُعرف متى بني، ومن بناه. يُقال إن البحث في كتب المكتبات القديمة يعرِّفنا بهذا. ظهر بعض الباحثين في هذا. بحثوا في كتب اللغات القديمة المصنفة والمرقمة. وذُكرت أسماء كتب معروفة أكل الزمان عليها وشرب، وقيل إن تاريخه في إحداها. من يعلم في مستودع أية مكتبة يمكن إيجاد هذا الكتاب؟

وهكذا لا يمكن العمل على إرجاع السوق إلى شكله الأصلي.

ولا يمكن ترك السوق والسوقيين هكذا. لابد من قوانين تنظم العلاقة بين البائع والمشتري. فقد وضع اعتماداً على آخر المعطيات العلمية قوانين تؤمن التوازن الاجتماعي، وتحول دون الفوضى.

لم تمنع السرقة على الرغم من كل الجهود. قبل يوم فتحت أبوابه المطلة على المواقف الصاخبة، والأبنية المنشأة على ناصية الشوارع المشمسة لتباع الألبسة من آخر طراز، والمعادن الثمينة، والحلي ذات الأحجار الكريمة. في اليوم التالي تباع هذه الأشياء عند الأبواب التي يُدخل إليها من الأزقة الماطرة ذات الأرصفة الحجرية الضيقة. في ظروف كهذه لابد للمسؤولين من إحداث سوق لبيع الأشياء المستعملة. وهذا ما فعلوه. تحوّل الألبسة الفخمة التي كان يلبسها نخبة الناس قبل يوم إلى العمال المتسخة ثيابهم بالزيت، والممتلئة بالرقع، وحشرات الفراش بحجم حبة الفول. ثمة أساور ذهبية ذات أحجار ماسية، وخواتم مرصعة بمختلف الأحجار الكريمة من تلك التي تلبسها السيدات اللواتي لا يفعلن شيئاً سوى الجلوس في بيوتهن من الصباح إلى المساء يداعبن كلابهن الضخمة ويبدلن ثيابهن كل ساعة، ويرتشفن الشاي، وينقلن القيل والقال، المستعيرات وجوهاً من الأصبغة، المبتكرات مختلف أنواع الصرعات في سهراتهن. إلى جانب تلك الأساور والحلي أخرى مصنوعة

من الصفيح، ومصبوغة بالأصفر، ما إن تمس الماء حتى يسودّ لونها، مرصعة بالزجاج المكسّر. يبدو أن الغجريات اللواتي يحاولن التزين بورود حمراء أو قرنفل أبيض، وذوات الأحذية المثقوبة، وزوجات العمال ذوات المناديل الكالحة كوجوههن، والخادمات، والعاهرات، والبائعات المناديات خلف بسطاتهن يشترين كل أنواع القذارات.

نظام السوق هذا مفرح للمسؤولين والنخبة والعامة. النخبة تستطيع شراء لباس بدلا من المسروق، وهكذا لا تبقى لديها ألبسة قديمة، وبالتالي ترتدي أحدث الأزياء كل يوم. والعامة فرحون أيضاً. يستطيع المواطن شراء لباس أحد أفراد النخبة الذي كان يحلم به قبل يوم، وهو مهترئ قليلاً، فيصبح كالنخبة يستطيع الذهاب إلى السينما، وأكل اللب، وركوب الحافلة مع أفرادها، وتبادل الابتسامات معهم (قديم وجديد، جائع وشبع، فقير وغني) اللصوص أذكياء. عندما يسرقون جديداً، يزيتون ياقته، ويخربون كيّه، وغالباً ما يمزقون بعض أطرافه قبل دفعه إلى البيع. وهكذا يبقى الفرق ملحوظاً بين الفقير والغني. لولا الخوف من القبض عليهم، ومن زوال الفرق ولو ظاهرياً بين الغني والفقير، والجاهل والعالم، والمقمّل والنظيف لباعوا الألبسة كما هي عليه. والنخبة لا تهتم باللصوص لكثرة أرباحها، وتلبس لبوس اللامهتم، وكأنها تدعم بشكل خفي اللصوص. وهذا ما ينسحب على الأحجار الكريمة والحلي.

عندما تدخلون السوق من الباب المفتوح على الزقاق الضيق الماطر ذي الأرصفة الحجرية الضيقة ترون أساور، وخواتم مَصنوعة من الصفيح ومغطسة بماء الذهب، وأحجاراً مصنوعة من حطام الزجاج مشكّلة كالماس لا تعكس الضوء، وأطواقاً لؤلؤية صنعت من الخرز العادي، وبائعي الألبسة البالية، ودكاكين منارة بمصابيح كعيون القطط

الميتة أو الحمام الوجل، وأحذيةً واقفة دائماً خلف الزجاج. وفجأة تنتقلون إلى الواجهات المنارة بمصابيح (النيون) والتي تضج بالألوان، وتجدون الألبسة التي خرجت تواً من قوالبها، والأحذية التي تكسر مقدماتها أشعة الضوء، وآخر طراز للأساور والماس واللآلئ ذات الأشعة الخاطفة للأبصار.

هذا يعني أنكم ابتعدتم كثيراً عن الباب الذي دخلتم منه، واقتربتم من باب آخر، عندما تخرجون منه ستجدون أنفسكم أمام أشخاص يلبسون أنظف الثياب، ويهرعون نحو البحر في يوم مشمس.. وسيارات، وحافلات، وأبنية، وشوارع، وسماء، وازدحام.

ليس لأحد الحق في إفساد هذا النظام. حراس السوق يتقنون عملهم جيداً. لم يلاحظ أنهم أغمضوا أعينهم عن أي تقصير مهما كان صغيراً.

تجد أحد الفقراء مرتدياً سترة رعاة صوفية قصيرة ورثها عن أبيه، مبسّطاً بعض الفرشات التي يقصها في بيته، بجانب دكاكين الصاغة.

«فرشات صوفية للأحذية، فرشات صوفية..»

على الرغم من مناداته طوال اليوم، لكنه لم يجد زبوناً واحداً. لو ألقى أحد ما نظرة على واجهة المحل، ورأى أنوار الذهب والماس الخاطفة للأبصار، لعرف مدى صعوبة تحويل وجهة رؤية العينين إلى الأسفل قليلاً، وملاحظة الفرشات الصوفية. بريق الذهاب والماس يخطف الأبصار أكثر من بريق الشمس.

عندما يصرخ في وجهه حارس السوق: «أما زلت هنا يا هذا؟» يصحو، بعد جمعه للفرشات.

في تلك اللحظة يكون رجل آخر بجانب بائعي خواتم الصفيح المغطسة بماء الذهب، والألبسة البالية، يبيع أزهاراً صناعية في باقات. لم يستطع جذب أحد إليه أو لأزهاره على الرغم من مناداته منذ الصباح. لابد أن الجو أصبح بارداً جداً، فهو يشعر بأن قدميه تتجمدان. تسرب الماء إلى حذائه أثناء مجيئه. كانت تمطر بغزارة. عندما رأى بائع الفرشات حارسَ السوق من بعيد جمع فرشاته وخرج بأقصى ما لديه من سرعة.

كل ما هنالك أنه بائع فرشات صوفية، وبائع أزهار صناعية يهربان بكل ما لديهما من سرعة. خففا سرعتهما عندما تأكدا من ابتعادهما عن الحارس. وفوراً باشرا بالنداء لترويج بضاعتيهما. نظر بائع الأزهار إلى بائع الفرشات الصوفية بعين المشتري لأن قدميه بردتا كثيراً، والآخر نحو الأزهار الصناعية بتوق للصيف، وتحت تأثير أشعة الشمس، وبريق الذهب والماس. مد كل منهما يده ذات الأظافر الطويلة المتسخة إلى جيبه، كان وجه كل منهما أصفرَ مسوداً وجافاً. امتدت يداهما لتلتقيان في منتصف الطريق. كان قد مسك بائع الزهور الفرشة الصوفية، وبائع الفرشات باقة الأزهار. عندما وصل الحراس تحجرا بتراكم خجل السنين، ثمة حارسان يقتربان من البائعين المتحجرين وسط الطريق. قبل خطوة من وصولهما صرخ الحارسان:

«... يا عديمي الشرف!»

الآن تحطم التمثال الثنائي: بائع الأزهار بيده فرشة من الصوف، وبائع الفرشات الصوفية بيده باقة الأزهار. بائع الأزهار يتجه نحو بائعي الألبسة البالية، وبائع الفرشات نحو الصيَّاغ كما اعتادا كل يوم.

أدى الحارسان واجبهما، وحفظا النظام، والآن أحدهما يحك ذقنه، والثاني يفتل شاربيه بثقة.

فوروظــان

(ولدت في اسطنبول عام ١٩٣٥)

تركت الدراسة بعد المرحلة الإعدادية، وعملت فترة في إحدى الفرق المسرحية. نشرت أولى قصصها في المجلات فلم تلفت الأنظار إليها كثيراً.. بعد فترة طوّرت نفسها وأصدرت ثلاث مجموعات قصصية: «داخلي مجاني ١٩٧١»، «حصار ١٩٧٢»، «سينمائي ١٩٧٣» ولفتت الأنظار إليها كقاصة متميزة.

استخدمت اسم (فوروظان يردلان) في البداية، بعد ذلك (فورظان سلجوق) إثر زواجها من فنان الكاريكاتير التركي العالمي (طورهان سلجوق)، ثم صارت تستخدم اسمها الأول فقط.

قدمت في قصصها أشخاصاً، وأحداثاً إنسانية برؤية متفائلة دون مبالغات، وعرضت حياة الفقراء والمسحوقين، وحصار النسوة المنحرفات وواقعهن الأليم، وغاصت في دواخلهن، ومزجت هذا بلغة أقرب إلى الشعر بدخولها إلى التفاصيل الدقيقة.

اعتبر النقاد الأتراك عام ١٩٧٣ عام فوروظان لتألقها في كتابة القصة.

من مجموعاتها القصصية الأخرى: «الوجه الآخر لليل ١٩٨٢»، «موسم الورد ١٩٨٥».

نالت جائزة سعيد فائق للقصة عن مجموعتها «داخلي مجاني» عام ١٩٧٢.

كتبت الرواية، وحملت أولى رواياتها عنوان: «السبعة والأربعين» عرضت فيها حياة جيل طلبة الجامعة من مواليد عام ١٩٤٧، والأحداث التي شهدوها، ونالت عن هذه الرواية جائزة مجمع اللغة التركية.

أقامت في برلين مدة عام، وقدمت كتاباً جمعت فيه اللقاءات التي أجرتها مع العمال الأتراك هناك.



داخلي مجاني

- عندما تفرغين من عملك تخرجين، وتنزلين مشياً إلى سوق (مصر). إنك تعرفين بائع رقائق العجين، ذاك الذي عنده طيور الكناري. سنتناول غذاءنا عنده. ماذا يحدث لو أقمنا لأنفسنا كل دهر وليمة؟ لن نتعب من الذهاب والمجيء مشياً، أليس كذلك يا بنتي.. سنأكل الحلويات لو شئنا، ونعود عن طريق الجسر ظهراً.

الأم وابنتها تسيران مسرعتين غريبتين عن الزحام الذي تعبرانه. الأم لا تكف عن الكلام، لم تكثر من الكلام إلى هذا الحد منذ تعينت في المستشفى خادمةً للمرضى.

كانت ابنتها يومئذ في الصف الثالث، وقد كلح سواد صديريتها، وهبط الشتاء بكل ثقله، وبدأت أيام شراء الفحم من عند البائع الكائن على الزاوية، وتعلمت إشعال الموقد، فتشعل خرقة، وتضع الفحم بشكل عمودي فوقها، وعندما تضع عليها الاسطوانة تبدأ النار بالطقطقة ونثر الشرر حولها. وتنسى كل شيء بعد اشتعال الفحم جيداً: «الجلوس في المقعد الخلفي من الصف، وتناول الطعام من فرع الهلال الأحمر، وإلقاءالشعر في الأعياد الوطنية». تنتظر الموقد أمام باب الدار حتى غياب اللون الأزرق لأولى الفحمات المشتعلات. لم تعد تخاف أي شيء بعد إدخال الموقد إلى الغرفة، فتجلس إلى الطاولة المصنوعة من خشب الجوز، وهي أكثر أغراض البيت فخراً لأمها، وتكتب وظائفها. إنها تحب الموقد عندما يغدو هكذا. أمها تقول لها: «يجب أن تصبح الفحمات جمراً كي تدفئنا حتى الغد. يبدو الرماد جميلاً وبرّاقاً على إحدى الجمرات -كانت تضع جانباً أكثرها احمراراً وزرقة - وتترك درسها

أحياناً وتمعن النظر في الجمرة المنفردة، وهذه تزيد احتمال برودة الغرفة من جديد. عندما أُبلغت أمها باحتمال عملها في خدمة المرضى، دخلت إلى البيت وكأن كل شيء قد تغير. غدت أمها في حالة لم تعهدها بها. ملأت الغرفة بالكلام الذي جلبته معها.

- سيقبلونني. سأبدأ العمل بعد يوم أو يومين. قابلت رئيسة الممرضات. إنها امرأة ضخمة. سألتني: «هل عملت من قبل؟ متى مات زوجك؟ هذا العمل يحتاج إلى سعي دائم، لا يحتاج إلى خبرة، ولكنه أيضاً يحتاج إلى همّة ونشاط. يكفي أن تتقني ترتيب الأسرّة وتنظيف أواني البصاق والبول. من الممكن أن تتعلمي فيما بعد جس حرارة المرضى. تعطلين يومين وتعودين ليلة الأحد. ألديك أطفال؟ أليس لديك من تتركينها عندهم؟ تقولين إنها تستطيع رعاية نفسها، وهي متعلقة، لكنها صغيرة. لم ترسب في المدرسة؟ حسن. إنك امرأة شابة وجميلة. من الممكن حدوث أمور ما هنا في المستشفى. عليك أن تكوني جادة. إذا حدث أمر ما فأنت المسؤولة. تعرفين المثل القائل: (من لا تدلي دلوها، لا أحد يملي لها) الأصبغة ممنوعة. هل ألوان شفتيك ووجنتيك الآن على طبيعتهما؟ ممنوع الاقتراب من الأطباء، أو من هذا وذاك. إذا أراد الإنسان أن يستمر في عمله عليه أن يحترم القانون. هل نومك خفيف؟» فكّري بأنني وجدت عملاً في نهاية المطاف. سأشتري كمية من الفحم عندما أقبض أول راتب، وسأشتري لك حذاء من الكاوتشوك. من الممكن أن نذهب معاً إلى السينما أيام العطل. هذا غير مؤكد. من يستطيع التكلم في حقي إذا قمت بعملي جيداً؟ علي أن أخرج لأخبر صاحبة البيت. سأطلب منها ألا تصفق الباب بقوة عندما تشتري اللبن مساءً. كما قلت لك، بعد أن أعمل.. نومي خفيف، تعودت على التقلب أثناء النوم طوال كل هذه السنين.

عندما بدأت أمها العمل، صار اسمه: «عملنا في مستشفانا» في الليلة الأولى التي ستغادر فيها الأم البيت اشترت حلاوة طحينية من عند السمان. حضرت منقوع الجبن، وغطت الطاولة بغطاء نايلوني منقوشة عليه أزهار البنفسج. هذا الغطاء باق من زمن أبيها. إنه ذكرى أيام السعادة. لِمَ كانوا يعتقدون دائماً أن الأب سيعيش؟ هو أيضاً لم يظهر عليه أنه سيموت. كان رجلاً مستقيماً، وصارماً، لم يظهر عليه من الموت أي أثر، أتاه غدراً. خيّم على غرف البيت صمت غياب رَجُلِهِ جلاّب الخبز يومياً. قالت أمها: «لم يكن عجوزاً» أتتيتم طفلة في الثامنة من عمرها؟ مسحت أمها الغطاء النايلوني مرة أو مرتين دون حاجته للمسح. لم يهدأ صوت فوران الماء الذي يغمر الجبن. ذاب سُكَّر الحلاوة الطحينية، وأصبح سطحها أكثر خشونة.

– تكلمتُ مع صاحبة البيت. لا تخافي. أغلقي باب غرفتك ليلاً ونامي. بالأمس عندما نهضتِ لتصلي الصبح صفقت الباب بقوة وأيقظتك. قلت لها: «إنها طفلة. إذا لم يشبع الطفل من النوم فلا يستطيع النهوض بسهولة» كلي الحلاوة الطحينية مع الخبز كل صباح. إنك لا تحبين الشاي. تقولين إنها تحرق يدك. اشعلي الموقد عندما تأتين من المدرسة، وتدفئي، غطي ناره ليلاً، لا تنسي! لا تشغلي بالي بالبيت. أنت فتاة ذكية. لا تخافي ليلاً. لستِ وحيدة في البيت كما قلت لك، ولست خوّافة. اسمعي، ماذا سأجلب لك؟ يقولون إنهم يقدمون طعاماً خاصاً للمصابين بأمراض مستعصية. يتبقى من طعامهم بعض الدجاج المسلوق، سألفه وأجلبه لك. ليس سراً، لأنهم سيرمونها. سنعمل لأنفسنا وليمة.

– أنا لا أريد من تلك الأطعمة يا أمي. ألم تقل لك تلك المرأة: «يجب أن تنظفي الأواني والأوعية» كلميني عن هذا.

سكتت أمها.. كادت أن تقول لها شيئاً، ولكنها لم تنبس بحرف. عندما نامتا - منذ مدة تنامان معاً -نسيت أن لديها في اليوم التالي درس رياضة. لم تكن تنفذ درس الرياضة. الذين لا ينفذون درس الرياضة يقضون الفترة وهم ينظرون إلى أبنية المدينة عبر زجاج النوافذ المظلمة شتاءً، ويستمعون لصوت بعض الصنابير المفتوحة في الطابق السفلي.

- يلزمكم تبّان، وحذاء رياضي، وجورب، وقميص للرياضة، كلها بيضاء. يفضل أن يكون لدى التلميذة اثنان كي تغيّر عندما تعرق. يجب أن يكون الجميع نظيفين ومرتبين كالزهر في مسيرات أعياد ٢٣ نيسان، و ٢٩ أيلول. أنا لا أقبل عبارة: «لم نستطع الشراء» نطلب وتجهزون كل شيء. بالطبع إننا نفكر في شيء ما لأبنائنا في قسم مساعدة التلاميذ، ولكننا نخصص المساعدة لألبسة أكثر ضرورة. ليشارك التلاميذ في المسيرات بصديرياتهم، ولكن يجب أن تكون نظيفة ومكوية، وأن تضع البنات ربطات من قماش التفتاه، يجب أن يكون الجميع نظيفين، نظيفين جداً. النظافة أولى صفات الطفل التركي. ماذا أقول لكم؟ يجب أن تنظفوا أسنانكم بالفرشاة يومياً. إذا كان في آذانكم صملاخ أصفر أو أي نوع من الوسخ، أو سيلان.. يا ويلكم من العصي.

لم تغلق صنابير الطابق السفلي نهائياً. يجتمع التلاميذ عند الصنابير في الفرصة. الجميع يشرب.. الظمآن وغيرالظمآن. من أساسيات اللعب في باحة المدرسة التدافع أمام الصنابير، وشرب الماء من راحة الكف وجريانه حتى المرفق. عندما يُقرع جرس الدرس يسمع من بعيد صوت الماء الذي لم يكن مسموعاً في الفرصة حتى من الصفوف القريبة.

احتضنت أمها من الخلف: «سأفعل كل ما تقولين. لا تحزني. أنا أتناول طعام الغداء في المدرسة. لا تشغلي بالك بي» لم تتحرك أمها، لكن من الواضح أنها لم تنم. لم يرتخ جسدها بعد. التصقت جيداً بأمها كي تدفأ برائحتها، لأنها ارتاحت كثيراً في المساء.. لم تنم. إنها المرة الأولى التي تعرفت فيها على طول الليل.

استيقظت صباحاً على صوت طرق الباب. نهضت. صاحت «خالة خالدة». كانت صاحبة البيت تصب دلواً من الماء في بيت الخلاء (بيت الخلاء مشترك)، لبست ثيابها، وجلست إلى الطاولة. ضوء الصباح الشتوي يدخل من خلال الستائر وينشر البرودة في الغرفة. عندما أخذت حقيبتها وأرادت الخروج من البيت - لم تأكل شيئاً في ذلك الصباح - عادت، وجلست على الكرسي، ثم بدأت تبكي دون صوت.

- أنهيت المدرسة بدرجة جيد جداً. لم يكن سهلاً على تلميذ فقير أن ينهي المدرسة بهذه الدرجة. سمعت أنك تُقبلين في مدارس داخلية مجانية. هذا ما قالوه لي. عندما كنت أستخرج وثيقة فقر حال من عند المختار، قالت لي امرأة لا أعرفها: «أردت تسجيل ابني في المدرسة العسكرية، لكنني شعرت باليأس لعدم وجود كفيل أو غير منقول ليرهن عندهم. أين المال منا؟ لو كان لدينا لما اشتغلنا بما نشتغل به» إن تلك المرأة جاهلة. أخذت الوثيقة وخرجت. لم أراجع أحداً. المدارس العسكرية مكلفة جداً. أسلحة وألبسة خاصة.. أليس كذلك؟ لا ضرورة لسؤالها. ادخلي أنت الامتحان، وأجيبي جيداً عن كل ما تُسألين. يتقدم آلاف التلاميذ، ولا يقبلون إلا مائة أو مائة وخمسين. لكنك ستنجحين.. يا بنتي الذكية والعاقلة. إن طلبوا مالاً أو ملكاً سأقول لهم: «ما لزومه؟ ابنتي لا ترسب أبداً. لا تبذر المصروف الذي تقدمه لها الدولة. سأشرح هذا بالتفصيل لمدير المدرسة. سيفهمني فوراً، لأنه إنسان مثلنا. سأقول

له: «ابنتي تستيقظ صباحاً وحدها منذ سنوات لا يوجد من يدلّلها. لم يسمع أحد صوتها، كأنها لم تعشْ طفولة».

كان المطر قد بدأ ينقر على طرود الورق التي يحملها الحمالون على ظهورهم، وهم يصعدون الطريق.. المطر حزيراني لطيف. عندما أرادت الأم وابنتها عبور الشارع إلى الطرف الآخر، على الرغم من عدم ضرورة العبور، انتظرتا الشرطي ليوقف السيارات. أصبح المطر أكثر غزارة. الاثنتان تزينتا من أجل هذا اليوم المهم. الأم تغطّي شعرها بمنديل حريري، والبنت بللت شعرها وربطته.

- هل أنت خائفة؟ لم تتكلمي منذ الصباح. هيا، هيا، سأشتري لك من سوق الثلاثاء رباط شعر. ستتخرجين من المدرسة وتصبحين معلمة. عندئذ لن أعمل في المستشفى. سنخرج سوياً، وسنشتري كراسيَ جديدةً، وسأخيط لها أغطية مزهرة، ثم نحدد يوماً للاستقبال، وأنا سأعد - إذا لم أنسَ - كعك اليانسون لنقدمه للضيوف، ونوفر ثمن الضيافة، ومن الممكن أن نشتري سجادة صغيرة، وأخلص من تنظيف أوساخ المرضى، ومسح الممرات، خاصة أن رائحة المعقم تجعل الإنسان يتقزز من كل شيء، وتذكرنا دائماً بالموت. سنذهب إلى أي مكان، ولو كان سفح جبل. الجميع يريدون البقاء في اسطنبول. ونحن.. ماذا سنفعل في اسطنبول ؟ كل ما يلزمنا: «بيت وحطب أو فحم للتدفئة، ومطبخ، أليس كذلك؟» إذا سألوك عن كفيل.. لن يسألوا. هذا أمر اخترعته تلك المرأة، أو لأنهم لا يثقون بابنها. لم أسأل عن هذا. سألت عن وضعك عندما ستصبحين معلمة. سنذهب أينما يعينونكِ، أليس كذلك؟

- هل الذين سيدخلون إلى هذه المدرسة فقراء مثلي؟ هل سألت عن هذا؟

- نعم. يُمتحن التلاميذ الفقراء لكي يدخلوا إلى المدرسة الداخلية المجانية.

- إذا كان الأمر على هذا النحو سأنجح. لا تحزني. سأنجح بدرجة جيد جداً. ها هنا أصدقائي. أنت تعطلين يومين، وأنا أيضاً.. نلتقي خلالهما في البيت. سأشتري لك بسكويتاً أيام الزيارة.

المدرسة التي سيُمتحن التلاميذ فيها على الطرف المقابل. عبرتا الشارع مرة أخرى. سارتا عبر الزقاق الخلفي. توقفتا عند باب في جدار عالٍ. هذا باب دخول التلاميذ. كان ينبعث صوت ضجيج من الداخل. لَمَّعَ المطر الخضرة النابتة على الجدران.

- هنالك من أتى أبكر منا. أخشى أن نكون قد تأخرنا.

اتجهت نحوهم عبر طريق مرصوف بالحجارة امرأة يبدو من لباسها أنها مستخدمة. كانت الأم تنظر إلى شيء ما من فوق رأس البنت.

- أمي، اسأليها باحترام.

- هل تأخرنا يا ترى؟ يبدو أن معظم التلاميذ قد وصلوا.

قالت المستخدمة دون اكتراث:

- دائماً يأتي الأطفال الذين يريدون الدخول إلى امتحان القبول في المدرسة الداخليةالمجانية باكراً. لا يتأخرون.

تركت الطفلة أمها. بدأت تمشي في حافة الطريق الحجري. وذهبت المستخدمة، وجلست على كرسي لم ترياه، في مكان لم ترياه، وبدأت تحيك الصوف.

عندما وصلت البنت إلى المنعطف التفتت إلى الخلف. كانت أمها تقف عند الباب الخارجي تحت المطر وهي تبتسم.



طومريس أويار

(ولدت في اسطنبول العام ١٩٤١)

تخرجت في المعهد الأمريكي للبنات (ما يعادل الثانوية العامة) العام ١٩٦١، وفي معهد الصحافة - جامعة اسطنبول العام ١٩٦٣.

بدأت العمل الأدبي مترجمة عن الإنجليزية، ثم قاصة، فناقدة، ونشرت نتاجها في مجلات أدبية مهمة.

قبل زواجها من الشاعر التركي (طورغوت أويار) كانت توقع باسم: (ر. طومريس).

قدمت في قصصها حالة اليأس التي تعيشها المسنات، أو الوحيدات، والوقائع التي تحاصر الفتيات، والنساء الشابات بعين تراقب جيدا، ودخول في التفاصيل. شخصياتها غالبا ما تعيش تحت وطأة ثقل المشكلات الاقتصادية والطبقية.

من مجموعاتها القصصية: «الحرير والنحاس ١٩٧١»، «تصفية الحسابات ١٩٧٣»، «نرجس إلى ارتفاع الركب ١٩٧٥»، «قيد للقلب ١٩٧٩»، «أحلام الصيف/ شتاء الأحلام ١٩٨١»، «الفتيات الرحالات ١٩٨٣»، «الروليت الروسي ١٩٨٥»، «سفر إلى الصيف ١٩٨٦».

أعدت مجموعة مختارة من القصص الأمريكية المعاصرة العام ١٩٨٠، وأنطلوجيا القصة الأمريكية ١٩٨٣.

فازت بجائزة مجمع اللغة التركية في الترجمة مناصفة مع زوجها عن ترجمة الشاعر الأمريكي (Lucretivs) بعنوان: «بنية العالم».

فازت بجائزة سعيد فائق للقصة مرتين عن مجموعتيها: «قيد للقلب ١٩٨٠»، و«سفر إلى الصيف ١٩٨٧».

تقرر في العام ١٩٨٧ منح جائزة للقصة القصيرة تحمل اسم خلدون طانر، وقد فازت بها في العام نفسه مع كاتبين آخرين هما (مرادخان مونغان)، و(نديم غورسل) عن مجموعتها «الشك الأخير».



مسرحية

قالت غولسن: «أنت لم تري، ولم تسمعي شيئا. صعدتُ إلى الشرفة ونظرت إليك، فوجدتك ترسمين. رسمت طوال اليوم. لم ترفعي رأسك. لم تنظري إلى الحديقة.لم تريني عندما كنت انظر إليك. عندما كنتِ ترسمين، كنت أعاني من نوبات الألم».

قالت سفغي: «ذهبت إلى بائع المعجنات بعد الظهر. تركت الرسم، وجلبت لك كعكا بالورد».

قالت غولسن: «في تلك الأثناء ولدت ابنتي. خرجت من بين أحشائي».

إنه عصر يوم في بداية الصيف. ستهب بعد قليل رياح خفيفة، وتبدد الحر الخانق. عندما يهبط المساء ستجلب الريح عبق أزهار السفح المقابل لنا، ويتركه في الشرفة.

الحجارة رطبة. غسلت سفغي الشرفة قبل قليل.

في أثناء الحديث انتعشت نباتات الأصيص، وطالما لعبت دورا بالمسرحية بتفويح رائحتها.

ثمة قطة تنام على حافة جدار الشرفة، يسمع شخيرها.

الشمس تلف كل عناصر المسرحية أحياء وأشياء.

تنبعث من المذياع أغنية (بوب ديلون): «كم مرة يجب أن يرفع المرء رأسه إلى السماء كي يراها؟»

غولسن: في الخامسة من عمرها تلبس ثوبا أبيضَ مزركشا بورود حمراء، يكشف ذراعيها. على رأسها قبعة مزينة بفطور بلاستيكية، وفي حضنها حقيبة سوق.

عندما تحني رأسها إلى الأمام، يظهر في ظل القبعة على كتفيها الشفافين، وفي عظمتي الكتفين، زغب أصفر.

الدمية: قماشية، خضراء العينين، طويلة الأهداب. كَلَحَ أخضر عينيها، وأحمر شفتيها، وألوان تنورتها التي تكشف ثقوبها عن الجورب النايلوني.

في أثناء المسرحية تقبِّل غولسن دميتَها، وتشمشمها، وتبدو في أثناء هدهدتها كمخلوق قادم من كوابيس الليل.

سفغي: في الخامسة والثلاثين من عمرها. رسّامة. تعيش وحدها. تلبس حتى في يوم خاص كهذا بنطلون (جينز) أخذ لونا غير لونه الأصلي، وقميصا بلون رقعة الشطرنج. حافية القدمين. ربطت شعرها الأسود القوي الأجعد المشوب بالبياض بربطة شعر فضية.

تعتبرها نساء الحي امرأة فاسقة لأنها لا تتأقلم معهن، ولا تشاركهن استقبالاتهن، وتستقبل أصدقاءها الرجال في كل ساعات النهار.

تتبدل غولسن طوال المسرحية بين الأنثى الواعية، وبين التاركة لأسلحتها، واللاجئة إلى الطفولة لجس حالة المرأة:

- شقوا أحشائي بواسطة سكاكين الطعام الصغيرة. الأطباء الشباب يرتدون صديريات بيضاء. قالت لي الممرضة «اصرخي!»، لكنني ضغطت على أسناني، ولم أصرخ.

تبدأ سفغي المسرحية بقولها:

- لو صرختِ. (بجدية) يقال إن الصراخ يسهل الولادة.

- أنا متحملة مثل أمي. لا أصرخ. ولكن التوبة بعد الآن. لن ألد مرة أخرى. هذه آخر مرة. ملّت ابنتي من غسل خرق الحفاض (في أثناء مسحها بيدها على اللعبة التي في حضنها، تنزلق على ساعدها).

- لم يصل السيد كمال في أثناء الولادة. أرسل برقية، أليس كذلك؟

- لم يأت كمال. النساء كثيرات في ألمانيا.. أيأتي؟ إنه يقامر، ويسكر، ولا أريد أن يعرف أنني ولدت بنتا.

سيغضب، ومن الممكن ألا يأتي مطلقا.

تكبر سفغي اللعبة بسؤال صعب:

- كيف تدبرت النقود؟

- عندما لم يرسل كمال نقودا، ذهبت إلى أمي، وخرجت معها إلى السوق، كان لدى المسكينة سوار ذهبي باعته، ثم أمّنا على حياة الطفلة، وعدنا إلى البيت.

تجيب غولسن عن كل الأسئلة مؤدية نبرات صوتية في مكانها، كأنها تقرأ عن نص.

قلقت سفغي، فنادتها خارج خشبة التمثيل:

- أتدرين؟ عندما كنت بعمرك ظننت نفسي متزوجة، مثلك تماما. (تضحك)

- من كمال؟

- لا ياروحي. ليس كمال. رجل آخر. لا أذكر اسمه الآن. نسيته.

- كيف كان؟ هل هو مثل كمال متقلب وعديم الأخلاق؟

تجيب سفغي وهي شاردة:

- لا. كان يقول إنه يحبني كثيرا، وكان متفهما.

- لِمَ طلقته إذاً؟ أم أنه هو الذي طلقك؟

هنا تجيب سفغي:

- سأجلب الشاي. في أثناء ذلك أفكر في الأمر. نيّمي ابنتك أنتِ!

عندما كانت سفغي في المطبخ تصب الشاي، توقفت. انزلق الكأس من يدها، سقط وتحطم. وفتحت صنبور الماء على يدها المحروقة، ثم أمعنت النظر في الطريق الممتد أمام النافذة. المطبخ يسبح في صمت محمل بأشعة الشمس.

تخيلت نفسها تسير في طريق غابة برفقة شاب، والسماء تثلج، ينفخان كرات البخار من فميهما ويتضاحكان، ويتناقشان، ويجلسان إلى طاولة خشبية ويتبادلان القبل.

من هذه المسافة تستطيع متابعة الشابين. ما هو الحقيقي يا ترى؟ جمال الغابة، أم إشراقة النهار، أم الثلج، أم القبل؟ وما الذي يخاتلها؟

زوجها الأول عريض المنكبين، أسمر البشرة، أبيض الأسنان، ضخم البنية، طفولي النظرة. ترك دراسته العليا، والتحق بفريق كرة القدم مضحيا بعلاقته مع أسرته الغنية. نظرة العداء ممن حوله إضافة للفقر

جعله يتمرد على الواقع. كانت تقول وهي تربط شعرها: «كيف تستنتج هذا الادعاء، وهو أننا لن نتفاهم؟ أنا أحبك بوضعك هذا. قل، كيف تستنتج ذلك؟».

غابت فجأة صورة الشتاء والثلج والغابة، وحل محلها صورة سرير عريض، يحتل كل طرف من طرفيه فرد غريب عن الآخر: «من الممكن أن نكون غير متفاهمين، لكنني أحبكِ. عليك أن تتغيري. ألا تفهمين؟ إذا تغيرت وصححت من وضعك نسعد. لست طفلة. أصبحت امرأة مسؤولة. أنت زوجتي».

«أيستحيل عليك ألا تشتغلي اليوم؟»

«لو أنك لا تصففين شعرك. لو تركتِهِ ينزل بحرية على كتفيك لكان أجمل»

«أتقرئين كتابا من جديد؟ ما الذي تفهمينه من هذا الكتاب؟»

دائما الأشياء ذاتها التي تنخر في العلاقات: إذا لم تعودي إلى ما كنت...

تغيّر المشهد. المرأة الشابة نفسها. تخرج من باب بيت آخر. الوقت ليل. تنحني لتحمل حقيبتها.

«قفي دقيقة. أقول لك قفي!»

قالت المرأة الشابة: «الأمور لا تسير كما ترى. مهما فعلنا فلا جدوى...».

«عليك أن تتغيري، وتنظمي وضعك، وألا تفعلي معي ما فعلتِهِ معه. لا تتركيني. لن أسمح لك بهذا».

كان زميلها في الأكاديمية، وصديقها الوحيد الذي تَفَهَّمَ مشكلاتها مع زوجها عندما وصلت إلى طريق مسدود».

إنه يعترض طريقها ناثرا الحقد من حوله: «أقول لك لا تتركيني. لا أستطيع العيش من دونك!» وأرخى نفسه، وبكى ثم تقيأ.

مسحت سفغي وجهه، وحملت جسده المستلقي كحجر، ومددته على السرير، وغطته.

قالت لنفسها: «ياللأسف لم يبق ما أستطيع تقديمه له».

تقول غولسن وهي تمد يدها نحو الكعكة بالورد.

- ماذا كان اسمك في تلك الأيام؟

- تقصدين كنية الزوجية؟

- لا، اسمك الأول. أي ما يقابل اسمي غولسن؟

- لا أعرف. نسيت اسمي.

- أنا لن أتطلق (في صوت غولسن نبرة معارضة ليست واضحة تماما) أنا لن أتحرك من عند قدمي زوجي. سأحتضنه بقوة، ولا أقول له: «خصري يؤلمني، لم أعد احتمل»، وأسقط في الفراش.

- لكن أمك تتعب كثيرا. تذهب إلى بيوت الناس لتنظفها. هل هذا سهل؟

- ليكن. على المرأة ألا تخرج عن إرادة زوجها. عندها سيحبها،

وينتبه لها، ويصرف عليها. الرجل يحب ويضرب. لو لم يحبنا أبي لهرب مع واحدة من أولئك الجميلات الغنيات اللواتي يطلي لهن بيوتهن، أليس كذلك؟

تسكت سفغي. ترتشف الشاي. كل منهما تسترق نظرة إلى الأخرى في أثناء الصمت.

صبغ الكعك شفتي غولسن بالأحمر، وانتشرت بقع (الكريما) على حوافّ كأسها.

عندما لا تتكلم سفغي فتضغط عليها بذكاء:

- أنا أطبخ لزوجي أنواعا عدة من الطعام، وأصنع له كعكا بالورد، ليس كهذا الجاهز... أصنعه له بيدي وأقدمه له. وهو يحبني وعندئذ لن يمانع بذهابي أينما شئت.

عندئذ تشعر سفغي أن الطفلة تسير نحو سؤال جاهز في داخلها، فتقاوم الصمت. لكن غولسن تُفك عقدة لسانها لحظتها، وتقول لها بملء فيها:

- لن تحترقي في نار جهنم، أليس كذلك؟

- من قال هذا؟

تقفز سفغي، وتحمل الطفلة بين ذراعيها، وتضمها، وتشمشم خدها البارد ذا الكعك والكريمة والشاي.

- من قال هذا الكلام يا روحي؟

- يقول أبي إنك عاقر، ومطلقة، ولا تسكنين عند أبيك، وترفضين

آه... لو قتلتني يا معلمي

«... يبدو أن ثمة آباء وأمهات يعمرون كثيرا جدا، فيغدون شياطين ويأكلون البشر حتى يدور الدور على أولادهم. أما قصة الأمهات التي نقصّها من يشيعن أولادهن بمراسم. لو فكرنا في هذا لوجدناه مفجعا. ثمة حكاية كهذه...».

يجب أن يعيش الأولاد كي يشيّعوا أمهاتهم بمراسم جنائزية، ولكنهم لا يعيشون أحيانا.

حتى البهلوان الذي يقفز من حبل إلى حبل، ومن حلقة إلى حلقة يسقط ويموت. الموت لا ينظر إلى العمر. يقول بهلوان شاب: «إذا ظهر في وجه بهلوان مسن عند أسفل يمين أنفه شامة لا يراها إلا أنا، فهذا يعني أنه سيموت كالآخرين. ولكن أيسقط عن أحد الحبال، أم يُدهس في الشارع، أو يمرض ويصبح طريح الفراش ولا ينهض، فهذا ما لا أستطيع تحديده».

ستأتيان من طرفي حبل مشدود وكأنكما ستتصارعان، ثم يمثل أحدكما دور المغلوب ويسقط، والآخر يقفز خلفه في الفراغ ويمسكه، وينفذه وهو مربوط بحبل آخر وحلقة أخرى، جاعلا أرواح الناس تقفز إلى أنوفهم، ومقابل هذا ستكسبون لقمة عيشكم.

لنفترض أن البهلوان الذي أمامكم تحبونه كثيرا، وتعملون معه منذ سنوات، ودفع عنكم آلامكم الخفية، وأسعدكم معه حتى في مرحلة اعتقادكم بأنكم لن تفرحوا. اقتربتما من وسط الحبل.

السكنى عنده، والنساء اللواتي يخرجن عن الطريق مثلك سيدخلن إلى جهنم.

لضرورة التمثيل تخفي سفغي حرقة شعرت بها داخلها.

- أبوك محق. إنه صلب لكنه صادق على الأقل. في الحقيقة أنا أعيش في عالم لا يناسبني، ولم يهيأ من أجل أن أعيش فيه. ماذا تقول أمك؟

- عندما يمانع أبي في مجيئي لعندك تعارضه قائلة: «ما الذي رأيناه من سوء هذه المسكينة؟»

- اسمعي يا روحي. (تقبل سفغي الطفلة) سنتكلم في هذه المواضيع مستقبلا عندما تذهبين إلى المدرسة.

- إذا ذهبت إلى المدرسة فمن سيربي الأولاد؟ أبي لن يرسلني إلى المدرسة، سيزوجني. ألست متزوجة من كمال الآن؟

- مهما يكن سنتكلم في هذا مستقبلا. لا تتأخري عن البيت. إذا تأخرت فلن يسمحوا لكِ بالمجيء.

- هل ستشتاقين لي عندئذ؟

- كثيرا (تحاول سفغي الاعتناء بإظهار ارتجاف صوتها) وأنت؟

- وأنا أيضا.

تلتف غولسن في أثناء توجهها نحو الباب، وتسأل:

- أنت لم تخرجي عن الطريق، أليس كذلك؟ بالله عليك؟ لديك قطة. أنت ولدت القطة، أليس كذلك؟ أنت تطعمينها، وينالك ثواب

عن هذا الأمر، وتعطينها كل صباح حبة أسبرين. أنا رأيتك بعيني...

تمسح سفغي قطرتي الدمع المنحدرتين على خديها:

- لا تقولي كلاما فارغا! أنا سعيدة بوحدتي. ولن أحترق في جهنم. هيا أسرعي الآن.

ذهبت غولسن... مازال شخير القطة مستمرا... هبط المساء.

تزيح سفغي غطاء مسدلا على لوحة. تمعن النظر إليها برهة، ثم تجمع كأسي الشاي، وطبقي الكعك، وتأخذها إلى المطبخ.

نرى في اللوحة غولسن تحمل بيدها بالونا بنفسجيا كأنه يسابق الشمس البرتقالية خلف التلال. ومع اقتراب الشمس والبالون تبتعد الأكواخ خلف غولسن وتصغر.

تأتي غولسن إلى حافة اللوحة، وتتوقف هناك.

ناظلي إراي

(ولدت في أنقرة العام ١٩٤٥)

درست الثانوية في المعهد الأمريكي للبنات في اسطنبول. عملت مترجمة في إحدى الوزارات خلال الفترة (١٩٦٥ - ١٩٦٨).

كتبت قصتها الأولى: «مسيوخريستو» في العام ١٩٥٩، مع بداية المرحلة الثانوية. وفي العام ١٩٧٦ جمعت ثماني عشرة قصة في مجموعة صدرت تحت عنوان: «آه ياسيدي آه». تحاول في هذه القصص إنشاء جسر بين الواقع والخيال، وتطعِّم قصتها بشيء من خصائص الحكاية.

من مجموعاتها القصصية الأخرى: «عرفت الليل ١٩٧٩»، «لا تقبِّلي ذيله يا فتاة ١٩٨٢»، «عالم جاهز ١٩٨٤»، «قِطَعُ ليلة قديمة ١٩٨٦».

كتبت الرواية مستخدمة عناصر الفنتازيا، ولكنها لم تبتعد عن وحدة الإنسان والحب، والشعور بالذنب، والعدالة في أثناء غوصها في اللاواقع.

من رواياتها: «أيام الباسفيك ١٩٨١»، «أورفي ١٩٨٣»، «يوم أحد على شاطئ البحر ١٩٨٤» ويعتبر كتابها الأخير هذا كتاب ذكريات ذا طابع روائي.

عينا الكلب

أرى في عيني الكلب مدينة غريقة في مياه المحيط منذ زمن بعيد.

أنظر إلى ساعتي. الحادية عشرة وعشر دقائق. على نقطة من خريطة العالم نجلس في غرفة أنا والكلب متجاورين.

الكلب ابن كلب. أنا ابنة إنسان. نجلس متجاورين، وننظر إلى الآخرين.

أرى شيئا من النضج في عيني الكلب، وحزنا لا متناهيا، وخواء من أمل. الكلب يرى في عيني حربا وألما.

أنظر إلى ساعتي. إنها تشير إلى الحادية عشرة والربع.

ليس لدى الكلب ساعة. إنه ينظر أمامه.

أرى مدخل المدينة الغريقة في عينيه. أخلع ثيابي بسرعة، وحذائي الخريفي. الكلب يتابعني بهدوء، الآن أحاول خلع ألبستي الداخلية، لم أستطع، أو بمعنى آخر، تربيت على ضرورة بقاء ألبستي الداخلية ملتصقة على جسدي إلى ما لا نهاية.

الكلب يتابعني بشيء من الوداعة، واللامبالاة، والنضج، والحزن. ألبستي مكومة بانتظام إلى جانب الكرسي. أغوص ببطء في عيني الكلب.

الماء فاتر. أنزلق من بين أعشاب البحر، وأدخل المدينة.

الكلب ابن كلب. أنا ابنة إنسان.

أنحدر من عائلة جيدة. والداي يجلسان في شقة. كنت في صغري أراقب الحمامة وهي تضع بيضها في الشرفة. كان الكلب يربى على يدي أمه في الحديقة الخلفية، ثم انطلق إلى الأزقة. إنه لا يذكر طفولته. لعل هذا وعي بالنسبة إليه.

إنه يجلس ويراقبني بعينيه الناعستين الحزينتين.

أنا أسبح تحت الماء في عيني الكلب. أسبح بجنون. فجأة تظهر على جانبي سمكتان. أنظر إليهما. سمكة اليمين دلفين، وسمكة اليسار سردين. نتسابق. انظر بطرف عيني نظرة استصغار لسمكة السردين. الدلفين يتقدم. إنه أسرع منا. أنا في الوسط. السردين يخسر السباق. أسبح إلى حد الشعور بأن رئتي ستنفجران. أعشاب البحر تلامس وجهي.

أنطلق في نهاية السباق، وأنهيه لصالحي. أصافح الدلفين من زعنفته.

ألمس ذيل السردين.

تتراقص المدينة الغريقة أمامي على أنغام (الرومبا). وأضرب الماء بقدمي إلى الخلف.

في طفولتي كنت أضع حذائي بجانب رأسي عندما أنام.

لا أعتقد أن هذا الأمر غريب.

أعتقد أن كل الأطفال يفعلون هذا.

الكلب يحفر لعظمته حفرة عميقة، ويضع رأسه بين قائمتيه، وينام.

أعتقد أن هذا ما يحدث.

أدخل إلى المدينة الغريقة. تدور حولي أسراب السمك، وأتجول في أزقتها الخاوية مرفوعة الثوب. تنزلق قدماي على أعشاب البحر. انظر إلى الظلمة المدهشة. تمد الأخطبوطات أذرعها كأنها تريد الإمساك بي.

أسير الآن كمهرة، سعيدة، منفعلة، على أربعة حوافر. لعل ساحة السباق قريبة من هنا. إني أشم رائحة التبن، والشعير، والروث.

أشعر بالفرسان يجهزون أنفسهم ليمتطوا أفراسهم. السباق يوشك أن يبدأ. انظر إلى الفارس ذي الوجه المشابه للوردة الذابلة. رمى سيجارته، وسحقها بقدمه.

يالتوتره.

يالجمالي كفرس عربية.

أحفر التراب أمامي بقائمتي الأماميتين دلالة نفاذ صبري.

الكلب يجلس هناك، وفي عينيه استسلام ووداعة.

أبدأ العدو في الشارع الرئيسي للمدينة الغريقة. شعر رقبتي يتطاير كعلم. أصهل، وأصهل.

الفارس خفيف على ظهري. كأنه لا يمتطيني. بعد ذلك بدأ يثقل.

إنني مهرة، مازلت ألبس ثيابي الداخلية:الصديرية، والسروال الداخلي ذا (الدانتيل).

فك الفارس صديريتي. حاولت منعه.

غضب صاحب الوجه المشابه للوردة الذابلة، فتوقفت عن منعه.

الآن تسبح ألبستي الداخلية في محيط عيني الكلب كالغيم الأبيض.

المدينة الغريقة ترقص على أنغام الرومبا بجنون.

أتنفس نفسا عميقا كي أملأ رئتي بالأوكسجين.

في تلك الأثناء يخطر ببالي سؤال الفارس عن البرج الذي هو من مواليده.

أسأله بهدوء.

يهمس في أذني بكلمات صريحة. أنظر إلى بقع الوردة الذابلة.

يجب أن يتكون على جبينه حبات عرق صغيرة.

يتنفس بهدوء وانتظام.

الكلب ينظر بحزن ووداعة لا متناهية.

الكلب ابن كلب.

والفارس ابن كلب.

سليم إلري

(ولد في اسطنبول العام ١٩٤٩)

تخرج في ثانوية أتاتورك للبنين العام (١٩٦٨). درس فترة في كلية الحقوق، وكتب السيناريو.

نشر قصته الأولى في أيلول عام (١٩٦٧).

حظي بشهرة واسعة من خلال روايته: «بوضروم كل ليلة» التي يعرض فيها ذهاب مجموعة من الشباب لقضاء عطلة في مدينة بوضروم الساحلية، ويطرح فيها قضية المصالحة بين مختلف الطبقات الاجتماعية. ونال عن هذه الرواية جائزة مجمع اللغة التركية العام ١٩٧٦.

من مجموعاته القصصية: «عزلة يوم جمعة ١٩٦٨»، «صيف الضغط ١٩٧١»، «آخر أيام الصداقة ١٩٧٥»، «تحت تأثير بحر ما ١٩٨٠»، «أزهار ذابلة في دفاتر قديمة ١٩٨٢»، «آخر مساءات الصيف ١٩٨٣».

كتب عددا من الروايات والدراسات الأدبية.

نال عن مجموعته «آخر أيام الصداقة» جائزة سعيد فائق للقصة العام ١٩٧٥.

آخر آيام الصداقة

كأننا لن نسعد. لن نسعد أبدا (هذه كلمات صارمة لحارس ليلي). من الممكن أن تذكرني بهما سيجارة دُخِّنَ نصفها كانت متروكة على المنفضة، أو قذارة على جدار هي أثر ليد طفل، أو باقة من الزنبق تُركت في زهرية حتى ذبلت. تُعدُّ بضع الساعات فترة قصيرة. كأن كل شيء قد انتهى. ما الذي يشدني إلى هذا البيت؟ هل هو إنسانية غولتان وصدقها، أم صداقة علي غير المتغيرة مع أحد، ولكن هذا يقتل نشوتي. إني أتراجع عن نشوتي خطوة خطوة. سينسياني. بعد سويعات سينقطع صوت أحساسيسي ومحبتي. وسأعيش ذكرى صباح يوم الأحد السيئ: (الربيع قادم. هذه الأمطار تبشر به. كأن الفصول أمور عادية، أو حوادث لا أثر لها على حياتنا). آه لو استطعت ألا أنساهما، وألا أخرج من حياتهما كظل يدعى كمال. لعلهما سيتذكران أنني أشرب القهوة دون سكّر. ستتذكر هذا غولتان، لأنها طيبة.

سأستمر في قراءة الكتب، وسأقلع عن استمتاعي بالتأخر في سريري أيام الآحاد، لأن هذا ليس من حقي. (السماء تمطر وتتوقف. هكذا هي أمطار الربيع. بَرَكَة. هذا ما قاله الأجداد. تنتعش الخضروات بهذه الأمطار ولكن يدّعي قوطلوش أن هذه الأمطار لا تنفع إلا في جر أقذار الأزقة الخلفية) ها هي المقاعد التي طالما جلسنا عليها ليلا. قال علي: «إنه المرة الأولى التي نجلس فيها باستمرار منذ تزوجنا» أنت تأتي كل ليلة دون أن تهتم براحتنا. للصداقة أيضا حدود... إنه بيت لا يعترف بحق استعمال غرفة الجلوس. إنه شقة صغيرة في بناء. كلما أتيت أشعر بضيق البيت بشخص ثالث، لكنني أعود من جديد. لعل السبب هو

شعوري بالوحدة الذي يلف فؤادي. قال لي علي فيما بعد: «سئمنا من شعورك البورجوازي بالوحدة» لكنه لم يقل هذا إلا بعد فترة طويلة. في البداية، اكتفى بإبداء قلق جميل.

كنت أخدع بالصيف، وبحرارته المدوخة بشكل خاص.

الآن انتهى كل شيء. عليَّ أن أجعل من هذه الذكريات طريقا وهميا مسدودا. لن أهتم بصمت قلبي ومقاومته الخبيثة. مضت سنون على تعلمه أبجدية الصمت. سأستمر من الصفحة التي توقفت عندها. كل الأحاسيس بخسة.

دخلت إلى الدكان لحظة توقف المطر. تلفني الأزهار بألوانها الأخاذة من كل الجهات. (باقة زنبق لم تذبل بعد. الزنبق يرمز إلى السعادة) تقطف الزهور البصلية بسرعة. إنها تنبت في حواف الوديان، وفي السهول، وعند الينابيع. قالت بائعة الأزهار: «أين سنجدها في الشتاء؟ هذا مستحيل» عدّلت حزامها المزين، وشدت تنورتها، وابتسمت لي. لم أعد ألح في تحقيق رغبتي. وددتُ تحضير سلة صغيرة. لتكن سلة من قش. (لن يقول عني بعد الآن: «شعور بورجوازي بالوحدة») كانت ساعات سيئة من ليالي الشتاء. سرعان ما تُظلم. خرجت بسرعة بعد عودتي إلى البيت. قالت لي أمي: «لا تذهب إلى بيت أحد أيام الآحاد، وإلا ستُطرد يوما» لم أكبر بأي شكل. خطر ببالي العودة إلى رشدي. لم أهتم لما خطر. جدران البيت تسير نحوي. لم أكتفِ بدمية الدب المعلقة بجانب السرير. لحظة ضعف أشعر فيها بحاجتي إلى الناس والأصدقاء. أقول: «أنا خارج يا أماه»، وتنظر إلى وجهي مؤنبة...

«لا تتفتح أزهار البنفسج هذه الأيام». شددتُ أذني دبي، ثم مسحت بيدي على وبره المتخصل، وقرصته من أنفه: «ها عدنا لبعضنا بعضا.

أنت تفهمني». انتبه إلى بائعة الأزهار. إنها تعمل في دكان أضطر دائما للمرور من أمامه. إلى من سأرسل الأزهار؟ لم أعشق. أنا غريب عن زهرة الأوركيد في العلبة الجلاتينية.

«أريد إرسال أزهار»

حملت نظرة الفتاة شكا. إنها تشعر بي. طلبت إرسالية زهر، وأنا ألبس بنطلونا مخمليا غير منسق، وياقة معطفي المطري مثنية، وحذائي غير مصبوغ. لم تستطع فهم حالتي (جعلوها عمياء العينين، قاسية القلب، لكي لا ترى بعينيها، ولا تفهم بقلبها).

«أتريدها في سلة، أم علبة؟»

«في سلة. سلة صغيرة»

«أتريد بنفسجا؟»

تفتحت الأزهار الزرقاء، وفور لمسي لها تُقطف. كان قد بدأ علي بكسب قوت يومه. أتذوق طفولتي بقَرفِها ومرضها. كنت أتجول هائما على وجهي. أقضم أزهار البنفسج، وعلي حصل على كل ما يريده الإنسان من الحياة. كنت أشعر بالغيرة من فقره، وجوعه، وشعوره بضرورة الحب. أحرّك بورجوازيتي قائلا: «إنك معافى، وهذا أهم ما في الحياة». كاد يصفعني بوحدتي، عندئذ ستصطك أسناني، وسأمسك نفسي كي لا أبكي، وتتدخل غولتان بيننا. لم يجلسا في غرفة جلوسهما لأنهما زوجان عاملان. دخلت الغرفة حيز الاستعمال مع ظهوري. أحب هذه الغرفة كثيرا. لا أستطيع التعبير عن مقدار حبي لها. إنها غرفة تشعر الإنسان بالطمأنينة، والحياة، والأمان. عبارتي: أنا سعيد معكما» عبء، ومسؤولية على كاهل علي. فجأة انتفض قائلا: «لا تتلكم كلاما

فارغا». لا أعتقد أنني قلت كلاما فارغا. أشعر أنني قط شارد رضي بالرفس، وأنني سافل، ونذل، ولكنني لا أتراجع.

هذا هو الملجأ الأخير لأيام من دون عشق.

قال لي علي «أنت أناني». لن يقول هذا بعد الآن. ولن أركب بعد الآن سيارات حي قورطلوش. كنا نعيش في هذا البيت كل الفصول. لن أدعي أن الفصول كانت تضيف معاني جديدة إلى حياتنا (سنتقابل من جديد. المشاورات، والثرثرة، والأحاديث الفاصلة لأوقات الصمت هي نفسها... ألا يريان أن ثمة شيئا قد كُسِرَ أو أهين؟ لعل غولتان ترى، وتشفق علي. نعم إنها تشفق عليّ. في النهاية أصبحت رجلا يُشفق عليه. أستيقظ صباح الأحد وأذهب إليهم، بعد قضائنا لأمسية سبت مسليّة معا. كم أتوق لنهايةالليل. أتركهما مع بزوغ الفجر... بالسلطة البطاطا التي تعدها غولتان... والقهوة... والكلمات الباعثة على الأمل... وعلي الجيد. يجب عدم بعث الملل في نفوس الآخرين. ليلة البارحة كان علي جيدا أيضا. «أنت تذهب إليهما كل دقيقة. نسيت الجلوس في البيت. سيطردانك يوما ما» ترتجف يدي وأنا أضرب الجرس. أتماهل بصعودي الدرج لكي يتأخر لقاؤنا. أقول أحيانا لنفسي: «يجب أن أعود».

«تُشعِرُ الإنسان بالغثيان. تريد أن نتكلم معك، وننشغل بك الأربع وعشرين ساعة من ساعات اليوم»

«لا، ليس هكذا يا علي. أنا أشعر بالوحدة. عذرا، أعرف أنني أزعجكما. لم أحتمل»

«إنك تزعجنا بالفعل. افترقنا منتصف الليل، وها نحن نستيقظ مصطبحين بوجهك»

«أشعر بالوحدة. وأنسى هذا الشعور عندما أكون معكما»

«ما علاقتنا بوحدتك يا أخي؟...»

في الحقيقة كان لا يريد قول هذا: عليك ألا تقول هذا. أنتما لا تستهينان بخوفي وحزني من اقتراب نهاية الليل» الجدال يسيطر على حياتنا، وكل منا يلوم الآخر.

لم تكن غولتان قد تركت أول الدرج. كنت قد قلت: «أستودعك الله يا علي» مد يده: «يجب ألا نهين أحدا صباح الأحد» أنزل الدرج بسرعة. لو أدرك أنني لن أسقط، وأغدو مضحكا لقفزت كل درجتين، أو ثلاث درجات معا، وهربت من هناك. غولتان تبث صوتها الحزين عبر فتحة الدرج، مرسلة سلامات إلى هذا وذاك. الأصدقاء الذين لا أوصل سلاماتها لهم يعرفون أنني أشعر بغيرة جنونية منهم. يجب عدم استهلاك الكلمات. يستحيل علي التفكير وأنا على الدرج.

«الليلة الماضية أيضا شعرت بأنني شخص ثالث. كنا نتكلم عن المصايف. علينا أن نذهب إلى مكان ما من الشاطئ. بوضروم مثلا. كنتما تتكلمان وأنا أستمع. لم تدعواني. لستما مضطرين لدعوتي. يالشواطئ بوضروم وشمسها... أنا لم أذهب إلى بوضروم، ولن أذهب هذا الصيف لأنكما لم تدعواني»

«أين كنت؟»

«ذهبت إلى بيت علي»

«منذ الصباح الباكر... عيب يا بني. سيقولان: أليس لهذا بيت؟»

«لا يقولان شيئا»

علي لا يحب الصمت القاتل الذي يملأ الغرفة. القطع المفاجئ للحديث، أو الاستمرار فيه، أو مغادرة المنزل تتم بوحي منه. وأنا أيضا أحب الصمت. أسعد عندما أدفن نفسي في المقعد، وأجلس في الغرفة غير المستعملة. غولتان مختلفة. إنها دائما تجد ما تتكلم عنه، وما يمنع تشتت الاهتمام. علي أفقر، وهو منغلق على ذاته (المطر يسوّط وجهي. عليَّ أن أجد من يجعلني لا أفكر في علي وغولتان. اشتدت غزارة المطر) لِمَ لا يحسب علي حسابا لصداقتهم. إنه لا يجلس أمام شباك الاعتراف مثلي. أنا صريح معهما إلى حد لا يوصف، ولم أكن صريحا مع أحد بهذا الشكل. استمعا إليّ ليالي عدة، طوال الإجازات الشهرية والسنوية، وحتى الثمالة. «لنذهب إلى مكان ما ياعلي، اشتقنا إلى البحر. ألبسة غولتان أنيقة، وشعرها الفاحم قوي. اعتادا الذهاب إلى مطاعم الشاطئ عند المساء. مساء الصيف حار لا يطاق. اسطنبول تسلق. ياللهواء القادم من بوضروم، وللأسماك بأنواعها...

«هل ثمة شيء يا كمال؟»

«مثل ماذا؟»

«لا أعرف. اصفر وجهك. يبدو أنك متضايق»

«لا يا عزيزي»

سألوي رقبتي. تلتقي عيناي بعيني علي. يقول باسما: «عادت بروفات الشعور بالوحدة» أستطيع كسر هذا الزجاج، ومنفضات السجائر الخزفية هذه، والأطباق والصحون في المطبخ، ومصابيح غرفة النوم... دون أن ينظر علي إليّ بسوء. يعلّق علي بمحبة. أحب الصداقة.

أشعر كأنني أعرفهم منذ سنين، لكن في الحقيقة، منذ أقل من عام.

كان يومئذ صباح أحد فارغ. لم أجد ما أفعله. لم أجد القوة لأتمدد في الفراش، وأقرأ رواية مثل علي. لم أجد ما أفعله... أظن أن الهاتف يرنّ. أهرع إليه، فلا أجده هكذا. تصفحت الجرائد. مررت بعيني عليها. أحسست باليأس يلفني حتى الحصار، وأنا أمر بكل سطر. كل إهانة أُهنتها تتحول إلى حريق وأنا أتصفح الجرائد. لن أقول لها إنني لا أستطيع حماية نفسي، والتغلب على يأسي («ياالسعادة من في الحداد لأنه يوجد من يعزيهم، ويشفق عليهم» لعل هذا لعدم إيمانهم ببركة المطر) كانا يتناولان طعام الإفطار. قالت غولتان: «أتشرب الشاي؟» انتظرت قول علي: «ألا يشرب؟ يشرب ولو كانت ماء». سكتَ. فتح الجرائد التي لم أستطع قراءتها لكي يغطي وجهه. كأن ثمة ما لا يريد، ويكره رؤيته. قطَّب جبينه، وفقدت عيناه رقتهما القديمة. غولتان تدهن الخبز بالزبدة. أقول لها: «أنا شبع يا غولتان، أشكرك» تلح غولتان، تزيد بإلحاحها. تلتقي عيناي بعينيها. نظرتها حساسة ووديعة. تنفجر الرطوبة في نبع عيني. يجب أن آكلها. المطر لم يبدأ بالهطول بعد. نستطيع الذهاب إلى البوسفور وتناول السمك، طوال الطريق، وأنا أكرر ما سأقوله لهما: «أنتما لم تدعواني إلى بوضروم، لكنني أدعوكما لتناول السمك» سأتصرف بحيوية وراحة، ودون تردد. هكذا خططت أن أكون. المنجِّمُ لايتوقع هطول المطر. الجو مضيء. إنه يوم شتائي مثل باب مفتوح على الربيع.

«اذهبا إلى «بوضروم». تجولا في كل الشواطئ. لن أتكلم معكما عندما تعودان. اذهبا إلى «بوضروم». استمتعا بطعم عدم الانفراد. لتمنحكما الشمس محبتها. استفيدا من رطوبة البحر المنعشة. تجولا في كل الشواطئ...».

ترك علي قراءة الجرائد. تجاذبنا أطراف الحديث. سأل: «هل وقع

شيء؟ لابد أنه وقع ما جعلك تأتي إلى هنا» ذهب إلى غرفة النوم، وبقيت مع غولتان في المطبخ (أولى قطرات المطر تنقر على زجاج النافذة، وتترك آثارها).

«عدتُ عن اختيار السلة. لا أريد سلة»

«كما تريدون» مازالت عيناها على معطفي المطري، وكميّ بنطلوني الملطخ بالطين.

«كم سعر البنفسج؟»

«الباقة بعشر ليرات»

«ما هذه؟»

«لا أوصيكم بها. عمرها يومان. البنفسج طازج»

أردت معرفة اسمها. ذكرتني بالزنبق. أنا أحب الزنبق.

«الزنبق غال. أود إرسال الكثير منه... باقة ضخمة»

«أنتم على حق، إنه غال قليلا. بكم تريدون الباقة؟»

أردت إرسالها لغولتان التي طالما انتظرتني مودعة في أول الدرج. أود إرسال كل هذه الأزهار لها.

«أنعمل لكم باقة من القرنفل؟ القرنفل جميل جدا» تريني قرنفلا تكاد تسقط بعض تويجاته. لايعجبني، عليَّ أن أقرر. سرّعت الفتاة لعبها في حزامها المزركش.

كنت أترنح في أثناء لبس حذائي. ربطتاه ما زالتا مفلوتتين، وعلي

يقف بالباب. أتمسك بالجدار. بقيت آثار يدي على الجدار. قلت: «وسّختُهُ ياغولتان» قالت: «ليس مهما، سأنظّفهُ» ثمة ما يغلي في داخلي عندما أذهب. كلما ودعتهما أشعر أنني لن ألتقيهما ثانية. لا أسألهما: «متى سنلتقي؟»، أقول لهما: «لنتهاتف». لم أقلْ هذا اليوم. ربطتُ حذائي، مسحتُ يدي بطرف معطفي، ومددتها إليهما: «أستودعك الله يا غولتان. أستودعك الله يا علي» لا يخرج علي إلى فسحة الدرج. ليس لي حق في تخريب صباحات أيام الأحد.

«إنكما صديقان. أحبكما»

«تسلم يا كمال»

«أقول هذا بصدق. أفكر أحيانا بأنك وعلي الطريق الوحيد لخلاصي»

«ولكن عليك التخلص من شعورك بالوحدة»

«لكنك تنسين أن كمال بورجوازي يا غولتان»

«علي يقول لك هذا على سبيل المزاح»

«وأنا أيضا أمزح»

أحضر صبي علبة من الجلاتين... ذهبتُ إلى بيت علي على العشاء، وقضيت ساعات جميلة جدا إلى الطاولة الصغيرة. الصداقة هي الملجأ الأخير. فتحت الفتاة غطاء العلبة. يداها معتادة على العمل. «هل توجد بطاقة فارغة؟» يمد الصبي يده بالبطاقة. أتناول القلم الجاف من فوق الطاولة: «إلى العزيزة جدا غولتان. لم أتعرف إلى أحد يستطيع مشاركة الآخرين وحدتهم مثلك. أشكرك لما فعلتِهِ هذا الصباح» أعدت القلم إلى

مكانه. أمليتُ العنوان للفتاة. لم تعد تلعب في زينة حزامها. كتبت العنوان على دفتر. «أرجو أن ترسلوها في السابعة تماما» ابتسمت، وقالت: «لا تشغلوا بالكم!»

كان فصل صيف محببا. أمضيناه بين غرفة الجلوس غير المستعملة، والشرفة الصغيرة. صيف يتكرر فيه وبالسوية نفسها الاحترام، والأحاسيس والمواقف ذات المعاني. وكلما صعدت الدرج أشعر بالأحاسيس نفسها.

«أنت هكذا منذ طفولتك. لم تتغير. إنك دائما في بيوت الآخرين. مساء البارحة كنت هناك»

أنا هكذا منذ طفولتي. لم أتغير. أنا دائما مغرم ببيوت الآخرين. ما الذي أحببته في بيت علي؟ في البداية كان الأمرلعبة، ويمكن العودة عنها... غولتان تحضّر الطعام بإرادة عند عودتها من العمل، دون أن تعد هذا عبئا إضافيا. ولا يستهان بثقة علي واندماجه مع الآخرين بسرعة. السمتان الواضحتان في حياة علي هما: ولادته ونشأته فقيرا في حي (إسكدار)، وحبه لغولتان وزواجه منها... إسكدار هو الحي الذي كنت أجمع فيه أزهار البنفسج، وكثيرا ما ترددت إليه. كأنه كُتب على جبيني- على الرغم من عدم إيماني بهذا - أنني لن أتخلص منه. كأنه يثأر مني لعمل لم أعمله. إني أتمنى حياة كحياة علي، وصحة كصحته . لا شيء غير هذا. إنني أحترم سعادتهما. «يالسعادة من هم في الحداد!».

(يجب أن أجد غيرهما، معارف لم أرهم منذ زمن بعيد، وأن يفرحوا عندما يفتحون لي الباب «في المساء كنا معا، وفي الصباح نستيقظ على صوت جرسك. أنت أناني جدا» أصبحت الأتربة التي لم يغسلها المطر طينا. سيرسلون الأزهار في الساعة السابعة، سيأخذها ذلك الولد.

سيشتمني في داخله قائلا: «تحت المطر...» وصلت إلى نهاية شعورما. أمور لا تحصى سأتذكرها من هذا الصيف. علي ليس رجلا في الثلاثين من عمره. إنه يعود شابا، أو طفلا. عودته إلى الشباب أمر ساحر. اشترى لي ولغولتان زجاجتي مياه غازية في السينما الصيفية. كنا نتابع فيلما رديئا. غولتان وعلي يضحكان، وأشاركهما مقهقها. كادت تتهمر من عيني الدموع. همست لي غولتان بكلمات ما في أثناء خروجنا من السينما. كانت تقول لي أشياء جميلة. كم وددت أن أحضنهما. ثمة فيضان غريب. فيضانات لا تناسبني. عليَّ أن أكون رصينا. هكذا علّموني. يجب أن أركّز بصري على بروزات ونتوءات الرصيف.

«اهتف لنا يا كمال»

غولتان تعرف أنني لن أتصل، لذلك كانت تقف فترة طويلة في فسحة الدرج. كنتُ أحزن كثيرا. (أُهِنْتُ)

«شعرت بالضيق فأتيت عندكم»

«هل أكلت يا كمال؟»

«إني أُتعبك كثيرا يا غولتان»

«الله يا كمال... كيفما كان الأمر فالطعام جاهز»

إرسالي الأزهار تصرف لا منطقي. سأعود لأبلغهم بنكوصي. أقول لها: «أنا سآخذها»، ثم أرميها في مكان ما، وأركض فلا يشعر بي أحد. سيغضب علي كثيرا، ولن أحتمل عذاب غولتان. وستهتز زينة حزام بائعة الأزهار، ويزداد الطين على كمي بنطلوني.

عليّ أن أعود إلى البيت، وأنتظر هاتف غولتان.

المترجم في سطور

د. عبد القادر عبد اللي

- مواليد الجمهورية العربية السورية ١٩٥٧
- تخرج في جامعة المعمارستان - اسطنبول - قسم فنون المسرح.
- له عدة ترجمات من التركية لعزيز نسين، مثل: زوبك - في إحدى الدول - الحمار الميت، ولخلدون طانر، مثل: الثانية عشر إلا الدقيقة - ملحمة على الكاشاني.
- قدّم مختارات من القصة التركية الساخرة... بالإضافة إلى العديد من الدراسات في الأدب التركي المعاصر.

المراجع في سطور

د. زينب سعد زغلول أبو سينة

- أستاذ مساعد بقسم اللغات الشرقية - كلية الآداب - جامعة القاهرة.
- نالت درجة الدكتوراه في «الشعر النسائي العثماني» بتقدير امتياز في العام ١٩٨٥.
- لها عدة ترجمات ودراسات في الأدب التركي منها:

- منتخبات من دواوين الشعراء السلاطين (دراسة أدبية)
- شعر الحماسة في الأدب التركي.
- الشعر التركي المعاصر (من ١٩٨٠ إلى ١٩٩٠).



329

مختارات من القصة التركية المعاصرة

إن ما ترجم من الأدب التركي القصصي للغة العربية قليل، لذا سوف تجد عزيزي القارئ في هذا العدد إحدى وعشرين قصة منها: النُّكس، الزقاق الخلفي، الموت ضحكا، آه... لو قتلتني يا معلمي، امتلئ يا قلبي بنسائم البحر ...إلخ، وهي لعدد من الكتاب والكاتبات الأتراك. ومن خلال هذه المجموعة القصصية المتنوعة المدارس والتوجهات في كتابة القصة القصيرة نلاحظ خط تطورها في تركيا منذ ثلاثينيات القرن العشرين وحتى نهايته.

فالكتَّاب الذين وقع عليهم الاختيار في هذا العدد يمثلون النقاط الأبرز في كتابة القصة التركية على الرغم من شهرة بعضهم في ميادين أدبية أخرى. لهذا يمكن أن نجد الواقعية بمختلف اتجاهاتها، والتعبيرية، والرومانسية، وغيرها من المدارس.

إضافة إلى هذا فقد اختيرت الأصوات الأدبية النسائية حتى يتعرف القارئ العربي إلى مختلف الاتجاهات القصصية في تركيا، والتي يحمل أعباءها الكتاب والكاتبات على حد سواء، مثل: خلدون طانر، عدالت آغا أوغلو، ناظلي إراي، سليم إلري... إلخ. هذه المجموعة وغيرها من الأسماء التي احتواها العدد ذات حضور مهم في الساحة الأدبية عموما، والقصة التركية خصوصا.

ردمك ٢ - ٠٥٦-٠-٩٩٩٠٦
ISBN 99906-0-056-2